د. محمود ماهر

فَجرُ إيبيرِيَة

روایة أندلسية

THE DAWN OF IBERIA

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

فَجرُ إيبيرية

رواية أندلسية

THE DAWN OF IBERIA

فتح الأندلس

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: مايو / 2021م
رقم الإيداع: 2021/7011م
الترقيم الدولي: 978-977-992-154-9

المؤلف: د. محمود ماهر «راوي الأندلس»
تدقيق لغوي: الشيماء صلاح الدين سرحان
ابتهال محمد الدسوقي
تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

د.محمود ماهر

فَجرُ إيبيرية

رواية أندلسية

THE DAWN OF IBERIA

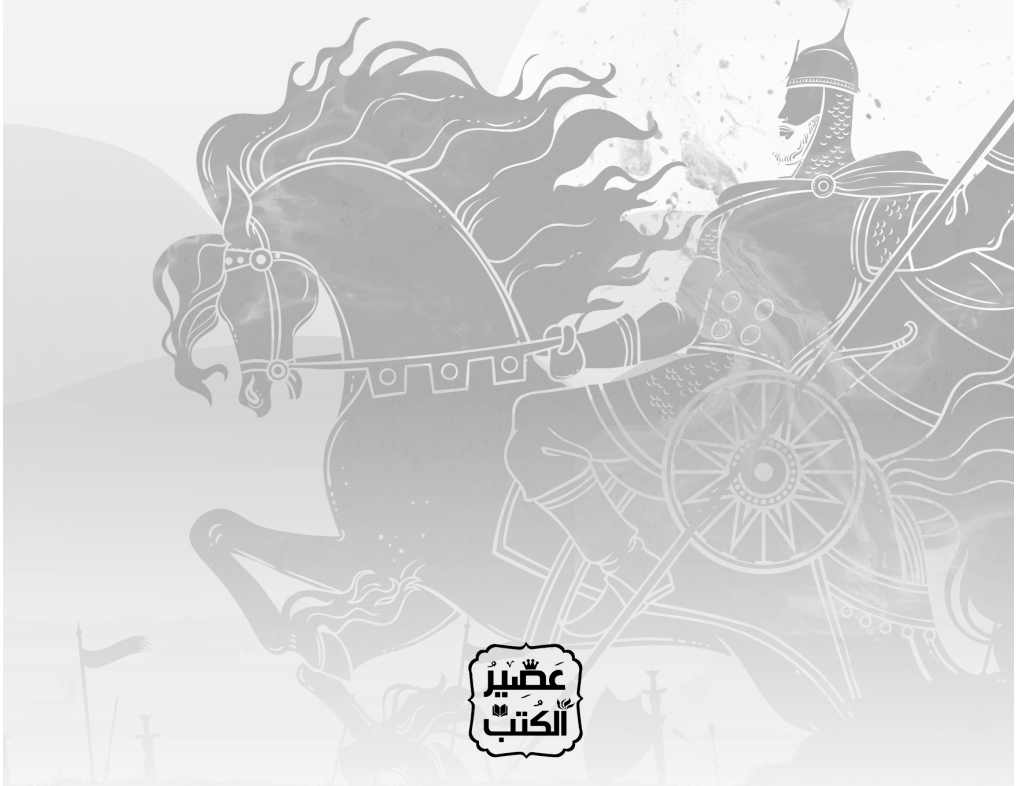

عصير الكتب

إهداء

إلى بطل الإسلام «**طارق بن زياد**» الرجل الذي ترك علامة في الزمان، وشهد له المكان، وأثر بالوجدان.. رجل قاد الجند، وعبر البحر، وفتح الأندلس..

وإلى أبطال «**شذونة**» هؤلاء الرجال الذين بذلوا دماءهم في سبيل إيصال نور الإسلام إلى القارة العجوز.

تنويه

وقعت أحداث هذه الرواية في القرن الأول الهجري، وجميع ما ورد فيها من أحداث ومعلومات هي حقائق وليست من نسج الخيال!

راوي الأندلس

عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**».رواه مسلم (ح/2889)

الفصل الأول

اللهم إني أشهدك أن لا مجاز،
ولو وجدتُ مجازًا لجزت!

«عقبة بن نافع»

(1)

رحلةٌ أسطورية

دُق جرس الإنذار في الطائرة، وبدأ الركاب في ربط أحزمة الأمان للمقاعد، وخرج الصوت الداخلي لقائد الطائرة يقول: «حضرات السادة الركاب محدثكم الكابتن صلاح الدين النابلسي، أرحب بكم على متن طائرة الخطوط الجوية الفلسطينية المتجهة إلى مستعمرة «جبل طارق» رقم الرحلة هو سبعمائة وأحد عشر، أمَّا مسارنا فسوف نتجه مباشرة من القدس الشريف باتجاه مطار القاهرة الدولي، ثم إلى مطار القيروان، ومنه إلى جبل طارق، مدة الرحلة حوالي ثمانمائة دقيقة أي ما يعادل ثلاث عشرة ساعة ونصف تقريبًا، نرجو أن تستمتعوا معنا طبتم وطاب يومكم»

أُغلق الصوت، وبدأت الطائرة في الارتفاع حتى عانقت السحاب..

كان هناك رجل قارب السبعين من عمره يجلس بجوار النافذة، وقد تعلق بصره بها، وهو يشاهد قبة الصخرة من السماء والمسجد الأقصى، وهما يبتعدان رويدًا حتى إذا حجبت السحب الرؤية حول العجوز رأسه للداخل ونظر إلى حفيده الجالس بجواره وقال: القدس ثم القاهرة ثم القيروان وأخيرًا جبل طارق، لو كنت أحلم وأحلامي تتحقق ما طلبت خيرًا من ذلك، ثم يكون قائد الطائرة صلاح الدين ورقم الرحلة سبعمائة وأحد عشر ومدتها ثمانمائة دقيقة.. قطعًا أنا في أعظم أحلامي.

عُمر متعجبًا: لا أرى في الرحلة كل ما ترى يا جدي.

وفي تلك الأثناء أقبلت مضيفة الطائرة لتقوم بتقديم الوجبات إلى الركاب، فاعتذر الجد، وشكرها وطلب منها فنجانًا من القهوة مكتفيًا به، بينما تناول عُمر طعامه.. مر وقت قصير، وبعد الطعام وبينما يتناول الجد قهوته نظر من النافذة مرة أخرى، وكانت الطائرة في طريقها للهبوط في مطار القاهرة، فرأى من النافذة مسجد «عمرو بن العاص» فتأوه قائلًا: لم تر ما أرى ذلك لأنك انشغلت بعملك وتجارتك عن تاريخك؛ فلم تدر ماذا تعني رحلة من القدس إلى الأندلس؟ رحلة نقطعها الآن في ساعات معدودة نشاهد من خلالها مساجد، ومنارات، وبلادًا أضحت تسبح بحمد الله، قرآنًا يُتلى وصلاة تقام، وتكبيرات الأعياد تجلجل هنا وهناك، تخرج من القدس يا ولدي إلى القاهرة، والقيروان، وتلمسان، ومراكش لا يمنعك مانع ولا يسألك سائل، ولكن؛ هل سألت نفسك يومًا كم من الوقت استغرقت رحلة دولة الإسلام حتى تصل ما بين الشام والأندلس؟

عُمر مبتسمًا بتعجب: لا أدري.

الجد: لقد استغرقت أكثر من سبعين عامًا.

عُمر: سبعون عامًا! لمَ كل هذه السنوات؟

رجع الجد بمقعده للخلف وقال: حتى تغلغل الإسلام في قلوب وعروق الأمازيغ من أهل تلك البلاد، وحتى قضى أجدادك الفاتحون على أحلام الروم والقوط في استعباد البشر.. سبعون عامًا أو يزيد شهدت فتوحات عدة، قصصًا عظيمة وبطولات أسطورية ملحمية، انبثقت منها شجرة الوحدة مهابة الجناب التي ترعرعت وظللت بقاعًا شاسعة في هذا العالم، لمدة تصل إلى ألف وثلاثمائة عام..

فاذهب إن شئت إلى أي بلدٍ على امتداد الساحل الجنوبي للبحر المتوسط حتمًا سيضطرب قلبك سعادة؛ حين ترى المآذن في أنحاء شمال إفريقية تصدع بالآذان، وستسعد حقًا إن سبرت أغوار تلك القصص فمن خلفها أبطال حقيقيون، نراهم شهدوا الصراع الذي نشب بين الدولة الإسلامية الناشئة، وبين الدولة الرومانية الشرقية، صراع يعقبه فرحة انتصار، وفتوحات كانت أولها حيث بَسط الروم في الشام مهاد المعارك الأولى، إذ تُعد أول قُطر غنمه المسلمون من أراضي الدولة الرومانية..

ولربما كنت تتمنى أن تكون جنديًا في جيش «عمرو بن العاص» القائد العسكري؛ الذي كان على يديه الفتح العظيم لمصر في خلافة أمير المؤمنين «عُمر بن الخطاب». ولقد صار فتح مصر فاتحة خير للقارة السمراء؛ لأنها تتصل من الغرب بأملاك أخرى للدولة الرومانية، فكان من الطبيعي أن يتخذ المسلمون منها قاعدة لافتتاح إفريقية؛ توطيدًا لسلطانهم في مصر والشام وإتمامًا لسلسلة الفتوحات في غرب البلاد.

لكن تقدمهم نحو الغرب حُف بمشاق وصعاب لم يألفوها في فتوحاتهم الأولى، جعلتهم يقضون زهاء نصف قرن في معارك عنيفة مع «الروم والبربر». وأصيبوا إلى جانب انتصاراتهم بأكثر من هزيمة شديدة، وواجهوا عدة ثورات محلية عنيفة، وانهار سلطانهم الفتي غير مرة، قبل أن يستقر نهائيًا في إفريقية.

فبعد فتح مصر سار «عمرو بن العاص» غربًا فطوى صحراء مصر الغربية طيًا؛ ليعبر إلى «برقة» بليبيا فافتتحها وصالح أهلها على الجزية، ثم توجه إلى الشمال ناحية البحر وفتح «طرابلس» بعد حصارها شهرًا؛ فلجأ سكانها إلى سفنهم في عرض البحر، ولكنه تركها بعد اغتنام ما فيها.

ثم عاد المسلمون إليها في خلافة عثمان -رضي الله عنه- حيث سار «عبد الله بن سعد بن أبي سرح» الذي خلف عمرو في ولاية مصر إلى إفريقية بجيش مهيب بلغ نحو

عشرين ألف مقاتل، وسارت معه حامية «برقة» بقيادة «عقبة بن نافع»، وكان عمر قد ولاه على تلك الأنحاء.

قصد الفاتحون بادئ ذي بدء «طرابلس» وهي يومئذ أغنى وأمنع ثغور إفريقية، ولكن الروم تقدموا إلى لقاء المسلمين في مائة وعشرين ألف مقاتل بقيادة «جرجير» حاكم إفريقية الروماني.

ولما علم العرب بتحرك جرجير، كان عليهم مواجهة هذا الأمر بقوة وصلابة فتركوا حصار «طرابلس» وساروا في العمق غربًا إلى لقاء الروم، ونشبت بين الجيشين مدى أيام معارك شديدة في ظاهر «سبيطلة» التي حاصرها عبد الله، ثم افتتحها عقب غزوة شارك فيها سبعة قادة يُسمى كل منهم عبد الله فأطلق على تلك الغزوة «حملة العبادلة السبعة»، قَتل فيها «عبد الله بن الزبير» الملك «جرجير» وأَسر ابنته، وهُزم الروم هزيمة شديدة؛ لتُفتح البلاد للمسلمين تمامًا.

وهكذا صارت «سبيطلة» نقطة لانطلاق الجيوش في تلك الأنحاء حتى «قفصة» في الجنوب الغربي لتونس ثم عقد الصلح مع أهلها على أن يؤدوا الجزية.

وقضى «عبد الله بن أبي سرح» في تلك الغزوات خمسة عشر شهرًا، لكنه لم ينشئ في البلاد المفتوحة حكومة جديدة، ولم يتخذ بها قاعدة إسلامية، ثم عاد إلى مصر بعد أن أنشأ حامية في «برقة» وأخرى في «زويلة».

ثم جاء «معاوية بن حُديج التجيبي» وسار إلى إفريقية، وهزم الروم عند حصن الأجم، وتفرق الفاتحون في مختلف الأنحاء فسار عبد الله ابن الزبير إلى «سوسة» وافتتحها، وافتتح عبد الله بن مروان حصن «جالولاء»، وكذا غيرها من البلاد والحصون.

كل ما سبق كان تمهيدًا لأعظم فتح قام به العرب في إفريقية بقيادة «عقبة بن نافع الفهري» وهو جندي عظيم خبير بتلك الأنحاء والمسالك، وكان يتولى قيادة حامية «برقة» منذ فتحها، فاختاره الخليفة (معاوية) لولاية إفريقية، وبعث إليه بعشرة آلاف مقاتل؛ ليتم فتحها.

فجاز عقبة وهاد «برقة»، وتوغل غربًا حتى المغرب الأقصى، فافتتح جميع العواصم والثغور الإفريقية تباعًا، وهزم جيوشًا للروم والبربر في مواقع عديدة، وتوغل في مفاوز المغرب الأقصى، وسنزور اليوم -إن شاء الله- مدينة «القَيروان» التي أنشأها؛ لتكون عاصمة للولاية الإسلامية الجديدة، وحصنًا للدفاع عنها، وقاعدة لرد الروم والبربر..

كانت البلاد المفتوحة تضطرم بعوامل الخروج والثورة من أهلها البربر، وشُغل «عقبة» عن توطيد الدولة الفتية واستقرارها بفتوحات جديدة، واستكمل المسير

فاخترق المغرب إلى أقصاه، ووصل إلى ساحل المحيط هذه المرة، ودفع فرسه إلى الماء حتى بلغ نحره ثم قال: «اللهم إني أشهدك أن لا مجاز، ولو وجدت مجازًا لجزت».

فقد كان يلقي ببصره إلى بلاد ما وراء البحر؛ يأمل بأن يرفع فيها آذان المسلمين وتلهج فيها نفوسهم بالتوحيد، ولكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن؛ ففي ذلك الحين ثار البربر بقيادة زعيم لهم يُدعى «كسيلة بن لمزم» كان قد اعتنق الإسلام وحالف العرب ثم ارتد، وانضمت إليه جموع كثيرة من الروم والبربر ودارت رحى الخيانة في الأجواء فانتهز «كسيلة» فرصة تفرق المسلمين في مختلف الأنحاء، وانقض بجموعه على جيش «عقبة»، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة هُزم فيها المسلمون، واستشهد عقبة -رحمه الله- وجماعة من القادة..

واستغل «كسيلة» ذلك وزحف على «القيروان» واستولى عليها، وتراجع حاكمها «زهير بن قيس البلوي» بقواته القليلة إلى «برقة» وكادت بذلك تذهب دولة المسلمين في إفريقية.

اعتزم الخليفة «عبد الملك بن مروان» لاستعادة إفريقية، فأمد «زهير» بجيش ضخم، زحف به على القيروان وهناك على مقربة منها التقى بجيش «كسيلة»، ودارت معركة «مميس» الفاصلة معركة حامية الوطيس، هُزم فيها البربر وتبددت أحلامهم وقُتل «كسيلة» وكثير من أصحابه.

واستعاد المسلمون شوكتهم ودخل زهير «القيروان» وترك فيها حامية للدفاع عنها، وفرق جنده؛ لإخضاع الثوار في مختلف الأنحاء..

ولكن العدو الأكبر «الروم» انتهزوا فرصة توغل المسلمين غربًا، وأمدهم قيصر «قسطنطينية» بأسطول بحري من «صقلية»، فنزلوا في «قرطاجَنة» ثم زحفوا على «برقة» في جموع عظيمة.. وعلم «زهير» بتلك المفاجأة، فارتد بجيشه للدفاع عن «برقة»، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة هُزم فيها المسلمون، وقُتل زهير -رحمه الله- ومعظم جنوده، وذهبت المغرب من قبضة المسلمين مرة أخرى.

وكان وقع هذا الخطب شديدًا في «دمشق» مقر الخلافة، وكانت منشغلة يومئذ بمحاربة ابن الزبير وصحبه الخوارج عليها؛ لذلك مضت أعوام أخرى قبل أن تتمكن من العناية بشئون إفريقية، فلما انتهت الثورة وقُتل ابن الزبير، وجه عبد الملك عنايته إلى استعادة إفريقية مجددًا.

فولى عليها «حسان بن النعمان الغساني» وسيره إليها في جيش ضخم، كان أعظم قوة سيرتها الخلافة إلى إفريقية، فاخترق حسان «برقة» وقصد «قرطاجَنة» عاصمة إفريقية الرومانية، وكانت لا تزال في يد الروم ولم يغزها المسلمون بعد لحصانتها

واتصالها بالبحر، وقربها من «صقلية» التي طالما سارعت بإرسال الإمدادات إليها، فحاصرها بشدة ثم اقتحمها واستولى عليها، ولكن الإِمْبَراطُور سير إليها جيشًا بقيادة حاكمها «يوحنا» يعاونه أسطول من «صقلية» وقوة من القوط أرسلها ملك إيْبيرِيَّة القوطي؛ الذي أزعجه اقتراب المسلمين من بلاده، فانسحب المسلمون وارتدوا إلى «القيروان»، حتى إذا جاءتهم الإمدادات أعادوا الكرة على «قرطاجنة» وهزموا الروم والقوط هزيمة شديدة، ففروا ذعرًا إلى سفنهم وخربت «قرطاجنة» وهدمت حصونها القوية، واستعاد الإسلام سلطانه فيما بين «برقة» والمحيط.

وكان البربر قد اجتمعوا منذ مقتل زعيمهم كسيلة، في مفاوز المغرب الأقصى، تحت لواء امرأة مخيفة من قبيلة «جراوة» يعتقدون فيها السحر والكهانة تُعرف «بالكاهنة» وكانت تقيم ملكها في جبل أوراس، فسار «حسان» لقتالها وخرجت إليه بجموعها، فالتقيا عند «نهر نيني» الذي أطلق عليه المسلمون بعدها اسم نهر البلاء، ونشبت بينهما موقعة هائلة هُزم فيها المسلمون هزيمة شديدة، وقُتل منهم جمع كبير، ورجع حسان مرة أخرى إلى «برقة»..

وسارت الكاهنة «ديهيا» شرقًا حتى «قابس» واستولت على كثير من البلاد والحصون، وبسطت سلطانها على معظم إفريقية مدى خمسة أعوام.

أمَّا حسان فلبث في «برقة» حتى أمده «عبد الملك» بالجند، فزحف على المغرب ثانية، ولم تر الكاهنة وسيلة لوقفه إلا أن تحول البلاد إلى خراب بلقع خالية من كل شيء؛ فهدمت جميع المدن والحصون، وأحرقت القرى والضياع الواقعة في طريق المسلمين، ولكن ذلك لم يثن «حسان» فتابع سيره حتى أقاصي المغرب في وهاد ومفاوز صعبة، فشق الصحاري والطرق الوعرة عازمًا على إكمال مسيرته..

وأمَّا البربر فقد سئموا نير الكاهنة وعسفها، فهرع الكثير منهم إلى «حسان» يطلبون حمايته، وتفرقت جموع الكاهنة وتشتت أمرهم، فأدركها المسلمون بجبل أوراس ومُزقت جموعها وقُتلت.

واستأمن حسان البربر على الإسلام والطاعة، وأن يمدوا المسلمين باثني عشر ألف مقاتل، فأعطى حسان ولاية «جبل أوراس» لابن الكاهنة بعد أن استوثق من طاعته، ثم عاد إلى «القيروان» بعد أن محق كل مقاومة وقضى على كل نزعة إلى الخروج والثورة.

ولبث «حسان بن النعمان» بإفريقية حينًا، ينظم شئونها العسكرية والإدارية والمالية، وينشئ الدواوين ويرتب الخراج والجزية، ويوطد سلطان الحكم الجديد في الثغور والنواحي، وجدد مدينة «القيروان» وأنشأ بها المسجد الجامع، ولبث في منصبه حتى توفي «عبد الملك بن مروان» فخلفه ابنه «الوليد» بعهد منه، وولى عمه «عبد الله بن مروان» على مصر.

عُمر: عقبة وزهير وحسان. رحمهم الله بذلوا حياتهم لنشر الإسلام.

الجد: وهناك أيضًا موسى وطارق، ألسنا ذاهبين لمقاطعة جبل طارق؟

عُمر: صحيح كيف لمر خطير أن يحمل اسمًا كهذا؟ ثم ردد: جبل طارق.

الجد مبتسمًا: ذاك الجبل الذي شاء الله أن يكون شاهدًا لبطل من أبطال الإسلام، بل يذكره المسلم وغير المسلم.. وفي خلال ما تبقى لنا من وقت سأقص عليك مَن يكون طارق بن زياد؟ وكيف فتح إيْبيرِيَّة؟

عُمر باهتمام شديد: إني في شوق لذلك.

اعتدل الجد في جلسته وقال:

في غرب «القيروان» حيث قبيلة «نِفْزَة» البربرية القوية، تمضي الحياة فيها لافحة مثل مناخها، راسخة مثل جبالها، حالمة مثل سمائها، وأهلها عاكفون على معتقدات، وتقاليد، وعادات، ورثوها عن أجدادهم.

البيوت في «نِفْزَة» عتيقة بالية معظمها مبني من الحجارة، والشوارع والطرقات تزخر بالأطفال يلهون هنا وهناك مرتدين الملابس البربرية بألوانها الجميلة التي تموج باللون الأزرق الغالب عليها، أمَّا رجال نِفْزَة فتغلب عليهم قوة البنية، سيوفهم في معظم الوقت لا تغادر أيديهم، يعمل بعضهم في الزراعة ويعمل جلهم في رعي الإبل والأغنام، محاربون أشداء وقت الحاجة، ما زال معظمهم على الوثنية رغم وصول الفتح الإسلامي إليهم، إذ دخل الإسلام تلك البلاد على يد الفاتح عقبة بن نافع -رحمه الله- وعندما ارتدت البربر بمقتله، ارتدت كذلك معظم بيوتات نِفْزَة، غير أن بعضهم أو قليلهم رفضوا العودة إلى الظلام بعد أن تعمق الإسلام في قلوبهم، فهؤلاء لم يُسلموا خوفًا من القتل ولكن حبًا في الإسلام والحرية التي يكفلها الإسلام لأتباعه..

ومن بين هذه البيوت بيت «زياد بن عبد الله» رجل يرعى الأغنام في قومه، ولَّما ارتدت قبيلته وانضم الكثيرون منها إلى جيش «كسيلة» رفض ذلك وبقيَ على إسلامه، بل كان يرجو أن يعود «عقبة» وينقذ المستضعفين في نِفْزَة، ودائمًا ما جاهر بقوله: سيعود الإسلام إلى هنا؛ فالظلام لا محالة إلى زوال والفجر لا بد أن ينبلج!

ولما انتصر «كسيلة» وقتل «عقبة بن نافع» ظل زياد على دينه، بل وحاول جاهدًا أن يُثني أصحابه عن الارتداد عن ذلك الدين، مما حدا بعض المرتدين من البربر أن يتآمروا عليه، ويدبروا لقتله بعدما رأوا أنه بتمسكه بهذا الدين يُثني الناس عن الانضمام لكسيلة، ويحد من أطماعهم في السيطرة على قبائل البربر.

وفي ذلك البيت جلس الفتى شارد الذهن مثقل المشاعر، وسط القوم الذين أحاطوا بوالده وهو يحتضر من أثر الطعنات الغادرة التي تلقاها وهو عائد إلى بيته، ففت ذلك في كبده حتى أرسلت عيناه الخضراوان الدمع مدرارًا؛ علها تطفئ جمر الحزن في قلبه الرقيق.

تململ «زياد» محتضرًا في فراشه، وأشار إلى الذين حوله لينهضوه قليلًا حتى إذا أقاموا ظهره ورفعوا رأسه عانقهم بنظرات حانية، ثم ركز بصره على ولده الباكي محاولًا التحدث إليه، ولكن لسانه عجز عن ذلك وثقل، وما هي إلا لحظات حتى رفع بصره للسماء، ولفظ الشهادتين لتفارق الروح الجسد وتصعد إلى بارئها.

انكب الفتى يقبل جبين أبيه، والحزن والفجيعة يتدافعان في نفسه إذ صعدت روحه بين يديه، ولكن أي موت هذا الذي تفارق الروح فيه الجسد والوجه مضيء هكذا! وقد وجد في وجه أبيه المنير سلوانًا، وفي بسمته عزاءً.

مات زياد مقتولًا، ليترك ابنه الوحيد «طارق» يتيمًا في هذه الحياة، ليفقد الفتى برحيل أبيه ومن قبله أمه كل معاني الحنان والأمان، ويعاني من الألم ولا أشد من ألم الفقد! وخاصة فقدان الأب الذي يُعد في ذروة سنام الابتلاءات، فرحيله فقد للسند والمعين، ولا تزول غصة فقدانه ما دامت الحياة.

أيام ثقيلة مريرة مرت على «طارق» بعد وفاة زياد، وقد تدثر بذكريات أيام مضت كان فيها زياد يأنس بصحبة ولده الذي لا ينفك عن الالتصاق به في غالب الأحوال، أمَّا الآن فمن الذي سيهتم بك يا طارق أو يهتم لك؟

آه يا أبي كم اشتقت إليك؟! كم كنت ألتجئ إليك إذا ضاقت بي الدنيا؟! أبي لقد اشتقت لصباح يبدأ بصوتك، بمحياك، فوالله ما كبرت إلا بموتك.

غير أن الفتى وجد بعض الاهتمام من جيرانه في القبيلة؛ فهم يحبونه ويجلونه كمعظم أهلها، وهذا رغم صغره لما يحمله من نفس كريمة، وخصال عظيمة، وشخصية عادلة فاضلة تُبهر الناس بقوتها واستقامتها وشموخها، ورغم محاولة أحدهم لضمه إلى بيته رفض «طارق» وأبى إلا أن يعيش في بيت أبيه، فقد حمل بين أضلعه رجلًا، مع أنه ما زال في سن الفتيان.

ومرت الأيام والسنون، وبلغ «طارق» مبلغ الرجال وازداد إعجاب الكثير من أهل القبيلة به، ولكن رغم حبهم له فقد كان كثيرًا ما يفضل الوحدة على كثرة الاختلاط بهم، وكان صديقه وخليله الدائم وأنيس وحدته هو بحر الروم خاصة وقت الغروب.

والبحر ملجأ الحزين، يقاسمه شجونه، ويسلو الهموم، ويبعث في النفس راحة وسكينة، فتهيم به أمواجه الساحرة إلى عالم آخر.

وعلى شاطئ بحر الروم جلس «طارق بن زياد» وقد عقد يديه حول ركبتيه، وشخص ببصره صوب الشمال، وكان النهار رائقًا والأمواج هادئة، فظهر الشاطئ الآخر من البحر، حيث جبل كالبي (بلاد الفندال).

مر الوقت وطارق لا يتحرك، وكأنه قد قُدّ من صخر الشاطئ، فلم يعبأ بتوسط الشمس في كبد السماء ولا بحرارتها، وبينما هو كذلك إذ اِقترب منه شاب ذو شارب عظيم، ضخم الجثة يرتدي زيًا غريبًا، وكأنه زي اللصوص تظهر عليه علامات الشقاء، وبوجهه بضع ندبات قديمة وعلى ذراعيه مثلها وكأنها نتجت عن شفاء جروح قديمة، وشعره مسترسل على كتفيه يتضح من منظره أنه لا يعتني أبدًا به، حتى إذا دنا منه لم ينظر إليه، أو ربما لم يلحظه وينتبه له، فما كان من هذا الشاب إلا أن تنحنح؛ حتى يلفت نظر طارق إليه..

رفع طارق عينيه صوب الصوت، وما أن شاهده حتى عاد بنظره مرة أخرى إلى البحر وأمواجه غير مبال بقدومه، فتقدم الثاني وقال: فيمَ تفكر يا بن زياد؟

نظر طارق إلى صاحبه بعد أن تنهد بعمق وقال: في هذا البحر! وما يحمله لنا نحن البربر من موت أو حياة، فإذا جاء منه الروم والقوط فهو بوابة الجحيم، وإن خرجنا إليه للصيد أو الجلوس على شواطئه فهو بوابة الحياة والنعيم... قل لي يا ماتيه إلى متى يتقاتل الناس؟ لماذا لا يتركوننا وشأننا؟

ماتيه: مَنْ هم؟

طارق: الروم، القوط، ثم العرب المسلمون.

جلس ماتيه بجواره قبل أن يقول: الدنيا يا صديقي لمن غلب، والقوة في يد الظالم لعنة تصيب الضعفاء.

طارق: والقوة في يد العادل رحمة، فلمَ إذًا لا نكون كذلك؟

ماتيه: لكننا لا نعرف الظالم من العادل، فالروم ومن بعدهم القوط لم نر منهم إلا شرًا وظلمًا كبيرًا، فقد أهلكوا الزرع والنسل، وسلبوا بلادنا خيراتها.

طارق: ذكرت الروم والقوط فماذا عن العرب؟ بل ولماذا لا يملك البربر القوة لتحميهم؟ ويكونون هم حملة الخير للناس أو على الأقل يكونون مصدر الخير والرحمة لأنفسهم لا تابعين ولا متبوعين.

ماتيه: أمَّا العرب فلا علم لي بهم إلا القليل، وأمَّا البربر ها أنت ترى يا صديقي متقاتلين مذ كانوا، فبعضهم يذهب بولائه إلى القوط، وثلة منهم إلى الروم، وبعضهم

الآن يتبع العرب، وقليل منهم ينادي بوجوب أن يكون للبربر شأن مستقل، وبالنهاية المصالح والقوة هما من يتحكمان في الجميع والكل يسعى خلف غايته.

طارق: هب أن البربر ملكوا أسباب القوة، فمن ذا الذي يضمن لنا أن يكون ذلك رحمة لا لعنة؟

ماتيه بعد بُرهة من التفكير: إن كانت قوتهم للعدل كانت رحمة، وإن كانت للظلم كانت نقمة.

طارق: فمن ذا الذي يحدد الهدف والغاية؟ ألم يملك البربر القوة وأسباب المنعة لسنوات تحت حكم الكاهنة فماذا فعلت؟! لقد أحرقت الأخضر واليابس.

حك ماتيه في رأسه ولم يستطع ردًا فأردف طارق قائلًا: يجب أن يكون للعدل قوة تحميه وإلا....

ماتيه: وإلا ماذا؟

وقف طارق ونظر إلى أمواج البحر المتلاطمة وقال: وإلا فنحن في غابة كبيرة، تحكمها القوة ولا مكان فيها لضعيف كتلك الأمواج يا ماتيه لا تتوقف عن ضرب بعضها بعضًا.. ثم صمت للحظات قال بعدها وهو ينظر إلى ماتيه: أتتذكر ذلك الرجل حينما التقيت بك أول مرة؟

ظهر الارتباك والخجل على وجه ماتيه وابتسم ابتسامة باهتة قبل أن ينتقل بذاكرته لذاك اليوم البعيد عندما كان يجوب أكمة الجبال، ومعه بضعة رجال يبحثون عن فريسة ينهبونها، وهم يحملون مشاعل النار ليضيئوا بها شعاب الجبال.

صرخ ماتيه في رجاله قائلًا: جدوا في السير فقد قارب الصباح على الانفلاق، ولم نحصل على غلة بعد، ثم ضرب برجله بطن حصانه؛ فانطلق ينهب الأرض نهبًا في اتجاه المجهول!

راح ماتيه ورجاله يبحثون في شعاب الجبال وممراتها وفجأة صاح بصوته الجهوري وقال: كنت أخشى أن ينقضي الليل ولا نحصل على ما خرجنا لأجله، ولكن انظروا وأشار بيده.

نظر الرجال فإذا برجل يركب ناقة وقد أردف طفلًا صغيرًا خلفه، وعلى مسافة صغيرة منه تسير ناقة أخرى على ظهرها امرأته..

توقف الجميع حيث أشار ماتيه، واقترب منه أحد رجاله وقال: هل نهجم عليهم الآن؟

ماتيه: حتى نتبين مَن خلفه فلربما يكون هذا الرجل طليعة لقبيلة كبيرة وهناك من يحميه، وإلا فكيف يعبر وحده هذا المكان الموحش؟!

راقب ماتيه حركة الرجل فتبين له أن لا أحد خلفه وما أن تيقن من ذلك؛ حتى استل سيفه وانطلق صوبه وقد أحدث بحركته جلبة مفتعلة، حتى إذا اِقترب من الرجل ارتاع وتملكه الخوف، بينما صرخ الطفل من الخوف وفزعت المرأة، ولكن الرجل استرد رباطة جأشه وقال بهلع: ماذا تريدون؟

ماتيه: نريد هذا الطفل وهذه المرأة وكل ما معك من أموال، حتى هذا البعير الذي تركب ولا يهمني بعد ذلك إن مت أو حييت.

الرجل: ماذا؟! والله، لا تصل إليهم إلا إذا أرقت دمي، ثم استل سيفه وشهره في وجه ماتيه.

قهقه ماتيه بسخرية وقال: شجاع أنت أيها الرجل!

أحد اللصوص: نقتله يا كبيرنا؟

نزل ماتيه من على صَهْوة جوادة في تحدٍ وقال لأصحابه: بل دعوه لي.

ثم تقدم صوب الرجل وقال: لم يجرؤ أحد من قبلك أن يتحدى ماتيه، أما وقد فعلتها فلأمثلن بجسدك هذا ولأجعلنك طعامًا للوحوش فدافع عن نفسك، وأرني صدق قولك.

ثم رفع السيف وقبل أن يضرب به الرجل، خرج عليه صوت يقول: وأي رجولة؟ وأي شجاعة؟ في مبارزة شيخ كهذا! إن كنت ترى نفسك مقاتلًا شجاعًا؛ فهيا أرني ما عندك أيها اللص.

رفع ماتيه حاجبيه وضغط على أسنانه ثم قال بحدة ممزوجة بسخرية: ومن أنت أيها الجرو حتى تخاطب أسد الأوراس بتلك اللهجة؟

قهقه طارق ساخرًا قبل أن يكشر عن أنيابه مرة أخرى ويقول: أنا من يخشاه أمثالك يا لص الأوراس لا أسدها؛ فالأسود لا تكمن بليل ولا تغدر بضعيف، ولكنها تقاتل وجهًا لوجه.

انتفخت أوادج ماتيه، وفار غضبه، واحمر وجهه، وجحظت عيناه، وهو يصرخ بقوة: لقد حان أجلك وحق علي قتلك. ثم تحول بسيفه إلى طارق فضربه ضربة قوية تلقاها الثاني بسيفه وسط رعب المرأة وطفلها وترقب من باقي رجال ماتيه...

صلصلت السيوف ولمعت مع ضوء القمر، وتبارى الرجلان ساعة من ليل، وماتيه لا يصدق أن أحدًا قد صبر له كل هذا الوقت، وفجأة زفر طارق زفرة عالية وأطاح بسيف

ماتيه من يده، وهنا تقدم باقي رجال ماتيه لينقذوا كبيرهم فقال لهم طارق وقد وضع السيف على رقبته: إن تحرك أحدكم قيد أنملة سأقتلع رأس قائدكم هذا.

فصاح ماتيه: ألقوا سيوفكم أيها الحمقى، أتريدون أن يطيح برأسي؟

وسط شهيق وزفير ينم عن طول المبارزة قال طارق: والآن أستطيع قطف رأسك هذه، ولكن لن أفعل فلستُ قاتلًا مثلك، ثم أدخل سيفه داخل غمده، وتوجه إلى الشيخ وقال له: لا بأس عليك أيها الرجل.

الرجل: لقد طوقت عنقي بدين لن أنساه يا ولدي.

طارق: لا دين لرجل دافع عن ضعيف وسط الذئاب.

وضع الرجل يده في كيس معه، وأخرج منه بعض المال ودفعه إلى طارق وقال: هل تقبل هديتي؟

هز طارق رأسه رافضًا وقال: لا أقبل ثمنًا للمروءة، والمال ليس غايتي، ثم ربت على يديه وقال: هذا هو الفرق بين المروءة والغاية. دعك من هذا وأخبرني كيف تخرج في هذا الوقت وعبر هذه الجبال دون حراسة تمنعك من لصوص الأوراس وقاطعي الطرق؟!

تردد الرجل وخشي أول الأمر أن يتغير عليه منقذه؛ إن علم أنه على دين الإسلام فالتزم الصمت.

طارق: هل فعلت ما يستوجب القتل ففررت؟

الرجل: معاذ الله يا ولدي، ثم تنهد وقال: لقد خرجت فرارًا بديني بعد أن أراد قومي لي السوء.

طارق: دينك! هل اتبعت العرب؟

الرجل: بل اتبعت الحق يا ولدي.

صمت طارق للحظات وظهرت عليه علامات الوجوم، وتذكر مصرع أبيه فتمثل له ما كان منذ سنوات فتوجس الرجل من صمته خيفة، ولكن طارق شعر بما يدور في عقله فقال له: سأصطحبك حتى تبلغ مأمنك ولن يصل إليك أحد.

الرجل: بل كفيت ووفيت يا بني، فالله خير حافظٍ.

طارق: فإلى أين يا عم؟

الرجل: إلى طريق الله يا ولدي فإن أردت يومًا أن تعرف طريقه؛ فلن تعجز عن الوصول إليه.

انصرف الرجل وسط دهشة شديدة من ماتيه ورجاله، أمَّا طارق فقد وجم مرة أخرى، ولمع الدمع في مآقيه، وقال بصوت خافت وهو ينظر للرجل الراحل: ليت الأيام والسنين تعود؛ لكنت قاتلت عنك يا أبي ولفديتك بروحي.

وبينما هو كذلك إذ تأثر ماتيه وقال: أنت فتى شهم وشجاع، وكم أتمنى أن أكون مثلك! فهّون عليك أيها الفتى الطيب، لقد جعلتنا نشعر بالخزي مما فعلنا، فبينما تعرِّض حياتك للخطر في سبيل رجل ضعيف لا تعرفه نروع نحن الناس وننهبهم، ولا نتورع عن قتلهم إن احتجنا إلى ذلك، وربما نقتلهم لمجرد القتل ولا غاية غيره، ثم وضع يديه على كتفي طارق وقال بصوته الجهوري: من اليوم لن نغير على أحد.

طارق مازحًا: حقًا، ولمن تترك عرش الأوراس؟

ماتيه بثقة: لا أحد يملأ مكان ماتيه.

أحد رجال ماتيه مستنكرًا: فأين نعيش يا كبيرنا؟

ماتيه: اسمع يا طارق لا حياة لنا بعد اليوم بين شعب الجبال، فلقد سئمت ذلك فهل تقبلني صديقًا لك؟

طارق: وتعيش في نِفْزَة؟

ماتيه: أجل، ومعي هؤلاء الجرذان.

ضحك الجميع ثم صمت طارق ولسان حاله: كيف لقاطع طريق أن يكون صديقًا لي؟ وكيف تكون نهاية المبارزة صداقة يعرضها المغلوب على الغالب؟ على أنه كان قادرًا على الغدر إن أراد!

ضربت الأمواج بشدة فتطاير رذاذها وهب النسيم على وجه طارق فقال: هيه إلى أين ذهبت يا رجل؟

استدرك ماتيه ما هو فيه وقال: إلى ذلك اليوم البعيد.

طارق: إذًا تذكرت الرجل!

ماتيه: أجل، وهل ما حدث يُنسى يا طارق؟

طارق وهو ينظر في عينيه مباشرة: أريد لقاءه يا ماتيه.

ماتيه: لكن ما الذي ذكرك به بعد كل هذا الوقت؟

طارق: والله ما نسيته مذ لقيته فما زالت كلماته إلى اليوم تصدع في أذني، وقد كنت أتحين الوقت لألقاه، وقد حان.. فإن كان يعرف طريق الحق كما يقول؛ فليدلني عليه.

مط ماتيه شفتيه دون أن يتفوه ولو بكلمة، بينما استطرد طارق: لكني لا أعرف له مكانًا أو قبيلة، فهل تجد لنا الطريق إليه يا صديقي؟

ماتيه: ما كنت لأتأخر عنك أو أجد طريقًا يخرجك من حيرتك إلا سلكته، فأنا طوع أمرك يا صديقي، حتى لو لم يكن لي رغبة في لقاء هذا العجوز.. ثم ربت على كتف طارق وقال: طب خاطرًا سأبحث عنه فوق الشجر، وتحت الحجر، حتى آتيك بخبر منه أو عنه.

طارق ممازحًا: لكن لا تروعه.

ضحك ماتيه وقال: ونعيد الكرة مرة أخرى، إذًا كيف أنجو من سيفك؟

ثُمَّ نهض من فوره واستعد للذهاب والبحث عنه..

طارق يناديه من خلفه: هل تظن أنك تلاقيه؟

التف ماتيه وقال: إن لم يسبقني إليه أجله، ولا أظن أنه ابتعد كثيرًا من هنا، فهو طاعن في السن لن يقدر على الذهاب إلى «القيروان» حيث يقطن المسلمون، فمن المؤكد أنه يقيم بناحية ما خارج القبائل.

❀❀✽❀❀

(2)

إسلام طارق

عبر الوديان والهضاب سار «ماتيه» ومعه بضع من رجاله القدامى؛ ليبحثوا عن الرجل الذي كانوا سيقتلونه يومًا، ولأنه خبير بالطرق فقد انتهج أقرب الطرق الرابطة بين القبائل حتى وإن لم تكن عامرة، وخطته الدوران حول القبائل لا الدخول فيها أو الاحتكاك بها، فهو على علم بأن قبائله لن تقبل بوجود مسلم بينهم، وبعد بحث طويل وعلى مسافة بعيدة من مضارب نِفْزَة صوب الشمال، لاحظ خيمة وحولها بضع نعاج تسرح هنا وهناك يرعاها رجل طاعن في السن..

نظر ماتيه إلى رجاله وقال: ابقوا هنا، لا تتحركوا حتى أرجع إليكم.

أحدهم: إلى أين يا كبيرنا؟

ماتيه: سأنظر إن كان هو صاحبنا القديم أم لا.

أحدهم: ألا يصحبك أحدنا؟

ماتيه: أخشى أن يكون هو فنروعه مرة أخرى.

ثم لكز بطن حصانه وتحرك صوب الخيمة وهو يحدق النظر من بعيد، حتى إذا اِقترب من الرجل نزل من على صَهْوة جواده، وتقدم جهته وهو يظن أن الرجل سينتبه له ولكنه لم يعبأ لوجوده... تقدم ماتيه منه أكثر حتى إذا صهل الفرس وتحمحم، رفع الرجل رأسه لأعلى وأطرق السمع، وعندما تأكد من اقتراب أحدهم قال بحذر: مَن القادم؟

عرف ماتيه أن الرجل فقد بصره فحزن وقال بصوت يملؤه الأسى: عابر سبيل أيها الشيخ.

العجوز: جميعنا كذلك يا ولدي وإنما هذه الدنيا متاع.

ثم صاح العجوز في ولده وقال: عبد الله.. يا عبدَ الله، فخرج عليه ولده الصغير ملبيًا، فما كان من العجوز إلا أن قال للصبي أن يحضر ما عندهم من الطعام لعابر السبيل، ولكن ماتيه اعتذر عن ذلك، وطلب فقط شربة ماء، وبعدما تأكد من أنه هو صاحبه القديم قام وشكره لحسن ضيافته، ثم انطلق قافلًا يحمل الأخبار لصديقه.

وما أن عاد إلى نِفْزَة حتى راح يبحث عن طارق، فوجده عند البحر مُكْفَهِر الوجه، ولكن سرعان ما تبدل العبوس إلى لهفة حينما رأى ماتيه فابتدره قائلًا: هل وجدته؟

ماتيه: ألا أستريح أولًا ثم تسألني؟

طارق: أجب ثم أرح كما تحب.

ماتيه: أجل، على بعد يوم من هنا.

تنفس طارق الصعداء وكان يخشى على الرجل من مصير أبيه، وقال: هيا بنا، يجب أن نلقاه في أسرع وقت.

ماتيه: ألا ننتظر للغد؟

طارق متحمسًا : بل الآن.

ظهر الامتعاض على وجه ماتيه الذي لم يكد يستريح حتى طلب منه طارق الخروج مرة أخرى، ولكنه رغم ذاك انصاع لصديقه وتحرك معه، وما كادا يخرجان من نِفْزَة حتى تلبدت السماء بالغيوم وامتلأت وتحرك سكون المكان، وتوارت الشمس خلف الغيوم، عندها أخذت الرياح تعصف بالشجر والرمال فمالت الأشجار، وما هي إلا لحظات حتى زخ المطر وبدأ يتساقط لتنتهي بتساقطه ثورة الرمال؛ فتسكن وتتشرب المياه وتتشبع وتفوح منها رائحة المطر، انتعشت روح «طارق» فهو يعشق هذه الرائحة وهذا الطقس، وتذكر يوم أن كان صغيرًا يلهو ويلعب فيبتسم وجهه ويلكز بقدمه بطن الجواد فينطلق مسابقًا الريح..

شعر ماتيه بما يجول في خاطر صاحبه، فأراد أن يشاركه انتعاشته وفرحته، فركض معه يعدوان كالريح لا يعبآن بزخات المطر، وتبلل ثيابهما حتى إذا اِقتربا من خيمة الرجل وجداه بداخلها.

فنزلا وتحركا صوب الخيمة بعد أن وثقا رباط الخيل، وعند بابها صاح طارق: يا أهل الخباء، فخرج له هذا الصبي الذي أراد ماتيه يومًا يأخذه عبدًا، وما أن رآه طارق حتى قال له: أين أبوك؟

عبد الله بقلق (فهو يخشى على أبيه من غائلة البربر): من أنتما؟ وماذا تريدان؟

طارق مطمئنًا له: لا تَرْتَعْ يا فتى، وأخبر أباك أن طارق خير يريده.

عبد الله: انتظرا قليلًا.

العجوز «من الداخل»: أدخلهم يا عبد الله، ولا تمنع عابر سبيل يا بني.

وما أن دخلا الخيمة حتى قال الرجل: لا أدري ولكن صوتك أيها الفتى مألوف لي إذ يخيل إليَّ أنني التقيتك من قبل.

طارق: لقد التقيتك منذ زمن يا عماه.

العجوز: مَن تكون أيها الفتى؟!

طارق: أنا طارق بن زياد، ألا تتذكر جبال الأوراس؟ وبينما بدأ الرجل محاولًا تذكر صوته إذ بطارق يقول: ذلك اليوم عندما خرج عليك....

ولم يكمل كلمته حتى ابتهج الرجل قائلًا: مرحبًا بالفتى الشجاع الشهم، لولاك يا ولدي لربما قتلني اللصوص.

خفض ماتيه وجهه خجلًا ولم يتحدث بعد..

طارق: لم أفعل ما أستحق عليه الشكر، بل فعلتُ ما يتوجب عليَّ فعله.

العجوز: بَلَى لقد طوقت عنقي بدين لن أنساه، والآن ألا تعرفني بصاحبك.

نظر طارق إلى ماتيه الذي كاد أن يموت خجلًا وقال مبتسمًا: إنه ذلك اللص صاحب جبال الأوراس.

العجوز: اللص!

طارق: لقد تبدلت أحواله منذ ذلك اليوم، فترك ما كان عليه.

العجوز: حقًا!

ماتيه: الفضل لك يا طارق.

العجوز: الفضل والشكر لله وحده يا بني.

نظر طارق إلى الرجل وقال: أي إله تقصد؟

العجوز: الله الواحد الأحد خالق كل شيء.

طارق: أخبرني يا عماه عن ماهية الدين الذي تتبعه، ولماذا قدم العرب علينا؟ وما الفرق بينهم وبين الروم والقوط؟ فما جئتك إلا من أجل هذا؛ بعد أن حارت نفسي، وشعرت أني أسبح في بحر لا شاطئ له.

العجوز: إنه دينٌ منزل من فوق سبع سماوات، دينٌ جديدٌ وسلوكٌ قويمٌ، دينٌ لا يفرق بين متبعيه، فالجميع فيه ومنه سواء، دينٌ يأمر بالعدل بين الناس، ويحرِّم أن يعتدي قويهم على ضعيفهم، دينٌ يجعل في أموال الأغنياء حقًا للفقراء؛ حتى ينعم الجميع بالأمن والأمان يا ولدي.

طارق: إن كانوا لا يريدون أموالنا فلماذا يطلبون الجزية ممن لم يحاربهم؟ لماذا يخيرون الناس بين الجزية أو القتال إن هم رفضوا الإسلام؟

الرجل: وهل للحاكم يا ولدي أن يعفي المحكوم من كل شيء؟ فكيف إذًا يصلح أحواله؟ كيف يعبد له الطرق، ويقيم له الجسور، ويشيد له الأسوار، والمدن، والمستشفيات، ويدافع عنه وقت الحاجة؟ فالجزية نظير كل هذا، وهي لغير المسلمين جزية وعن المسلمين زكاة لأموالهم.

ماتيه: ويأخذونها من المسلمين أيضًا!

العجوز: أجل يا بني، فيعطي غنيهم فقيرهم فلا ينام رجل شبعان وجاره طَاوٍ إِلَى جانبه.

طارق: فماذا عن استعبادهم للبشر؟

العجوز: إنَّ الإسلام جاء ليُخلص الناس من العبودية، ليُحرر العبيد وينقذهم من معاناتهم، وخير دليل الآيات القرآنية التي جعلت كفارة الكبائر تحرير رقبة، فالإسلام لم يأتِ ليزيد من عبودية الناس، وإنَّما جاء ليخلصهم من عادات الجاهلية وأعرافها، جاء ليحررهم ويعدل بينهم.

انشرح صدر طارق، فلأول مرة يسمع كلامًا كهذا! وعرف الفرق بين المسلمين وغيرهم، فظهر البشر على وجهه وانتعشت روحه بعد أن لامس حديث العجوز شيئًا في نفسه الطاهرة، فالفطرة السوية دائمًا تسعى إلى السمو والرفعة، وقد أحس الرجل بتأثره ولاحظ ذلك في صوته فتحسسه وربت على فخذه وقال له: ليس مثلك مَن يجهل الإسلام يا طارق أو يتأخر عنه.

زفر طارق نفسًا قويًا وتغاضى عن حديث العجوز وعرضه الإسلام وقال: ومن قال لهم إننا نريد مَن يحمينا؟ لماذا لا يتركوننا وشأننا؟ لماذا يتوجب أن يكون دائمًا حاكمًا ومحكومًا ما داموا يقولون في دينهم أن الناس سواسية؟

الرجل: لقد امتن الله على عباده بنصبه السُّلْطَان فِي الأَرْض؛ ليدفع الظُّلم عَن الْمَظْلُوم قَالَ تَعَالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاس بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ فلَوْلَا أَن الله أَقَامَ السُّلْطَان فِي الأَرْض يدْفع الْقوي عَن الضَّعِيف وينصف الْمَظْلُوم من الظَّالِم لأهْلك الْقوي الضَّعِيف، ولتواثب الْخلق بَعضهم على بعض، فَلَا يَنْتَظِم لَهُم حَال فتفسد الأَرض وَمن عَلَيْهَا، فَإِذا كَانَ السُّلْطَان جائرًا زَاد الفساد فسادًا، وهذا ما حدث في أيام الكاهنة ومن قبلها الروم والقوط، أَمَّا إِذا انْتَشر الْعدْل فِي الرّعية فأقاموا الوزن بِالقِسطِ وتعاطوا الحق فِيمَا بَينهم ولزموا قوانين العدل؛ مَاتَ البَاطل وَذَهَبت رسوم الْجور.

صمت طارق للحظات يتذكر أباه الذي مات مقتولًا لأنه آمن بهذا الدين، ثُمَّ وضع يده في يد الرجل وقال: لو لم يُقتل أبي لكنت الآن مسلمًا، ولكن علني أستدرك ما فات يا عماه، ثُمَّ نطق الشهادتين؛ ليشعر بعدها أنه الغريب العائد لوطنه، وكيف لا وقد وُلد طارق في بيت من بيوت الإسلام!

أمَّا ماتيه فما أن تبعه في ذلك وردد الشهادتين التي نزلت على قلبه كالماء البارد فغسلته من كدر الماضي حتى وجد عينيه تنهمر بالبكاء، وقد أخذته قشعريرة فانكب يقبل يد الرجل ويقول: أطلب منك السماح.

مسح الرجل على رأسه وقال: انهض يا بني، فحبيبنا ﷺ يقول: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا» وأنت قد عرفت ذنبك وندمت عنه، فستكون بإذن الله ساعدًا للخير داحضًا للشر.

جفف ماتيه دموعه ونهض مع طارق حتى إذا همَّا بالخروج حاول الرجل أن يستبقيهما معه مخافة أن يقتلهما البربر، فقال: ابقيا معي ندعوا إلى الله هنا، وتكونا في مأمن من غائلة مرتدي البربر، فما زال بعضهم يحمل الحقد على الإسلام، وبعضهم موتور فقد قتل المسلمون أباه أو أخاه.

طارق: لا والله يا عم، لن أقعد بإسلامي، ولن يقتلني البربر غيلة كما قتلوا أبي.

الرجل: أخشى عليكما يا ولدي.

ماتيه: لا تخش شيئًا يا عم فوالله، لن يصلوا إلينا وفينا قلب ينبض، حتى يبلغ الكتاب أجله.

نظر طارق إلى الفضاء البعيد حوله وكانت السماء ما زالت ترسل غيثها وقال: ومَن يبلغ هذا الدين إن نحن خشينا على أنفسنا؟ والله، لنحاسبن على ذلك إن فعلنا!

❀❀✽❀❀

(3)

قِبلةُ الضعفاء

تبدلت أحوال «طارق» بعد دخوله الإسلام، وعرف أخيرًا هدفه وغايته في هذه الحياة؛ بعد أن قاسى العيش بلا هدف وبلا قيمة..

وما أقسى أن يعيش الإنسان بلا هدف! فيحيا بلا قيمة، فالغايات وحدها من تحدد قيمته في كل العصور، ولكن أي غاية؟ في بلاد غير مستقرة تسكنها قبائل متنافرة، مكّن تنافرها للروم والقوط أن ينتهبوها ويجعلوها مرتعًا لهم، ويتخذوا من رجالها عبيدًا، أمَّا وقد دخل الإسلام فقد جعل هدفه الأول أن يحيا حرًا أبيًا ويصبح جنديًا لهذا الدين العظيم الذي جاء ليبدد ظلام العالم القديم.

وساعده على ذلك اتباع «ماتيه» ورجاله له فشكل بهم قوة صغيرة، تسعى لنشر العدل، ولكن لم يكن تحقيق هدفه وإعلانه عن ذلك بالأمر الهين بين قبائل ترفض الإسلام، وترى في المسلمين معتدين غاصبين، بل وترفض الخضوع لأي مَن كان، بل يرفض بعضهم حكم بعض أحيانًا.

ولم يكن الأمر هينًا عليه أيضًا وهو يفكر هل يقتلونه كما قتلوا أباه من قبل؟ تردد السؤال في ذهنه وحيره، حتى اهتدى إلى إجابته لقد كان زياد كريمًا حليمًا ورغم ذلك قتلوه لأنه خالفهم؛ فما الذي يمنعهم إن أرادوا الفتك به؟! لذا قرر أن يحتاط منهم ويحمي نفسه ورجاله من غائلتهم، لا سيما أنه علم أن المسلم القوي خير وأحب إلى الله من المسلم الضعيف؛ لهذا قرر الانضمام إلى معسكر المسلمين ومعه صديقه ماتيه، فالذئب لا يأكل من الشياة إلا القاصية.

انتشر خبر إسلام طارق ورجاله بين القبائل؛ فحقد عليه البعض، وانضم له المسلمون المستضعفون من البربر الذين كتموا إيمانهم، وصار بذلك قبلة الضعفاء والبسطاء منهم، وانتشر خبره بين الناس حتى طرق أبواب «القيروان».

❀❀✽❀❀

(4)

قدوم موسى

في القصر الكبير بمدينة «القيروان» حيث ينتشر الجند هنا وهناك، جلس «حسان» مرتديًا اللباس العسكري الذي لم يكد يفارقه طوال مقامه في ولاية إفريقية، وقد كان متوسط القامة ذا لحية كثة وقدّ نحيف، وهو وقور طويل السكوت لا يتكلم إلا قليلًا، وله مهابة عظيمة، ومن حوله جلس كبار رجاله..

وبينما هم كذلك إذ دخل عليه أحد الجند وقال: سيدي، لقد وافتنا العيون بخروج موسى بن نصير من مصر بصحبة أولاده (عبد الله، عبد العزيز، ومروان)، ومعه أيضًا أولاد عقبة بن نافع (عياض، وعثمان وأبي عبيدة).

هز حسان رأسه قبل أن يشير للجندي بالخروج، ثُمَّ مسح على لحيته وقد بدا التعجب عليه، فليس موسى بمن يُستعمل لحمل الرسائل، كما أنَّ الأمور في إفريقية مستقرة بعدما دوخ بنفسه البربر وقتل الكاهنة وأعاد تلك البلاد لحوزة الإسلام، وأصبحت جيوش المسلمين متفوقة في معظم بلاد المغرب الأوسط والأقصى حتى لم يتبق فيها إلا بعض جيوب للبربر وحلفائهم من الروم، وبعض القلاع المتناثرة هنا وهناك، ومع ذلك فلم يشغل حسان فكره طويلًا بسبب قدوم «موسى» وقرر أن يترقب قادم الأيام..

مرت الأيام حتى إذا اِقترب موسى من القيروان، خرج حسان لاستقباله على أبواب قصرها.

وفي ساحة القصر ترجَّل موسى عن صَهْوة جواده وكذا ترجل من حوله، وكان موسى يرتدي الزي العسكري الأموي الشهير باللونين الأحمر والأبيض، وله وقار وهيبة لا يقلل منها كونه أعرج، وله لحية اتشحت بالبياض، فحينها قد جاوز السبعين من عمره، ولكن أي سبعين هذه! فالناظر إلى موسى وفرط نشاطه وحيويته وقدرته الرائعة على ركوب الخيل وحمل الرمح والضرب بالسيف، لا يشك أبدًا أنه قد تجاوز الثلاثين من عمره، ناهيك بجسد رياضي قد زاده لياقة بدنية، حتى تراه شابًا إذا امتطى جواده، وحكيمًا إذا سألوه عن الرأي أو تحدث في مسائل الحرب..

التقى الرجلان في ساحة القصر بين الأشجار، وتبادلا السلام والعناق والحديث، فكلاهما يُكن للآخر الاحترام ويمتازان بالتواضع وسمو الأخلاق، ومن ثَمَّ اصطحب حسّان ضيوفه إلى حيث قاعة العرش داخل القصر.

جلس الرجال جميعًا حول حسان -على يمينه ويساره- وقبل أن يسأل موسى عن سبب وجوده بأرض إفريقية، أخرج الثاني من طيات ثيابه رسالة مختومة من أمير مصر «عبد العزيز بن مروان» وأعطاها لحسان ثُمَّ عاد وجلس على كرسيه تأدبًا وتواضعًا.. فما زال حسان هو الأمير ما دام لم يقرأ الرسالة!

فتح حسان الرسالة وسط ترقب الجالسين حوله، حتى إذا انتهى منها نهض من مكانه وطوى الرسالة التي جاءت بقرار عزله، ثُمَّ حمد الله، وقال بعد أن أخذ نفسًا عميقًا: لقد جاهدت سنوات طويلة وشهدت معارك عنيفة، ويشهد الله أني ما خنت الأمانة يومًا، وما خنت أمير المؤمنين ولا المسلمين، ولا سعيت لمنصب أو جاه أو سلطان، اللهم إلا نشر الإسلام في تلك الأصقاع البعيدة.

ما أن سمع موسى تلك الكلمات حتى نهض من مكانه، ووضع يديه على كتفي حسان وقال: اللهم أشهد أنه لم يعزلك لخيانة نمت إليه أو تقصير منك، ولا سعي مني لذلك، ولكنهم ولاة الأمر فينا فلنسمع لهم ونُطِع.

حسان مؤمنًا وبرضا تام: نعم، نسمع لهم ونطيع ما دامت في طاعة الله، وما عند الله خير لمن اتقى.

(5)

أمير القيروان

تولى «موسى بن نصير» أمر إفريقية، وما أن علم الناس حتى توافدوا إليه من كل مكان وكثرت جموعهم، فقام فيهم خطيبًا، وفي كلمات موجزة بليغة واضحة كالشمس، قال لهم: «إنما أنا رجل كأحدكم؛ فمن رأى مني حسنة فليحمد الله، وليحض على مثلها ومن رأى مني سيئة فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون، وقد أمر لكم أمير المؤمنين -أكرمه الله- بعطاياكم وتضعيفها ثلاثًا، فخذوها هنيئًا مريئًا، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان، ومع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وبخطبته الموجزة، أرسى دعائم قيادته القائمة على المساواة الكاملة بين القائد وجنوده، والزيادة في العطايا، والتركيز على الجهاد في سبيل الله، وترك الانشغال بالتنافس على الدنيا، مما حفز الجند للعمل القوي والمسارعة فيه.

وعقب انتهاء الخطبة العظيمة اصطحبه حسان؛ ليطلعه على أمور الولاية فخرج به إلى النواحي القريبة يخبره بما صنع، فتحركا ومعهما ثلة من كبار القادة والجند، حتى إذا وصلا إلى مدينة تونس..

قال حسان: هذه مدينة تونس بنيتها؛ لتكون قاعدة عسكرية بحرية، ولتحول دون تكرار هجوم البيزنطيين على قرطاجنة، وقد قمنا بحفر قناة تصل المدينة بالبحر لتكون ميناء بحريًا ومركزًا للأسطول الإسلامي بعد أن أنشأنا فيها دارًا لصناعة السفن بخبراء في هذه الصناعة جئنا بهم من مصر والشام.

موسى: قاعدة بحرية تصد غارات الروم إن عادوا! بوركت يا بن النعمان، فهذه والله أعظم ما صنعت وفعلت فجزاك الله عن الإسلام والمسلمين كل خير.

حسان: ما أنا إلا جندي من جنود الإسلام، على أنَّ هذا ليس كل شيء بل ستكون «تونس» إن شاء الله قاعدة للفتوح، فدولة الإسلام لن يصدها هذا البحر، ولن تمنعها تلك الصحاري، وما إن نفتح مدينة حتى ننظر إلى التي تليها إلى أن يشاء الله، فمهمتنا هي إيصال الرسالة ورفع الظلم عن كواهل البشر بعد أن أجهدتها مظالم البشر.

موسى: لقد دونت الدواوين، وبنيت الدور، ووسعت المسجد الكبير، فماذا عن البربر؟ أيها الشيخ الأمين.

حسان: إنهم قوم تتمنى لو أن سيوفهم معنا لا علينا، فوالله إنهم لذو بأس وشكيمة، وقد حاولت استمالتهم، فوليت من حَسُن إسلامه منهم بعض النواحي تأليفًا لقلوبهم، فهذا ابن الكاهنة قد جعلته أميرًا على جبل الأوراس، وهناك جنديًا عظيمًا يمكنك الاعتماد عليه والاستفادة منه، فلا تبخسه حقه فإنه والله، خير من يعينك في هذه البلاد.

موسى: مَنْ هو؟

حسّان: طارق بن زياد.

موسى: ومَنْ طارق هذا؟

حسان: إنه فتى من نِفْزَة ما إن أسلم حتى طار صيته، ووصل إلينا في القيروان بعد أن جمع حوله المستضعفين من مسلمي البربر، وصار قبلة لهم، فأصبح بهم ذا شوكة، وقد نويت ضمه إليَّ، فأمَّا وقد أصبحت الأمير فلا تغفله يا موسى.

❀❀✽❀❀

(6)

أولاد عقبة

على أن حديث حسان عن البربر ووصايته لموسى بهم خيرًا، لم يعجب أولاد عقبة بن نافع، وخصوصًا الأكبرين «عياض وعثمان» فلم يكد ينفض المجلس ويعودوا إلى حيث سكنوا في القيروان حتى اجتمع ثلاثتهم والغيرة تكاد أن تأكل قلوبهم، فهم ما خرجوا من دمشق بصحبة موسى إلا لينتقموا من البربر قاتلي عقبة بن نافع...

ففي سنة 63هـ من الهجرة الشريفة قاد عقبة بن نافع حملته العسكرية الشهيرة حيث أخضع قبائل البربر ورد عدوان الروم، ووصل إلى أقصى بلاد المغرب، بعدها قرر عقبة العودة إلى القيروان مركز تجمع المسلمين، فلما وصل إلى «طنجة» أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا؛ ثقة منه بما نال من عدوه، واستسلامهم له، ومال هو مع ثلاثمائة من أصحابه إلى مدينة «تهوذة»، فاستغل «كسيلة» زعيم البربر قلة جنده واتفق مع الروم على الغدر به، وجمع جموعًا كثيرة للهجوم عليه ومن معه..

وعندما سمع «عقبة» بما يُدبر ضده قال لمساعده أبي المهاجر: الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين، وأنا أغتنم الشهادة.

لكن أبا المهاجر أبَى وقال: وأنا أيضًا أريد الشهادة.. فاقتتل المسلمون مع زعيم البربر حتى استشهد «عقبة» وكل من معه في أرض الزاب بتهوذة.

فكان عياض أول من تحدث بسخرية يعتليها الغضب: لم نترك الشام لنسمع لقول ابن النعمان في البربر! فإن كانوا كما يقول فكيف سولت لهم أنفسهم قتل عقبة؟

عثمان: لا والله، لن يثنينا عن عزمنا بضع كلمات قالها حسان أو غيره، ولنمضين في هذا الأمر حتى يفتح الله لنا، ولنقتلن منهم كما قتلوا، فالله، الله! في دم عقبة.

أبو عبيده: على رسلكم فماذا لو أن قاتلي عقبة أسلموا؟ أتأخذونهم بذنب مضى؟ فوالله لن نقاتلهم أبدًا، فما جاء عقبة إلى هنا لسفك الدماء.

عثمان: أسلموا! وهل تصدقهم وما أسلموا إلا خوفًا؟

أبو عبيدة: وهل شققت عن قلوبهم يا عثمان؟ أجل أصدقهم ولنا منهم الظاهر، والله يتولى السرائر ويعلم ما في القلوب.

عياض: لقد تظاهروا من قبل بالإسلام حتى إذا أعطاهم عقبة ظهره طعنوه وغدروا به.

أبو عبيدة: من غدر فعليه غدره، وأمَّا عقبة فقد كرمه الله بالشهادة.

عياض بغضب: إذًا لن تكون معنا، ولن تثأر لأبيك؟

أبو عبيدة: أرى أنكما بحاجة إلى مراجعة أنفسكما، فما أتينا إلى هنا وما خرجنا من دمشق للثأر، ولكن للجهاد في سبيله تعالى ونشر دينه الحنيف.

عياض: وما الضير أن نثأر، ويكون ثأرنا جهادًا؟

أبو عبيدة: لا تخلط عملًا صالحًا بغيره؛ فيفسد عملك، وهيهات أن يكون الثأر جهادًا، ففرق كبير بين مَنْ يقاتل في سبيل الله ومَنْ يقاتل ثأرًا لأبيه.

عثمان متأففًا: كفى وعظًا.. أنسيت أنك أصغرنا؟ أم نسيت أباك؟ فإن كنت نسيت فإننا لم ننس، فكف عن حديثك هذا.

أبو عبيدة آسفًا: والله، لقد عادت الجاهلية الأولى، واستبدلتم عروة الإسلام بعصبية الثأر والقتل.

❀❀✤❀❀

الفصل الثاني

أول النصر معرفة خصمك وتقديره حق قدره ومعرفة نقاط ضعفه وقوته

(1)

موسى والبربر

ما كاد «موسى» يلي الحكم حتى ثار الغبار من حوله حيث نزع بعض البربر إلى الثورة شأنهم عند كل تغيير في الحكم، ولكنهم أخطأوا هذه المرة تقدير عزم الحاكم الجديد؛ لأنهم لم يدركوا بعد من هو موسى بن نصير؟! فما أن علم بهذا التمرد حتى جد في ضربه بيد من حديد.

وكان يقود هذا التمرد رجل من البربر يُدعى «نيرغاس» يتحصن بقلعة «زغوان» وهو على اتصال وثيق بالروم، فأوحوا له بالخروج على المسلمين والاعتصام بجدران قلعته، وأوهموه بأنهم سيمدونه بالرجال والسلاح؛ فوثق بهم وكان تحت يده بضع مئات من الجند الأشداء، ولكنه لم يكن يعول عليهم بقدر تعويله على مساعدة الروم له، فهم رغم هزائمهم المتكررة أمام المسلمين ما زال لهم جواسيس يعملون على إثارة البربر؛ ليقاتلوا المسلمين ضنًا برجالهم من الهلاك، وهذا دأب بعض الدول والجماعات، تنثر الفتنة بين الناس فيقتل بعضهم بعضًا حتى إذا هلك أحد الفريقين هان عليهم القضاء على الآخر.

انتدب موسى ابنه «عبد الله» ووضع تحت يديه خمسمائة فارس خرج بهم صوب «زغوان» فحاصرها، وتحت أسوارها وقف يصيح ويقول: نيرغاس، اخرج إلينا أيها الخائن الغادر.

ومن أعلى أبراج القلعة وقف نيرغاس بشعره الكثيف المتدلي على كتفيه، وقهقه، وهو يقول ساخرًا بصوته الأجش: ولماذا لا تدخل بجندك قلعتنا أو ترتقي أسوارنا أم تراك عجزت عنها؟! أمَّا الخيانة يا بن موسى، فلم أدخل معكم في عهد كي أخونه ولم أخضع يومًا لحكمكم.

عبد الله بن موسى: إذًا افتح الأبواب، وأرنا شجاعتك.

نيرغاس مقهقهًا بصوت عال ومستخفًا بهم: بل أروني أنتم قوتكم وصبركم على الحصار.

ثم ارتد للخلف وأمر رجاله بقذف المسلمين بالنِّبَالِ والنار، فأصابوا من جند عبد الله بضع رجال وسط ضحكات نيرغاس الصاخبة.

أمَّا عبد الله فقد صرخ في رجاله وتراجع إلى الخلف بعد أن نجح في سحب الجرحى؛ حتى لا يقضى عليهم وهنا تقدم منه أحد جنده وقال: ماذا ترى أيها الأمير؟

عبد الله: سنعول على نفاد أقواتهم؛ إذ لا سبيل إلى اقتحام تلك الأسوار.

❀❀✽❀❀

(2)

بوابة الشمس

في ظلمة الليل وبرد طُلَيْطِلَة القاسي في فصل الشتاء ذي الليالي الطويلة، حيث خلت الشوارع مبكرًا من المارة؛ فقد لاذ الجميع بجدر دورهم؛ ليشعلوا فيها الحطب بحثًا عن تدفئة تحميهم من البرد القارس.

وفي دروب المدينة كان يسير رجلٌ ملثمٌ يرتدي ثيابًا سودًا كسواد الليل، وقد أخفى وجهه فلم يظهر منه شيء، وبحرص شديد تحرك حتى لا يحدث صخبًا، وظل يتحرك وبخار الماء يخرج من فمه مع كل زفير من أنفاسه حتى وصل إلى كنيسة طُلَيْطِلَة العظمى، وعند بابها توقف وطرقه ثلاث طرقات محددة، ثم توقف، وظل يراقب الطريق هل يراه أحدٌ؟

وبينما هو كذلك إذ سمع صوت فتح الباب، فاستدار من فوره وولج داخل الكنيسة، وما أن دخل حتى رفع اللثام عن وجهه، ثم هوى على يد فاتح الباب وراح يقبلها، ثم رفع رأسه وقال مرتعشًا من البرد: لقد كدت أتجمد من هذا الصقيع.

الأب مارتين: هذا لأنك اعتدت على دفء قُرْطُبة أيها الكونت!

الطارق: أجل، أيها الأب، فقُرْطُبة دافئة لا ثلوج فيها.

الأب مارتين: إذًا، تعالَ نجلس حول المدفأة.

تحرك الرجلان وسط نور الشموع الخافت، حتى إذا اِقتربا من المدفأة ظهرت ملامحهما فالطارق هو «لُذرِيق» شاب قوي البنية عظيم الرأس ذو شعر أحمر طويل مسدول على كتفيه، أمَّا الثاني فهو «الأب مارتين» رأس الكنيسة في جزيرة القوط وهو عجوز نحيل الجسم، مبحوح الصوت، كثيف اللحية وذو شارب عظيم اختلط بشعر لحيته الأبيض.

لمعت عينا لُذرِيق في ضوء النار وهو يقول: هل تراه يصدق في كلامه هذه المرة، أم يراوغ كما يراوغ الثعلب؟

الأب مارتين: لقد اشتعلت الأرض من تحت أقدامه وما أراه إلا صادقًا، ليس لأنه يريد العفو ولم الشمل ولكن ليتجنب ثورة قد تطيح به وبأسرته؛ فلا سبيل للمراوغة يا لُذرِيق.

مد لُذرِيق يديه صوب النار المشتعلة محاولًا تدفئتهما، ثم قال: من يملك العفو يملك العقاب!

الأب مارتين: وهو رغم ذلك ما زال يملك العقاب، فلا تهون أو تقلل من شأنه، فأول النصر معرفة خصمك وتقديره حق قدره، ومعرفة نقاط ضعفه وقوته، فلا تغرر بنفسك يا رجل.

لُذرِيق: مممم... صدقت أيها الأب أمَّا نقاط قوته وضعفه فقد عكفت عليها سنين حتى خبرتها جيدًا، ولكني.. صمت برهة قال بعدها: ولكني ما زلت بحاجة إلى نار حاقدة تساعدني على التغلب عليه.

بابتسامة خبيثة نظر مارتين إليه وقال: ألا تكفي تلك النار التي في صدرك؟

لُذرِيق: بل تفيض عن الحاجة، ولكن لن يعدم «غَيطَّشة» من يحقد عليه غيري!

مارتين: تقصد أنك بحاجة إلى من يعينك، إذًا فلتعلم أن كل مجلس الأساقفة سيكون بجانبك، فجميعهم تبعًا لكنيسة روما، وقد علموا أن «غَيطَّشة» يريد أن ينفصل بكنيسة طُلَيْطِلَة عنها ويعيد الأريوسية إلى هنا، لكنه لم يقدر حتى الآن بفضل مجلس الأساقفة، فإن مات «غَيطَّشة» سينتخب المجلس من يخلفه وحينها لن يكون غيرك، لقد نقموا عليه؛ لأنه سمح لليهود بالعودة إلى ديارهم، كما حرم النبلاء من امتلاك السلاح حتى لا يثوروا عليه؛ لذا شعروا أنه يمنعهم من الدفاع عن أنفسهم، وأنه يكيد لهم ويخشاهم.

لُذرِيق: يخاف من النبلاء؟!

مارتين: أجل.

لُذرِيق: وماذا عن شعب طُلَيْطِلَة بل وكل إيْبيرِيَّة؟

مارتين: الشعب مغلوب على أمره، فهو تابع لمن غلب، ولا تنس يا لُذرِيق أننا القوط إنما نحن جند ونبلاء، وأمَّا عامة الشعب فلا شيء.

بدأ الدفء يدب في أوصال «لُذرِيق» فوجد في نفسه بعض الحرية للابتعاد عن مصدر النيران، فتحرك صوب أحد الشموع لتظهر ملامح وجهه وبريق عينيه وقال: ماذا عن أوباس، ورخشندس؟

مارتين: أمَّا «أوباس» فوجوده في مجلس الأساقفة لن يضرك فهو صوت واحد بين أصوات مختلفة عليه وعلى أخيه، وأمَّا «رخشندس» فهناك في «نربونة»، ولو حدث ما حدث فسيتم لك الأمر قبل أن يصل الخبر إليه، حتى إذا وصله ستكون أنت الملك.. ثم اِقترب منه وهمس في أذنه: إن كان «غَيطَّشة» قد سمل عيني أبيك ونفاه إلى قُرْطُبة، فقد أجرم أيما إجرام في حق الدوق «فافيلا».

فتح لُذرِيق عينيه ورفع حاجبيه وقال: كيف ذلك؟

مارتين: لقد أقام علاقة مع زوجة فافيلا، ولما علم الدوق بذلك ثارت ثورته وأقسم على الانتقام منه على مسمع من رجاله، وقد كان ذلك حمقًا منه، فالانتقام ممن هو أقوى منك يجب أن يكون في الخفاء وأن تتحين الفرصة لذلك، فلا يحق لقط شجاع مهما كانت قوته أن يصرخ ويتحدى أسدًا عجوزًا مهما وصل ضعفه، فلما علم «غَيطَّشة» بذلك قتل «فافيلا»، فنقمت عائلة فافيلا عليه وصاروا مثلك يرجون بواره.

لُذرِيق: ولكن كيف أصل إليهم؟

بابتسامة ماكرة قال الأب مارتين: إن كان غَيطَّشة قد أعلن العفو العام عن الجميع، فلا بد أن يشمل هذا العفو أسرة «فافيلا».. ثم أردف هامسًا بدهاء: ولكني أعلم أن هذا العفو لن يغير مما في صدرك من نقمة عليه والأمر نفسه عند أبناء فافيلا، وخاصة ابنه البكر «بلايو» لذا؛ أنصحك من الآن أن تضم هذا الفتى إليك؛ ليكون عونًا لك متى أردت أو احتجت لذلك.

(3)

فكرٌ جديدٌ

اشتعلت الأرض في وجه «موسى بن نصير» وحاول الروم الاتصال بكل مناوئ للمسلمين، وخرجت «هوارة، وزناتة، وكتامة، وصنهاجة» وغيرها من قبائل البربر القوية، وثاروا على المسلمين بوعز من الروم والقوط، ولكنهم تهاووا في شرك سوء تقديرهم لقوة وعزم «موسى» إذ دوخ الثوار وقضى عليهم الواحد تلو الآخر؛ فلم ينم عن ثورة ولم يسكت عن خارج عليه، وكان كثيرًا ما يجمع القادة من حوله يستشيرهم ويأخذ برأيهم.

وفي أحد الأيام وبعد أن فرغ موسى من عمله ويومه الشاق الذي قضاه في متابعة أحوال إفريقية وقبائل البربر، راح يتساءل في نفسه ويقول بتعجب: لماذا يصر هؤلاء البربر على التمرد والخروج علينا بين الفينة والأخرى ونحن حملة الحق حاملو الخير؟ لماذا قتلوا عقبة وهزموا «زهير بن قيس وحسان بن النعمان»؟ لماذا سبعون عامًا من الصراع المرير بيننا وبينهم، لماذا كل هذه الثورات ضد المسلمين رغم مرور الزمان؟ ألم يخالطوا المسلمين ويرون فيهم خير أمة؟ ثم هز رأسه وقال مجيبًا على نفسه: يجب أن يكون خللًا ما قد حدث، يجب أن يكون هناك سببٌ لكل ما يحدث.

في هذا الوقت أرخى الليل سدوله فترك إيوانه وصعد إلى غرفته، وخرج إلى شرفتها وهو يفكر في أمر تلك البلاد وصلابة أهلها، فأيقن أنهم إذا ما استمرت ثورتهم، فسيكلفون المسلمين الكثير من الدماء كما سيهلك البربر أنفسهم على الوثنية.

وبعد تفكير طويل توصل إلى أسباب كل هذه الثورات، وعرف لماذا ارتد البربر مرات ومرات بعد إسلامهم؟!

وما أن طار غراب الليل حتى اجتمع «موسى» كعادته بثقات رجاله، وبينما كان يرى البعض منهم وجوب مجابهة ثورة البربر بكل حزم والقضاء عليها، ومعاملتهم كمرتدين عن الدين ومن بين هؤلاء ابنا عقبة، لكن كان لموسى رأي آخر إذ قال: بل يجب علينا قبل أن نحاسبهم على ردتهم وتآمرهم وثورتهم أن نعرف أسباب تلك الأفعال، يجب قبل أن نحاسبهم أن نعلمهم الدين الصحيح، ونكون على ثقة أن الإسلام قد تغلغل في قلوبهم، فالإسلام ليس ما يقوله اللسان ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، ونحن لم نُرسل لقتل الناس ولكن لإحيائهم، فالمقهور مقتول، والمظلوم مقتول، ونحن

هنا لرفع الظلم والقهر عن الناس، ولنشر الإسلام؛ لذا ومن اليوم سنرسل الدعاة لينشروا الإسلام، ويفقهوا البربر في دينهم، و إن ارتدوا بعد ذلك قاتلناهم.

ولنضع في الاعتبار أنهم عانوا كثيرًا من ظلم الروم والقوط، فظنوا أننا مثلهم؛ فلم يفرقوا بين السطو والفتح، لذا نراهم يثورون بوجوهنا ظنًا منهم أننا نسعى خلف الغنائم لا القلوب، وربما هذا ما دفع «الكاهنة» من قبل أن تعتمد سياسة الأرض المحروقة؛ ظنًا منها أننا نبحث عن الغنائم والثروات، أحرقت الأرض كي نيأس منها ولا نعود إليها، وهل يبحث الغاصب عن أرض محروقة؟

لكننا لسنا مثلهم فنحن نُحي الزرع ونُعمر القلوب قبل الأرض، وما خربته «الكاهنة» سنعمّره بأيدينا، حتى يعرف هؤلاء ومن خلفهم أننا أمة الخير، كما يجب أن يعلموا أن من أسلم منهم فهو منا لا فضل لنا عليه أو فضل له علينا، ومن بقيَ منهم على دينه فله دينه ولنا إسلامنا، لا نعتدي عليه إلا إذا اعتدى علينا.

ثم أشاح «موسى» ببصره عن أولاد عقبة وتطلع صوب الغرب، ليتردد في ذهنه كلام «حسان بن النعمان» عن ذلك الرجل البربري المسلم الذي كان ينتوي ضمه لجيوش المسلمين.

❀❀✽❀❀

(4)

رسول الأمير

كانت الشمس تميل للمغيب عندما كان «طارق، وماتيه» يمتطيان جواديهما ويتحركان وسط الأشجار والزروع وهما يتسامران فقال ماتيه: لقد اتبعك قوم لو أردت أن تكون ملكًا عليهم لقبلوا ذلك، غير أني أريدك أن تنضم بهم لصاحب «القيروان» فيعرف لك فضلك، ومن يدري فلعله يجعلك ملكًا على نِفْزَة كما جعل من ابن الكاهنة ملكًا على جبال الأوراس.

سحب طارق رسن جواده حتى أوقفه، ثم نظر إليه وقد أوقف جواده هو الآخر وقال: تعلم أنني لا أريد مُلكًا ولا إمارةً.

ماتيه: فماذا تريد وقد كثر أنصارك؟

طارق: الحرية لي ولكل البربر من سطو الروم والقوط، فنعيش أحرارًا في بلادنا ولن يحدث إلا بهذا الدين، فلن يجمع البربر غيره يا ماتيه، وسترى إن علمت القبائل ماهيته كيف سيخضعون له فيجتمعوا بعد تفرق وتناحر، فالدين يجمع والعصبيات تفرق.

شعر ماتيه أنه لا يعي هذه الأمور، وكيف له وقد كان منذ فترة قصيرة يقتل ويستغل تفرق القبائل وتناحرها في السطو عليها، فقال مازحًا: أرى أنني لن أفهم ما تقول ولو مكثت سنين طويلة، ثم قهقه.

طارق: بل ستفهم يا ماتيه، وسيفهم معك كل البربر.

وبينما يتحدث الصديقان إذ بغبار قد اِقترب عليهما ينبئ بقدوم فارس صوبهما.

نظرا إليه حتى إذا اِقترب منهما نزل عن صَهْوة جواده وتقدم وقال: مَن منكما طارق بن زياد؟

نظر طارق وماتيه للفارس ثم نظر بعضهما إلى بعض وقال طارق: أنا هو فمن أنت؟

الفارس: رسول من أمير إفريقية موسى بن نصير يا سيدي.

❀❀✤❀❀

(5)

سيف دمشقي

جلس موسى بن نصير في دار الإمارة «بالقيروان»، وهو يُدرك أنه في بلاد لم يستقر فيها للإسلام حكم وأنه في حالة حرب دائمة مع الخارجين عليه؛ لذا لم يخلع لباسه العسكري قط، بل كان يرتديه دومًا مخاطبًا وجدان رجاله أنه وإن كان أميرهم فهو دائمًا على أهبة الاستعداد للحرب والقتال، وليعلمهم أنهم هنا للجهاد لا للركون والدعة، وأنهم ما يحملون السيف إلا لنشر الإسلام، لا لسبي النساء والغنائم..

جلس موسى وحوله رجال منهم ابنه «عبد العزيز» وأولاد عقبة الثلاثة.

موسى: ما كاد «نيرغاس» يدخل في طاعتنا حتى خرج منها فسرعان ما حنث.

عياض بن عقبه: هؤلاء قوم لا عهد لهم يا أبا عبد الرحمن، فلو تركتنا لأبدناهم.

عبد العزيز: ليسوا سواء يا بن عقبة، فمنهم شقي وسعيد، أجل لقد ارتد منهم من ارتد ولكن لا يقلل هذا منهم أبدًا، فلقد ارتدت العرب بعد وفاة رسول الله ﷺ وكان منهم من رآه وبايعه، فكيف بقوم لم يروه ولم يعرفوه؟ بل ربما لم يعرفوا الإسلام على الحقيقة ومنهم من دخله نفاقًا وتذلفًا.

موسى: أحسنت يا عبد العزيز، يجب أن نؤلف قلوب هؤلاء ونطوعهم فالنصر يا سادة ليس في كثرة القتل والدماء، ولكنه في أن تجبر عدوك على اتباعك وموالاتك، وتجعل منه جنديًا في صفوف جيشك، فبدلًا من أن يحاربك يحارب من أجلك، فنحن دعاة حياة لا مبعوثي موت.

وبينما يتحدث موسى ويمتعض لحديثه ابنا عقبة إذ دخل أحد الجند وهو يحمل بين يديه سيفًا دمشقي وضعه أمام الأمير ثم انصرف وسط دهشة الجميع.

أمَّا «عياض، وعثمان» فقد كانا فيما بينهما يتهكمان على كلام «موسى»، ويريان وجوب قتل البربر بلا رحمة، ولهذا فقد ظهر الوجوم والعبوس على محياهما..

عياض سائلًا بمكر: أيها الأمير ماذا عن قلعة زغوان؟ وقد رحل عنها «عبد الله بن موسى» حتى ظن صاحبها نيرغاس ألا قبل لنا به فخرج وعاث في الأنحاء، ثم راح يؤلب الناس علينا فتبعه من تبعه من البربر.

شعر موسى بما خلف سؤاله من كلام فقال: أما هذا فقد ثبت غدره ولا عذر له عندنا، وقد دبرت له من يتولى أمره!

حينها دخل أحد الجنود وقال: سيدي وصل طارق بن زياد، وهو ينتظر الإذن للمثول بين يديك.

موسى مبتهجًا: أدخله فورًا.

خرج الجندي ليعود بعد لحظات وخلفه طارق وصديقه ماتيه وما أن دخل حتى قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رد الحضور السلام، ونظر الجميع بإعجاب إلى هذا الطارق الذي كثيرًا ما تحدث عنه «حسان» وردد اسمه بكل خير.

موسى: لقد تأخرت كثيرًا يا طارق.

طارق: لم يأتني رسولك أيها الأمير حتى قطعت ظهر جوادي إليك، إلا إن كان مقصدك يا سيدي تأخري في اللحاق بخيل المسلمين، فهذه ما كنت لأقدم عليها نفاقًا أو خوفًا أو طمعًا، فلما وقر الإسلام في قلبي وأنعم علي ربي وأدركت أنه الدين الحق، وأن النجاة في اللجوء إليه والتمسك به، وألَّا صلاح لهذه الدنيا إلا به، دخلت فيه بعد أن خلعت أثواب جهلي، وجئت إليكم لأكون جنديًا من جنود راية التوحيد التي جمعتنا جميعًا تحت لوائها عربًا، وبربرًا، وفرسًا، ورومًا.

أخذت كلماته تشق قلوب السامعين فاغرورقت عيون موسى بالدمع فرحًا وتأثرًا وقام إليه واحتضنه وقال: اِيــهٍ يا بني، مرحبًا بك بين أهلك وقومك، فقد صرت منا يا طارق.

وبينما يغبط الجميع طارق قوة إيمانه، وطلاقة لسانه، وحسن طالعه، ووضاءة محياه، كان الأخوان عياض وعثمان ينقمان عليه ولا يريان فيه إلا أنه قاتل أبيهم، ولكن مع ترحيب الجميع به لم يملكا إلا أن يبتسما في وجهه ويسلما عليه.

ثم أمسك موسى بالسيف الدمشقي وسحبه من غمده والتفت إليه وقال: سيفك يا طارق، فوالله مذ دعوتك للحاق بي وقد عزمت أن أعطيك هذا السيف.

طارق: سيف دمشقي يا سيدي!

موسى: أجل يا طارق، فلا تخرجه من غمده إلا للجهاد.

❀❀✤❀❀

(٥)

قلعة نيرغاس

قرر «موسى بن نصير» بذكائه وقد عُرف عنه فطنته الحربية العظيمة أن يُحسن استغلال «طارق بن زياد» الذي ذاع صيته بين الناس وقد أعجب بمنطقه وطلاقة لسانه؛ لذا فقد وجه طارق على رأس خمسمائة فارس نحو قلعة «زغوان» القريبة؛ لتكون بذلك أول قلعة يحتمي بها عاصي من عصاة البربر ويحاصرها جندي منهم! وإن كان البربر يرون في العرب أغراب عنهم فها هو طارق منهم ويحاصرهم!

وقبل أن يخرج من «القيروان» أوصاه موسى قائلًا: اخرج إليهم، لكن لا تبادر بالقتال حتى يبادروك، وكن يقظًا فلا يؤتين من قبلك، ولا تقاتله حتى تعرض عليه التوبة والرجوع للإسلام، فإن قبل فتجاوز عنه وأرسله إليَّ حتى نضعه موضعه، وإن رفض إلا القتال فقاتله، ولكن لا تقتل من دون الحُلم ولا المرأة ولا الشيخ الفاني، ولا تحرق الطعام ولا النخل، ولا تخرب الدور، ولا تقطع الشجر المثمر فإنا يا ولدي دعاة خير ورحمة لا حملة خراب ودمار.

سمع طارق كلام موسى بقلبه وعقله، ثم خرج بصحبة صديقه ماتيه، ورجاله من البربر القادمين معه، وبجنده من القيروان.

ووسط الرمال والجبال تحرك طارق بفرقته والبشر بادٍ عليه، أمَّا ماتيه فقد كانت السعادة باديه على وجهه وهو ينظر إلى طارق الذي صار بين يوم وليلة من قادة جند المسلمين، ويقول في نفسه: كيف للعرب أن يجعلوا من غيرهم قادة؟ وإن كان على دينهم حتى إنه لم يستطيع كتمان هذا السؤال، فباح به إلى صاحبه.

فكان الرد من طارق بقوله: ما زلت تجهل الإسلام يا ماتيه.

ماتيه مبتسمًا: أجهله!

طارق بحماسة: لو كنت تعرفه لأدركت أنه دين يجعل الناس سواسية، إذ يظلون شعوبًا وقبائل متناحرة حتى يدخلوا فيه، فإن هم فعلوا ذابت تلك الأجناس والأعراق وانهارت الفواصل وبهذه المساواة المطلقة صرتُ قائدًا لجنود من العرب والبربر لَّما رأى الأمير أني الأصلح.

حك ماتيه شعره بيده وكأنه لا يفقه ما سمع، أمَّا طارق فضرب بقدمه بطن فرسه وقال: هيا يا ماتيه لا تتكاسل، لن يأتيَ الليل إلا ونحن أسفل قلعة زغوان.

وما أن وصل طارق إلى القلعة حتى نظر إليها وقال منبهرًا: حق لنيرغاس أن يتحصن بها!

ماتيه: لكل حصن مراكز ضعف ووهن.

طارق: وهذا ما أعول عليه يا ماتيه، والآن أخبر الجند أن ينزلوا هنا بعيدًا عن سهام نيرغاس وجنده.

ماتيه: أيها الرجال سنعسكر هنا.

طارق: هيا بنا يا ماتيه.

ماتيه: إلى أين؟

طارق: لن نمكث هنا قبل أن نبحث عن مكان يمكننا الدخول منه، لا بد لهذا السور من مكمن ضعف كما قلت.

ماتية: حسنًا.

تحرك الاثنان وهما يمتطيان صَهْوة جواديهما ويراقبان الأسوار من بعيد، وعند مكان معين استوقف ماتيه طارق وقال له: انتظرني ها هنا!

طارق: إلى أين؟

ماتيه: سأقترب من الأسوار، والأفضل أن أترجل حتى لا ينتبه لي جند نيرغاس.

وقف طارق وترجل ماتيه ثم اِقترب من السور وكان خبيرًا بالحصون والقلاع يسهل عليه التعرف على مكامن قوتها وضعفها، فكثيرًا ما كان يتسلق أيام صباه تلك الأسوار ليسرق ما خلفها.

لم يمر الكثير من الوقت حتى عاد ماتيه وقال: أبشر يا صديقي، ولو أردت الآن أن نقتحمها عليه فسنفعل، ولكن ننتظر حتى يدثرنا الليل بسواده.

طارق: متعجبًا أبهذا اليسر؟! السور عالٍ جدًّا!

ماتيه: وقديمًا قالوا «من مأمنه يؤتى الحذر» ولأن هذا الجزء من السور مرتفع جدًا فقد أهمله نيرغاس فلا أبراج مراقبة كما ترى، وأيضًا يسهل علينا تسلق الأسوار من هذه الناحية فبها تجاويف تساعدنا على أن نهدي نيرغاس ورجاله أكبر مفاجأة، ثم ضحك وامتطى جواده وقال: منصور أنت يا طارق إن شاء الله..

عاد طارق إلى الباب الرئيسي للقلعة فوجد نيرغاس ينظر من أعلاها وما أن رآه حتى قال ساخرًا: ويكأن ابن نصير لم ييأس بعد؟!

طارق: من يحمل السيف لا ييأس أبدًا، فاليأس سلاح العاجز.

نيرغاس متهكمًا: وهل جئت أنت أيها الفتى لتعلّم نيرغاس حمل السلاح، أم جئت ليعلمك نيرغاس اليأس، ثم أطلق ضحكة ساخرة سمعها كل جند طارق.

طارق: سنرى أيها الغادر مَنْ يضحك أخيرًا؟

نيرغاس: ألا تنضم إليَّ أيها الفتى فأنت من البربر وحقيق بك أن تنضم إلينا.

طارق: لا غَرْوَ أن تطلب مني ذلك فقد خبرناك خائنًا يا نيرغاس، ولكن لك عندي عرض أفضل افتح أبواب قلعتك ولك الأمان على نفسك وجندك.

نيرغاس: الأمان يمنحه القوي للضعيف.

طارق: لو كنت كما تقول لناجزت بسيفك، ولم تحتم بأسوار لن تحميك.

نيرغاس: أنتم أهون عليَّ من أن أناجزكم، لذا سأترككم لليأس فهو كفيل بكم، وكما عاد صاحبك وابن أميرك خائبًا، ستلحقه إلا إن رأيت غير ذلك وأردتُ الاحتفاظ برأسك.

طارق: سنرى يا نيرغاس فانتظر إني معك من المنتظرين، ثم سحب طارق رسن جواده وابتعد عن مرمى السهام.

أمَّا نيرغاس فقد أمر رجاله باليقظة والحذر، وأن يقتلوا كل من يقترب من القلعة.

ماتيه كاتمًا الضحك: مسكين يعول على متانة الأسوار!

طارق: فلنريه أنها لا تحمي جبانًا!

ألقى الليل بسواده وأظلم المكان إلا من نيران المعسكر فقط، ووسط حمحمة الخيل اِقترب طارق من ماتيه وقال: الآن يا ماتيه فهو لن يتوقع أن يتسلق أحد أسواره.

ماتيه: طِب خاطرًا يا طارق.

ثم وبحماس وإقبال انتخب ماتيه بضع رجال من رجاله وسار بهم صوب المكان الذي حدده سالفًا حتى إذا وصل إلى هناك بدأ ورجاله تسلق الأسوار، وطارق يترقب أمام الباب وقد امتطى ورجاله خيولهم.

نجح ماتيه ورجاله في تسلق السور والنزول إلى داخل القلعة في غفلة من حراسها وتحركوا رويدًا رويدًا حتى إذا اِقتربوا من الباب الرئيسي شهروا سيوفهم وأجهزوا على حراس الأبواب الذين لم تنفعهم استغاثاتهم المتتالية فقد كان رجال ماتيه أقرب إليهم من نجدات «نيرغاس»، ورغم ذلك فقد سقط من رجال ماتيه بضع شهداء قبل أن يفتحوا الأبواب.

وانطلق طارق بجنده إلى ساحة القلعة وكان قد أشعل النيران، وما إن وصل إلى ساحتها حتى اشتبك ورجاله مع حامية القلعة، أمَّا ماتيه فترك القتال واصطحب معه بضع رجال وصعد إلى حيث يقبع نيرغاس، فلم يشعر الأخير إلا والسيوف فوق رأسه.

وبينما تتصادم السيوف وتدور رحى القتال في وسط القلعة، إذ خرج ماتيه وقد وضع السيف على رقبة نيرغاس وقال له: قل لرجالك أيها الجرو أن يتركوا سلاحهم، وإلا أغمدت هذا السيف في قلبك.

صرخ نيرغاس آمرًا جنده بإلقاء السلاح، ولم تمر لحظات حتى أسر طارق كل من في القلعة، وأمر بهم فرُبطوا جميعًا، وحُملوا إلى «القيروان».

❀❀✽❀❀

(7)

المنافق الكبير!

بالقرب من «نهر التاجة» العظيم حيث القصر الملكي بطُلَيْطِلَة جلس الملك القوي «غَيْطَّشة» على عرشه المرتفعة قوائمه على شكل أسد مصنوع من الفضة، وهو في ثيابه الرسمية يعلو رأسه تاج من الذهب مرصع بالجواهر، وعلى كتفه بردة من ديباج موشاة بالذهب، وفي يده صولجان من الذهب ينتهي بصليب كبير، ومن حوله جلس ابناه «إيفا وسيزبوت»، والمنضم حديثًا للبلاط «الكونت لُذرِيق»، كما يوجد «الكونت يوليان» صاحب «سَبتة» والأب «مارتين» رأس الكنيسة القوطية في طُلَيْطِلَة، وأيضًا الأب «أوباس» أسقف «إشبيلية»، والأخ الأكبر لغَيطَّشة ملك إيْبيرِيَّة.

غَيطَّشة موجهًا كلامه للكونت يوليان: ما الخبر الذي تنامى إلينا باقتراب العرب من «سَبتة» أيها الكونت؟!

يوليان (رجل كبير في السن أصلع ممتلئ الجسم): سَبتة في مأمن يا سيدي فلن يستطيع العرب أو غيرهم أخذها أو انتزاعها؛ فأسوارها عالية، وجنودك يا سيدي ساهرين على حمايتها، وما لم يستطعه الروم عبر سنين لن يفعله العرب اليوم، فسَبتة ستبقى كما هي لن يقدر عليها أي مُعتدٍ.

تحدث «الكونت لُذرِيق» وكأنه الحامي لعرش غَيطَّشة والخائف عليه فقال: ورغم ذلك أرى يا سيدي أن نمد سَبتة و«الكونت يوليان» بما يصلح حاله، ويتيح له الدخول مع العرب في حرب إن هم اِقتربوا من أسوارها، إذ لا يجب أن ننتظر حتى يطوّقوا المدينة وهي مفتاح المملكة الجنوبي، وأردف متملقًا يجب ردع كل طامع في هذا العرش وهذه البلاد التي لا صلاح لها دونك يا سيدي.

نظر إيفا وسيزبوت إلى الكونت لُذرِيق ثم نظر كل منهما إلى الآخر، واقترب سيزبوت من أخيه ومال برأسه عليه وقال هامسًا: يا له من ثعلب ماكر!

غَيطَّشة: أحسنت يا لُذرِيق، فسَبتة هي مفتاح الجزيرة وبوابتها الجنوبية، ولهذا سأجعلك على رأس ألف جندي نمد بهم «يوليان» على أن تكون وجندك تحت إمرته وتصرفه متى أراد.

وبينما يهز يوليان رأسه بالموافقة إذ قال لُذرِيق: إنه لشرف لي يا سيدي أن أكون جزءًا من جيش يتولى الدفاع عن مملكة يقودها العظيم غَيطَّشة، فأنا طوع بنانك فضعني حيثما شئت.

نظر «الأب مارتين» إلى لُذرِيق ثم إلى الملك وقال بدهاء ومكر: لقد أحسن مولاي الملك إذ بسط جناح حبه وشمل بعطفه ورعايته كل القوط ونبلائهم؛ حتى اجتمعوا في ظله يتسارعون لحماية المملكة من كل مغتصب.

غَيطَّشة: بوركت أيها الأب.

وبينما يتحدث الجميع كان الأب «أوباس» يشعر بمكر لُذرِيق، ونفاقه كما شعر أن أمرًا بينه وبين «الأب مارتين» هو ما جعل الثاني يثني عليه في حضرة الملك، ولكنه لم يفصح عن ذلك فكل ما يشعر به محض إحساس لا أكثر، ولن يستطيع التحدث في مجلس الملك إلا بالأدلة والبراهين.

وبينما تتزاحم الأفكار في عقل «أوباس» إذا قال مارتين للُذرِيق: وماذا لو غدر أحدهم بالملك يا لُذرِيق؟

بحماسة شديدة قال لُذرِيق: إن كنت تقصد أيها الأب هذا العاق «تيودوفريدودو»، فلتعلم وليعلم جلالة الملك أنه لو عادت الحياة له؛ فسأسمل أنا عينيه بيدي هاتين (ونظر إلى يديه).

سيزبوت بصوت منخفض: يا لك من منافق كبير!

مال إيفا على أخيه: اخفض صوتك لا يسمعنك الملك.

سيزبوت: ألا تسمع ما يقول هذا الذئب؟

إيفا: لقد أجاد النفاق حتى كدت أن أصدقه!

❀❀✤❀❀

(8)

رأي غَيطَّشة

انفض المجلس وخرج الجميع من حضرة الملك، إلا ابنَيْ الملك فإنهما جلسا بإشارة منه.

أمَّا الأب مارتين فقد اصطحب لُذرِيق معه حتى إذا خرجا من القصر نظر إليه وقال: لقد كدت أن أصدق ما تقول.

توقف لُذرِيق ناظرًا إليه وقال: بل يجب أن تصدق أيها الأب؛ فلقد نذرت نفسي للدفاع عن هذا العرش وحمايته!

ازداد تعجب الأب بينما تابع لُذرِيق: إن أنت لم تصدقني، فلن يصدقني أحد، وأكون قد فشلت في مهمتي!

فهم الأب مغزى كلامه وأنه برع في التمثيل فربت على كتفه تأييدًا له وقال: ولقد صدقتك يا لُذرِيق.

لُذرِيق: هذا أول الأمر، ولن يكون آخره إلا بالانتقام لأبي.

أمَّا «سيزبوت» فقد أحس بالخطر المحدق بأبيه خاصة وأن الملك قد شعر بصدق لُذرِيق، وراح يسأل نفسه: هل حقًا نسي ثأر أبيه؟ وهل يأتي الزمان الذي يدافع فيه الابن عن قاتل أبيه بمثل ما حدث اليوم؟ هل ينكر الابن أباه لمجرد نيل منصب أو جاه؟ مهما يكن فالدماء لا تسكن إلا بالدماء.

وقد شعر «إيفا» بما يدور في عقل أخيه فهمس له: لن يستطيع فعل شيء يا سيزبوت فطب خاطرًا.

وقبل أن يرد عليه بادرهما الملك: فيمَ يتهامس الأميران؟

تنحنح إيفا وقال: لا شيء يا مولاي.

سيزبوت: بلى يا أبي، كنّا نتهامس حول الكونت لُذرِيق.

غَيطَّشة: لُذرِيق!

سيزبوت: أجل يا مولاي فإني غير مطمئن له، وزاد قلقي بعد ما رأيته وسمعته اليوم، إذ كيف لرجل أن يعفو عن قاتل أبيه؟

غَيطَّشة: أنت غر يا بني إذ لا ثارات في السياسة، ولُذرِيق إنما أراد بذلك أن يثبت لي ولكم ولكل نبلاء القوط أن عرش إسبانيا أهم مما سواه، خاصة وقت الشدائد، ونحن لم نقتل والده لشيء سوى للحفاظ على هذا العرش، وقد وعى لذلك، وحمد لي عفوي عنه، وأنا قادر لو أردت ألحقه بأبيه.. أنت تقول يعفو عن قاتل أبيه لقد خانتك الكلمات.

سيزبوت: كيف يا جلالة الملك؟

غَيطَّشة: من يملك العفو يملك العقاب و«لُذرِيق» لا يملكه ليعفو.

سيزبوت: ولكنه يملك الحقد عليك يا جلالة الملك.

غَيطَّشة: لا تهول الأمور يا سيزبوت، فلو بدا منه ما يدعو للريب؛ لألحقته بأبيه.

❀❀✽❀❀

(٩)

ثأر وغدر

كان «عثمان وعياض» يتوقان إلى الانتقام لمقتل أبيهما، ورأيا أن «موسى» قد حرمهما ذلك بحبسهما معه في «القيروان» وتقديم طارق عليهما.. ففي إحدى الليالي جلسا والغضب بادٍ على وجهيهما..

عياض: لم يمنعنا من الخروج مع الجيش حتى قدم هذا البربري الذي لا نعرف ماهيته، وولاه علينا.

عثمان: إن باطن الأرض اليوم خيرٌ من ظهرها.

عياض: في الصباح دعنا نخرج إليه ونسأله الخروج مع الجيش.

عثمان: فإن أبى؟

عياض: لا أظنه يفعل.

عثمان: بل ربما نما إليه ما يدور بيننا من العزم على الانتقام لمصرع أبينا؛ فمنعنا من الجهاد خشية من ذلك.

عياض: وكيف علم بذلك ونحن لم نفصح به لأحد؟!

عثمان: أبو عبيدة.

عياض: ماذا؟ أو قد بلغ به أن يشي بإخوته؟!

عثمان: ألا ترى أنه لا يجلس إلينا، ولا يتحدث معنا.

عياض: أعلم أنه لا يريد الثأر لأبيه، ولكن أن تصل به إلى الوشاية بنا ويمنعنا غايتنا، فهذا والله كثير! أيكون أصغرنا ويفعل بنا ما يفعل؟!

وفي تلك اللحظات سُمع صوت فتح الباب فبادر عثمان وقال بصوت منخفض: ها قد عاد من عند موسى فلا تتحدث له بشيء مما دار بيننا، فقط وافقني فيما أقول.

عياض: حسنًا.

وبعد أن ألقى أبو عبيدة السلام.

عثمان: اسمع يا أبا عبيدة، لقد اشتاقت نفسي للخروج والجهاد فماذا لو تحدثت مع موسى في ذلك؟

أبو عبيدة: لن أفعل يا عثمان.

عثمان: لماذا يا أخي؟

أبو عبيدة: لن أكون عونًا لكما على ما تريدانه، لن أعصي الله لأرضيكما.

ظهر الغضب على وجه عياض ولكن إشارة من عثمان جعلته يكتم غيظه بينما تابع عثمان وقال: إن كنت تخشى أن نثأر لعقبة بن نافع فطب خاطرًا فقد تبدلت الأحوال، وما عاد الثأر يشغلنا، ولكنه الجهاد في سبيل الله.

ظهر البشر على وجه أبي عبيدة وقال: حقًا؟!

عياض: أجل يا أبا عبيدة، وما عند الله خير وأبقى.

أبو عبيدة: من الغد سأتحدث إلى الأمير وأطمئنه، ولا أظنه إلا أن يولي أحدكما، فهو والله يحبكما كأولاده.

❀❀✤❀❀

طابت نفس «موسى بن نصير» بما سمعه من حديث أبي عبيدة عن إخوته، فرضي عنهما وقرر أن يوليهما بعض الأعمال ليصلح حالهما ويرفع الغبن عنهما، فولَّى عثمان قيادة الجيش المتجه صوب «تهوذة» وكانت قد ارتدت كغيرها وأعلنت خلع طاعة المسلمين وقال لعثمان: إنما أكرم الله «عقبة» على أيديهم فنال الشهادة، فلا تتألموا لمقتله واعلموا أنكم خارجون للجهاد في سبيل الله لا ثأرًا له.

هز «عثمان، وعياض» رأسيهما للأمير مؤكدين على كلامه بينما كان ينظر لهما أبو عبيدة بنظرة رضا وسعادة بما مَنَّ الله عليهما من تبدل أحوالهما، ثم تحرك الإخوة الثلاثة ومعهم خمسمائة جندي من المسلمين.

أضمر «عياض وعثمان» بأهل «تهوذة» شرًا، فأول ما دخلوا القرية تذكروا ثارات أبيهم وأثخنوا في أهلها حتى قتلوا منهم ستمائة رجل، رغم توسلات أبي عبيدة.

تناثرت أخبار تهوذة هنا وهناك، وحزن لما حدث الكثير من المسلمين أمَّا موسى بن نصير فقد شعر بأنه شريك لأولاد عقبة فيما حدث، وكيف لا وهو من أرسلهم؛ ظنًا منه أنهما قد استقاما وأن حديث الثأر قد ذهب بلا رجعة، وشاركه في ذلك «أبو عبيدة» بل شعر أنه غرر بموسى بعد أن غرر به إخوته..

وما إن عاد ابنا عقبة من تهوذة حتى مثُلا بين يدي «موسى» فجلس والغضب بادٍ على محياه وكان معه طارق بن زياد وعبد العزيز ابنه.

موسى بغضب شديد يشوبه حزن: لماذا يا عثمان؟ لماذا يا عياض؟ ألم أوصيكما بهم خيرًا؟! أين وصايا رسول الله ﷺ وخلفائه مما حدث بتهوذة؟!

عثمان: هون عليك أيها الأمير فإنها والله الحرب، الحرب التي جعلتهم يغدرون بعقبة بعدما أمنهم فقتلوه، وقد خشينا إن نحن تركناهم أن يعيدوا علينا الكرة فيضربون ظهورنا.

طارق: ليسمح لي الأمير.

موسى: تكلم يا طارق.

طارق: لم ينس أبناء عقبة ثأرهما يومًا، فخرجا لا بدافع الجهاد إنما بدافع الانتقام والثأر، وما علما أنهما بفعلتهما تلك قد ألبا الخوارج علينا، وأعطيَا الثوار حجة في الخروج علينا، ولم يراعيا الله ولا وصايا رسوله ﷺ في الحرب.

عياض ممتعضًا: ومن أنت حتى تتحدث في حضرتنا؟

طارق: أنا طارق بن زياد ابن هذه البلاد، وابن الإسلام الذي لولاه لكنتم الآن خلف جبال مكة يسطو بعضكم على بعض.

عثمان باستياء: لقد بلغت مبلغًا لم يبلغه أحد من قبلك!

موسى: بل والله، لقد قال الحقيقة الدامغة، فلولا الإسلام لكنا اليوم قبائل متصارعة! لقد فعلتما فعلة شنعاء ثم لم تعترفا بما اقترفتما حتى جئتما والغرور على محياكما، لا يا عثمان بئس ما فعلتما! نحن لم نأت هنا للثأر والتعالي على الناس بل رحمة للعالمين، ولرفع الظلم عن كواهل البشر.

عبد العزيز: ماذا عن تهوذة يا سيدي؟

موسى: سنبذل لهم الديات ونبين لهم أن فعل أبناء عقبة لا يمت لنا بصلة، أمَّا «عثمان وعياض» فلن أغفر لهما ما حدث، ولن يخرجا مع الجيش بعد اليوم.

❀❀✽❀❀

الفصل الثالث

أيؤرق قلبي ❤ وينام

«**فلورندا**»

(1)

الضَّيف

في أقصى بلاد المغرب حيث المدينة العظيمة «سَبتة» على الخليج الرومي المعروف بالزقاق، وهي تقابل الجزيرة الخضراء في مملكة القوط وليس لها إلى البر غير طريق واحد من ناحية الغرب، فلو شاء أهلها أن يقطعوه قطعوه، فالبحر يحيط بها من جميع الجهات إلا من جهة الغرب، والمدينة محاطة بأسوار مرتفعة وقوية مليئة بأبراج الحراسة، وفي آخرها توجد قلعتها الشهيرة الحصينة المطلة على باقي بلاد المغرب..

وهناك يسكن حاكمها «يوليان» وابنته الوحيدة «فلورندا»، وهى فتاة صغيرة لم تتجاوز العشرين من عمرها نحيفة الجسم هادئة الطباع، يثير هدوؤها دائمًا ضجيجًا بقلوب الرجال، عيونها زرقاء واسعة كعيون المها، تأخذ من يراها إلى عالم آخر، وشعرها الذهبي الطويل مسترسل على ظهرها، مليحة الملامح خفيفة الروح، لا تكاد الابتسامة تغادر وجهها الجميل.

جلست «فلورندا» أمام المرآة تمشط شعرها غارقة في تفكير عميق، ولم يكن المشط ليعاني في تصفيفه لانسيابه ونعومته، ولكن استغراقها في التفكير أطال المدة، فبدت كأنها لن تنتهي منه في وقت قصير!

طُرق الباب طرقات خفيفة؛ الطارق لم يرد أن يزعج الفتاة الحالمة الهادئة، لكنها بالفعل لم تسمعها فما كان منه إلا أن يعيد علها تستجيب، وهذا ما حدث فما أن انتبهت للطرقات حتى قالت بصوتها العذب الناعم: تعالي يا «أليفا».

دخلت عليها مبتسمة الوجه وما أن رأتها حتى أمسكت فلورندا بخصلات من شعرها وسألتها: هل أبدو جميلة؟

أليفا: بل أجمل الجميلات وأروعهن.

فلورندا: حقًّا يا أليفا أم هي مجاملة منكِ وإطراء؟

أليفا: بل هي الحقيقة يا سيدتي، وما مثلك يحتاج إلى إطراء!

وقفت فلورندا وقد ملأت الابتسامة وجهها، ثم تحركت صوب خزينة الثياب فأخرجت فستانًا منه وقالت: هل أرتدي هذا أم هذا؟

أليفا: بل هذا؛ فاللون الأحمر يليق بكِ أكثر.

تجهم وجه فلورندا فجأة وبدا عليها الارتباك ثم تحركت صوب النافذة المطلة على «بحر الزقاق» وقالت: لقد تأخروا كثيرًا يا أليفا.

وقفت أليفا خلفها ووضعت يدها على كتفها بحنان وقالت: بل أنت متعجلة يا حبيبتي.

فلورندا: لقد ضجرت وملت.

أليفا: لم يمر الكثير من الوقت منذ آخر زيارة قام بها الأمير «سيزبوت»، ولكن ماذا أقول؟ وهكذا دائمًا حال العاشقين، يرون زمن ابتعاد الحبيب عنهم طويلًا وكأنه لا ينتهي فإن هو حضر انقلب الحال وتبدل فيتسارع الوقت عليهم مهما بلغ طوله، لتنقضي اللحظات وتفشل معها كل محاولاتهم لتأخير الشمس عن الغروب، فأوقاتهم معًا تمر مر السحاب، فإن انقضى اللقاء وحضر الغياب طال الوقت وصار ثقيلًا كليل الشتاء الطويل، ثم ربتت على كتفها ثانية وقالت: إن كان الأمير «سيزبوت» قد وعد فيجب أن يفي بوعده؛ ولهذا فأنا على يقين أنه سيأتي إليك بصحبة والدك، فتقري عينا برؤيته، ويطمئن قلبك، وتسعد روحك.

فلورندا: آه يا أليفا.. يا ليت الزّمان يعود، واللِّقاء يبقى للأبد أو يتوقف الزمن فلا أفارقه ما حييت.

أليفا: ما زال الزمان أمامك يا جميلتي والحياة تفتح لك ذراعيها، ولا تنسي أن الملك «غَيطَّشة» قد بارك هذه الخطبة فما هي إلا أيام أو شهور قليلة، وتصيرين معه للأبد.

ابتسمت فلورندا وذهبت إلى سريرها فارتمت عليه وقالت في شوق: وكأن يومها سيكون أسعد أيامي.

أليفا: وقريبًا تدخلين الكنيسة؛ ليبارك الأب زواجك من «سيزبوت».

فلورندا: أنت رائعة يا أليفا، لقد استطعتِ أن تقلبي ضجري طربًا.

أليفا ممازحة إياها: لم أفعل ولكنه ذكر الأمير وحضور روحه إلينا.

فلورندا: أتعلمين عندما يعود «سيزبوت» إلى طُلَيْطِلَة ويتركني ها هنا كثيرًا ما أغمض عيني لأعيش معه كل وقتي، وأُعيد على ذاكرتي ما دار بيننا من حديث وكلمات ونظرات فدائمًا حديثه يلامس قلبي وروحي، كم أحلم بحياة كاملة يا أليفا أتمنى أن أعيشها معه.

أليفا: قريبًا تقرين به عينًا ويسعد قلبك معه.

ظلت «فلورندا» تتقلب في فراشها، ومر الوقت وهي تحلم باللقاء وتفكر فيه، تتذكر كلمات «سيزبوت» حتى يهون عليها انتظاره وكلما انتهى الحديث مع نفسها أعادته بتركيز أعلى وإطالة أكبر، حتى إذا جاءها من يبشرها ويقول: لقد وصل والدك الأمير «يوليان» إلى شاطئ سَبتة بسلام.

هبّت من مكانها فرحة وسعيدة وكأن روحها قد عادت إليها، وارتدت فستانها الأحمر الجميل واصطحبت وصيفتها «أليفا» وخرجتا معًا على عجل، لتكونا في استقبال الأمير ومن معه.

ووسط أصوات زقزقة العصافير، وتدافع أمواج البحر، والرياح الخفيفة المداعبة لشعر فلورندا وهي تنتظر على الشاطئ، نزل «الكونت يوليان» من السفينة وخلفه كوكبة صغيرة من الفرسان والجند وتحرك صوب ابنته فاحتضنها بقوة وقبل رأسها وهى تقول: الحمد للرب على سلامتك يا أبي.

يوليان: لقد افتقدتك يا حبيبتي.

فلورندا: وأنا أيضًا يا أبي.

مد يده ملتفتًا للخلف ثم قال: والآن ألا ترحبين بضيفنا؟

زادت دقات قلب الفتاة وخفضت وجهها للأرض أكثر وأكثر؛ فهي تعرف أن الضيف إنما هو الأمير «سيزبوت» فابتسمت واحمر وجهها خجلًا قبل أن تذهب تلك البسمة وتستبدل بها أخرى مصطنعة وتقول وقد خارت قواها من الصدمة: أهلًا بك يا سيدي.

لُذرِيق: أهلًا ومرحبًا بالجميلة فلورندا، لقد سمعت عنك كثيرًا من والدك، وها أنا أرى تلك الجميلة سالبة عقل أبيها.

فلورندا بابتسامة باهتة: شكرًا لظرفك، ولطفك يا سيدي.

يوليان: الكونت لُذرِيق يا بنيتي، سيحل ضيفًا علينا حتى يذهب خطر العرب.

فلورندا: على الرحب والسعة يا سيدي.

لُذرِيق: كنت أود أن أحمل لك بستانًا من الزهور يليق بهذه الطلعة البهية، ثم نظر إلى يوليان وقال: لم أكُ أعلم أن لك فتاة بمثل هذا الحسن أيها الكونت.

يوليان: إنها وحيدتي في هذه الدنيا، فأنا الآن أعيش فقط من أجلها.

وسط ضحكات لُذرِيق ويوليان وصمت فلورندا وقهر قلبها، تحرك الجميع صوب القلعة وقد شعرت أليفا بما يدور في خلد سيدتها؛ فاقتربت منها وراحت تخفف عنها..

أمَّا لُذرِيق فقد أخذت فلورندا عقله وقلبه، ولم يمنعه أنها لم تلق له بالًا أن يتودد لها، وقد ظن أن إعجاب الفتيات به شيء بديهي؛ فهو شاب وسيم مفتول العضلات ذو حسبٍ ومال، وكثيرًا ما تجذب هذه الصفات الفتيات حتى يظن صاحبها أنه إله من آلهة الحب عند النساء! ولكن خاب ظنه مع فلورندا التي لم تنظر إلى مظهره قط، وشغلها عنه حبها الكبير «لسيزبوت» فكل رجال الأرض عندها لا شيء فهي لا ترى منهم غير حبيبها.

❀❀✤❀❀

وفي صباح اليوم التالي وبينما تملأ السحب السماء كان الكونت يوليان يتحرك مصطحبًا لُذرِيق إلى أعلى القلعة حتى إذا وصلا إلى جهتها المطلة على باقي المغرب، أشار بيده وقال: هذا هو الحد الفاصل بيننا وبين باقي بلاد المغرب.

أجال لُذرِيق بصره في كل الأنحاء قبل أن يقول: الماء يحيط بالمدينة من كل الجهات تقريبًا.

يوليان: أجل ولولا هذا الطريق الرابط بينا وبين المغرب لصارت «سَبتة» جزيرة معزولة يحيط بها الماء من كل صوب وحدب.

لُذرِيق: لماذا لم تفكر في قطع هذا الطريق؟ حتى لا يستخدمه العرب في حصار سَبتة والوصول إليك.

يوليان: لو قطعناه لحاصرنا أنفسنا قبل أن يحاصرونا، ولا تنس فكما أن سَبتة مفتاح إيْبيرِيَّة فهي كذلك مفتاح المغرب فمن يحوزها حاز ما بعدها.

لُذرِيق: أراك تفكر في أمر بعيد.

يوليان: بل أفكر في أمر حدث من قبل، وسيحدث بعد ذلك عندما تستعيد دولة القوط قوتها عندها ستكون سَبتة طريقنا لحوز كل المغرب وإفريقية.

جلس لُذرِيق على حائط القلعة وقال: حقًا! أحقًا تنتظر يومًا كهذا أيها الكونت؟

يوليان: أمَّا الآن فلا؛ فالعرب المسلمون في إقبال دولتهم وأوج قوتهم لا يشغلهم شاغل عن فتوحاتهم وحروبهم، ولكن لكل شيء آخر فإن دخلت بينهم الأطماع، تفرقوا شيعًا وأحزابًا وحينها ننهض إليهم، وقد لانت عزائمهم، وصار بأسهم بينهم شديدًا فيسهلوا علينا.

لُذرِيق: إذًا خطتك الآن ألا تواجههم؟

يوليان: أجل، فليس من الكياسة أن نقف الآن في وجههم... لقد هزم العرب البربر والروم وكل قوة جابهتهم حتى الآن، ولسنا بخير من الروم أيها الكونت ومن حسن الحظ أن أسوار سَبتة لا يمكن قهرها أو اقتحامها، ولا يهددها الحصار مهما طال، وخاصة أننا لا نعتمد على البر في تحصيل الغذاء والمؤن وبالتالي فأي حصار لن يفيد ما دام البحر مفتوحًا أمامها، والعرب حاليًا لا يملكون السفن التي تحاصر البحر، كما أن سفن مملكتنا ستكون لهم بالمرصاد إن فعلوا.

نهض لُذرِيق من مكانه وابتسم موافقًا يوليان على رأيه، ثم تحركا ونزلا من أعلى القلعة حتى وصلا إلى بهوها حيث مجلس الحكم، وبينما هما يتناقشان كانت «فلورندا» قد أغلقت عليها أبواب غرفتها وأصابها حزن كبير فألقت بنفسها على سريرها وهي لا تكاد تصدق أن «سيزبوت» قد أخلف وعده لها بزيارتها، وظلت تبكي في صمت، وهي تكابد الشوق وتتساءل في نفسها: لماذا لم يأت كما وعد؟

لحظات كئيبة مرت عليها وقد شعرت أليفا بما يدور في عقل سيدتها فحاولت التخفيف عنها وأوضحت لها أن الأمر بكل تأكيد خارج عن إرادته، وأنه حتمًا وقريبًا سيكون معها، فهو أمير في البلاد ذو مسئولية يخضع لإرادة الملك فهو ولي عهده، وبذلك ساعدتها على تقبل الأمر، ووضع عذر له وكثيرًا ما يضع الحبيب عذرًا بل أعذارًا لحبيبه.

(2)

طنجة

لم يبق أمام «موسى بن نصير» بعد فتحه كل مناطق المغرب سوى ثغري «سَبتة، وطنجة» وكان يتوق لفتحهما؛ كي يؤمن المدن المفتوحة، ولا يبقى للروم والقوط أي جيب يسيطرون عليه أو يتخذونه مركزًا للهجوم على المسلمين؛ لذا جمع قواته وخرج من «القيروان» مصطحبًا معه أبرز رجاله ومنهم «طارق بن زياد» وابنه «عبد العزيز» وجعل طارق على ميمنة جيشه الذي ضم ولأول مرة فرقة كبيرة من مسلمي البربر.

تحرك الجيش بخطى ثابتة، وقد عمل موسى أثناء الرحلة على تعبيد الطرق وإصلاح الآبار، وعدم الاعتداء على الناس، فسار الجيش بين المدن مرورًا جميلًا، حتى أمن الناس وتعجب من تعجب منهم فهم يعرفون دائمًا فساد الجيوش الغازية، وتخريبها، واعتداءها على الممتلكات العامة والخاصة.

وبعد مسيرة يومين وصل موسى إلى «طنجة» التي سارعت إلى إغلاق أبوابها، فقرر إنزال الحصار عليها، وضُربت الخيام حول أسوارها، وقامت الدوريات؛ لتحمي جوانب المعسكر وتؤمنه.

وحول أسوار المدينة وعلى بساط العشب الأخضر فوق الرمال الصفراء، ووسط حمحمة الخيل، كان «طارق، وماتيه» يتجاذبان أطراف الحديث وهما يتحركان بين الجنود، فقال ماتيه: من كان يتخيل أن يأتي اليوم يا طارق الذي نحاصر فيه نحن البربر تلك المدينة ومن فيها من البربر مثلنا، أيعقل أن يحدث هكذا؟ نحاصر قومنا بأيدينا؟

طارق: من قال لك أنهم قومنا يا ماتيه؟ إننا من أمة الإسلام فقومنا هم المسلمون عربًا كانوا أم عجمًا.

ماتيه: يجمعنا معهم اللسان.

طارق: ويفرقنا عنهم الدين، والدين هو العروة الوثقى والرابط الأعلى يا ماتيه.

وبينما يتحركان إذ سمعهما أحد التابعين القادمين من الشام وقد كان موسى دائمًا يصطحبهم معه لتعليم الناس الإسلام فاستوقفه حديثهما، واقترب منهما ونظر إليهما ثم قال: أحسنت يا طارق، وما كنت أرجو أن أسمع أفضل مما قلت، فإنك والله، نطقت صدقًا وقلت حقًا، فالإسلام يا ولدي هو ما يجمعنا، وقومنا هم المسلمون ولذلك فقد

حارب رسول الله ﷺ في غزواته قريش، ولم يقل هؤلاء قومي بل كان قومه المسلمون من المهاجرين والأنصار ومن اتبعهم.

خفض ماتيه وجهه خجلًا وقال: يغفر الله لي، والله يا عم إنني مضطرب العقل والفكر، فأنا مسلم والْحَمْدُ للّهِ، ولكن لا أدري ماذا أفعل في قلبي هذا؟ فعقلي مع المسلمين وقلبي مع البربر.

التابعي: لا تتبع الهوى يا ولدي، فوالله لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله ﷺ أحب إليه مما سواهما ثم ربت على كتف ماتيه ودعا: اللهم اهد عبدك هذا، ثم انصرف وتركهما معًا.

طارق: أتذكر حروب البربر قبل الإسلام وقتال بعضهم بعضًا؟

ماتيه: بلى.

طارق: كانوا يتقاتلون على الباطل وهم عليه، أمَّا الآن فنقاتلهم لنردهم إلى الحق ومن يدري يا صديقي فلولا الإسلام لربما كنت أنت الآن تقاتل في صفوف إحدى القبائل ضد الأخرى!

ماتيه: أستغفرُ اللهَ، أستغفرُ اللهَ، والله لا أعود إلى هذا أبدًا.

طارق: وطنجة!

ماتيه: ما بها؟

طارق: أوجد لنا سبيلًا إليها.

أخذت الحماسة ماتيه بعد الذي سمع كما شعر بتقصيره الشديد وندم على ما قال وقرر أن يساهم في فتح طنجة بأكبر التضحيات، ولأنه خبيرٌ بالقلاع والحصون فقد خرج مترجلًا، وأخذ معه اثنين من رجاله القدامى، وطاف بهما حول أسوار المدينة يبحث عن نقطة ضعف فيها، بينما يتابع المسلمون الحصار ويتقاذفون مع المدافعين عن طنجة بالسهام.

وفي ليلتها دخل ماتيه خيمة طارق والتراب قد تعلق بوجهه وثيابه فلاحظ طارق ذلك وبادر قائلًا: ما بك يا رجل؟

مد ماتيه يده إلى بعض الفاكهة الموجودة في الخيمة وقضم منها قضمة ثم قال: لقد طفت ورجالي بالأسوار حتى وجدت بابًا سريًا يؤدي إلى داخل المدينة غير أنه ضيق لا يسع إلا فردًا واحدًا فقط، فأخشى...

قاطعه طارق: أفرغ ما في فمك أولًا ثم تحدث.

ابتلع ماتيه جزءًا كبيرًا مرة واحدة ثم قال: أخشى يا طارق أن تتخطفنا سيوف أهل طنجة إن هم شعروا بنا.

وقف طارق وتحرك في جنبات الخيمة ثم خرج منها وراح ينظر في أسوار المدينة وخرج خلفه ماتيه وهو ما زال ممسكًا ببعض الفاكهة، وفجأة قال طارق: تعالَ معي.

ماتيه: إلى أين؟

طارق: إلى خيمة الأمير موسى.

تحركا حتى دخلا خيمة الأمير الذي رحب بهما وأجلسهما بجواره.

طارق: لقد توصل ماتيه إلى باب سري يؤدي إلى داخل المدينة يا سيدي.

موسى: حقًا!

ماتيه: أجل يا سيدي، ولكن وكما قلت لطارق فالباب لا يسع إلا فردًا واحدًا، فلو تنبه لنا أحد فسيقتلون كل من يدخل من الباب.

هز موسى رأسه بينما قال طارق: لذا أرى يا سيدي أن نهاجم وبقوة أحد الأبواب فيتجمع كل أهل طنجة للدفاع عنه وقد عرفوا عزمنا اقتحامه، فيتركون كل جوانب السور بلا حماية وفي هذا الوقت ينسل ماتيه ورجاله من الباب السري فإذا تم لهم الأمر يختلطون بأهل «طنجة»، حتى إذا سنحت الفرصة، ونام الحرس، فتحوا لنا الأبواب.

موسى: اللَّهُ أَكْبَرُ، نعم الرأي يا طارق فلتخرج من الغد وتعد عدتك، وتول هذا بنفسك يا بن زياد.

وفي مساء اليوم التالي، اصطحب ماتيه بضعة من رجاله مستغلين الظلام الحالك المطوق للمدينة، وفي الوقت نفسه هاجم طارق الباب الرئيسي محاولًا اقتحامه، فهب كل أهل «طنجة» للدفاع عنه فتمكن ماتيه أن ينفذ إلى المدينة الحصينة، وبعد ساعات توقف الهجوم على طنجة وعاد طارق أدراجه.

وعند الفجر تقدم ماتيه صوب أحد الحراس، ولم يكن يشك فيه فهو بربري مثلهم ويتحدث بلسانهم حتى إذا اِقترب من الجندي باغته بخنجره ثم سحب سيفه وكذا فعل رجاله، ثم بادر الجميع إلى الباب ففتحوه وسط ذعر ورهبة شديدة من أهل «طنجة» الذين أُسقطوا في أيديهم جميعًا..

وهنا أمر طارق أن يُنادى في الناس؛ ليسعوا إليه كي ينثر على رءوسهم الأمن والطمأنينة، فجاء أهل المدينة يهدرون رجالًا، ونساءً، وشيوخًا، وصبية؛ لينظروا ماذا يقول هذا القائد؟!

فإذ به يقف أمامهم تتهلل أساريره بالبشر والخير يقول: يا أهل طنجة جئنا إليكم فاتحين معمرين لا سالبين ناهبين، دعاة سلام لا دعاة هدم وخراب وما سارت تلك الجيوش إلا لنشر دعوة رسولنا محمد ﷺ الذي بعثه الله رحمة للعالمين، فهلموا إلى دين أُنزل من السماء هدى وبشرى لأهل الأرض، ومَن لم يرغب فعليه الجزية وله منا الحماية والحرية، ثم علا صوته يصدح بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا* لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

فوقع هذا في أنفسهم موقعًا عظيمًا؛ ليس فقط لأنه خطاب جديد على مسامعهم بل لأنهم كغيرهم من الشعوب بحاجة لمن يحميهم، ويرعى مصالحهم، ويحفظ حقوقهم.

ولم تشرق الشمس حتى دخل «موسى بن نصير» طنجة على ظهر فرسه وسط جنوده خاشعًا تكاد دموعه تنسال من جفونه، وهو مُطأطِئ الرأس يحمد الله أن وهبه هذا النصر العظيم ودون سفك دماء، وهو في قرارة نفسه يحمد لطارق فعلته وكيف لا وطارق هو سر فتح طنجة!

توجه موسى إلى قصبة المدينة وما أن دخلها حتى بادر إليه جمع من أهل طنجة يبايعونه ويعلنون دخولهم في الإسلام وسط تهليل وتكبير من جند موسى، وما أن انتهت البيعة حتى نظر موسى حوله فيمن يوليه إمارة طنجة؟ فلم يجد غير «طارق بن زياد» لهذه المهمة؛ خاصة بعد مساهماته الكبيرة في هذا الفتح وفي هداية الناس لهذا الدين، كما أيقن أن وجوده على رأس الأمر في طنجة سيجعل البربر يتخلون عن فكرة الخروج والثورات؛ إذ لا حجة لهم فطارق واحد منهم بل ومن أفضل رجالهم، ولكي يعلم الجميع أن الإسلام لا يفرق بين منتسبيه.

وعلى أي حال فقد خرج موسى وترك واليه طارق بن زياد كأول حاكم غير عربي يتولى بعضًا من أمر المسلمين، وترك له من الجند ما يعينه على ذلك، وأوصاه بنشر الإسلام في تلك البقاع، والاعتماد على البربر، وتقريبهم منه.

وما أن خرج منها حتى عاد طارق إلى قصبة المدينة ومن حوله أهم رجاله «ماتيه» وقد شعر بحجم المسئولية الملقاة على عاتقه، وشعر بعظمها فهو يعلم أنَّ هناك من رجال موسى من يكيد له وللبربر أجمعين.

أمَّا ماتيه فقد تقدم صوب طارق مبتسمًا بسعادة وقال: أمير طنجة طارق بن زياد، من كان يظن أنَّ هذا الفتى الذي التقيته يومًا يصير هكذا فيرتفع وأرتفع به.

طارق: لا يا ماتيه لم ترتفع بي ولكنه هذا الدين الذي ينزل الناس منازلهم، والآن يا صديقي أمامنا عمل صعب، وطريق طويل سنسلكه معًا.

ضرب ماتيه بقبضته على صدره قائلًا: مرني وأنا طوع أمرك.

طارق: أريدك أن تدرب كل رجل من البربر حسن إسلامه وتضمه إلى الجيش، أريد أن يكون لنا نحن البربر شرف نصرة هذا الدين وحمايته.

شعر ماتيه بقشعريرة تهز بدنه فقال بحماسة شديدة: سأفعل يا طارق، ثم خرج من أمامه؛ ليؤدي مهمته بينما راح طارق يرسم بخياله مستقبلًا مشرقًا يسعد به أهل طنجة.

❀❀✽❀❀

(3)

عالِم الحدثان

انسل الليل آفلًا ليهل الفجر معلنًا عن الصباح، فسكنت الشمس قلب السماء، وأدلت بجدائلها الذهبية خيوط أمل تثنت على شواطئ «طنجة» الساحرة، وخرجت الطيور من أعشاشها تبحث عن طعام يوم جديد، كما خرج أهل المدينة في عهدهم الجديد يتنفسون هواء الحرية في ظل الإسلام الحنيف، لا يخشون الروم وقد هزمهم المسلمون وردوهم إلى ديارهم، ولا يخافون القوط وقد انحسروا في سَبتة يتحصنون فيها ويتخذون من شواطئ «بحر الزقاق» حاجزًا يحميهم من المسلمين.

امتطى «طارق» صَهْوة جواده يسابق أشعة الشمس إلى شاطئ طنجة الجميل، وما أن وصل إليه حتى ترجّل وترك حصانه وجلس على ربوة عالية يتنسم هواء الشمال العليل، وهل هناك أجمل من هواء طنجة؟! المطلة على البحرين «بحر الظلمات (المحيط) وبحر الروم أو الشام كما أطلق عليه المسلمون».

جلس ساعات وهو ينظر إلى الجهة الأخرى من شاطئ البحر حيث مملكة القوط، فأخذته ذاكرته لذاك الزمن البعيد عندما كان يلهو مع أصحابه الصغار في القبيلة، وبينما هم كذلك إذ هجم عليهم بضعة لصوص واختطفوا منهم من قدروا عليه وساقوهم إلى تجّار القوط الذين كانوا يأتون إلى شواطئ المغرب لصيد الغلمان والجواري ليتخذوهم خدمًا لهم، ولأن اليوم رائق فرأى الشاطئ الآخر للبحر، وتخيل كأن أصحابه الصغار هناك ينادونه ويمدون إليه أيديهم، فظهر التأثر والحزن على وجهه وخطا خطوات داخل الماء وأصوات أمواج البحر تصطخب حوله ويركب بعضها بعضًا، ثم ارتد للخلف فوجد يدًا قد وُضعت على كتفه... جزع طارق ونظر وراءه فوجد عجوزًا نحيفًا يقول له: لا تجزع يا فتى.

طارق: مَن أنت؟ وما شأنك؟

العجوز: انظر يا طارق.

طارق: إلى أين أنظر؟ وكيف عرفت اسمي؟

العجوز: أتدري ما أرى وما أسمع؟

طارق: لا أسمع شيئًا، ولا أرى شيئًا.

أمسك العجوز يد طارق وفتح بصره وأشار بيده صوب البحر وقال: أسمع صهيل خيول وهتافًا، وأرى حشودًا تتهافت وصليل سيوف.

طارق: لا أرى شيئًا مما ترى!

العجوز: أراك يا فتى والحشد خلفك والخطوات تهز الأرض معك، يرتج عرش ويتهاوى، وتلك اليد... تلك اليد تطرق كطرقات القدر بابًا لم يطرقه أحد من قبلك، يتحول اسمك جبلًا... جبلًا عند البر وفوق البحر... جبلًا يصبح على مر الزمان علامة شاهدة على مر الزمان.

طارق: أتراك تخرف يا رجل؟!

العجوز: أنا ما خرفت ولا كذبت نبوءاتي يومًا، ستكون الفارس والقدر الآتي سيد قومه... سيد قومه... سيد قومه.

ظل العجوز يرددها هكذا بينما أخذت طارق الرهبة والهيبة فهام ببصره صوب البحر وكأن ما قد قاله الشيخ يتمثل أمامه، وأصوات الموج تضرب حوله حتى إذا انتبه وارتد ينظر إليه لم يره وكأن الأرض قد ابتلعته.

❀❀✽❀❀

(4)

جارة الوادي الكبير

في كنيسة «إشبيلية» العظمى بالقرب من نهر الوادي الكبير، وفي إحدى الغرف المظلمة جلس الأب «أوباس» بردائه الأبيض وقلنسوته البيضاء، والهدوء يلف المكان، فقد انتهت الصلوات، والكنيسة قد فرغت من الجميع ما عدا القليل وخادم الأب، وقد كان أوباس ينتظر قادمًا قد يفد عليه بين الفينة والأخرى، لم تمض برهة من الزمن حتى سمع خطوات قادمة، أرهف السمع فهو يعرف صاحب تلك الخطوات المسرعة، اِقتربت الخطوات أكثر فأكثر حتى إذا طُرق الباب قال: ادخل يا سيزبوت.

فُتح الباب ودخل سيزبوت، وهوى على يد عمه يقبّلها، فباركه أوباس ثم دعاه للجلوس أمامه، ثم نظر في وجهه فرآه يبتسم لكن أثر الانقباض في أساريره فقال له: مالي أراك كاسف البال يا بُني؟

سيزبوت: لا أظنني أشكو إليك أمرًا لا تعرفه، بل أظنك تشكو مثل شكواي يا عماه.

أوباس: إن كنت تقصد غَيطَّشة فأنت تعلم أني وإياه في خلاف منذ زمن حتى أبعدني إلى إشبيلية.

سيزبوت: لا وقت للخلاف يا عماه، إنه مصير العائلة ومصير إيْبيرِيَّة كلها، فقد صار لزامًا عليك أن تتدخل.

أوباس: وهل تظن غَيطَّشة يسمع لي؟ أما تراه قد أبعد رخشندس إلى الشمال لَمَّا عارضه وحاول أن يبعد عن أبيك هذا اللُذرِيق.

سيزبوت: لكنك لست كعمي رخشندس، فأنت أخوه الأكبر، وواحد من مجلس البلاط، ورئيس كنيسة إشبيلية، وهي وإن لم تكن الكنيسة الأم في إيْبيرِيَّة إلا أنها تظل الأكثر أهمية يا عمّاه.

أوباس: لقد انقطعت عن شئون الحكم، وأنت تعلم ذلك فلا دخل لي بطُلَيْطِلَة وما يدور فيها.

سيزبوت: أرجوك يا عمّاه، أرجوك من أجل إيْبيرِيَّة ومن أجل ابن أخيك سيزبوت.

أوباس: حسنًا يا سيزبوت، سأفعل ما تحب، وإن كنت أتعجب كيف استطاع لُذرِيق وبهذه السرعة أن يسيطر على عقل أبيك؟

سيزبوت: ليس عقله فقط يا عماه، بل لقد صار أقرب إليه من أبنائه، فصار يبث له ما بداخله من شكوك ويشاركه في كل الأمور ويأخذ برأيه، وقد أحسن هذا الثعبان استغلال الأمر فأظهر لأبي أنه الوحيد في هذا البلاط الخائف عليه، بل وصل به الحال أن لعن أباه وأعلن أن غَيطَّشة أب لجميع القوط، فأخذ بالحيلة والنفاق ما لم يأخذه غيره بالطاعة والنصح.. ثم ضرب كفًا على كف وأتبع: أكاد أن أجن كيف لملك عظيم مثل غَيطَّشة أن يجهل الفرق بين النفاق والإخلاص!

أوباس: إنَّ أخطر مرَض يُبتلى به المرء هو مرَض النِّفاق، هذا المرَض الذي يجعل القلْبَ أسود مظلمًا، لا يُحِلُّ حلالًا، ولا يحرِّم حرامًا، الدنيا همُّه، والمال غايتُه، يبذل المنافِق قصارى جهده لتحصيل ما يفنى، ويصرف ملءَ الأرض ذهبًا لتحصيل ما يَبلى، مرَضٌ إنْ أصاب المرء جعلَه أجوفَ كالخيزران، الجُثمانُ جثمانُ إنس، والقلْبُ قلبُ شيطان، إنْ تكلَّم فالشيطان يُلقِّنه، وما نظَر إليه فالشيطان يُزيِّنه، وإنْ فكَّر فالشيطان يمنِّيه، وإن سمِع فالشيطان يستفِزُّه، آثَر دنيا زائلة على نعيمٍ لا يَبلى، له رأسٌ بوجهين، وجسمٌ بقلْبين، وهذا النوع من البشر إن لم تحذره سقطت في براثنه وصرت تبعًا له، فهو متبوع بالحقيقة تابع في الظاهر، وقد أحسن «لُذرِيق» النفاق فاستولى به على قلب أبيك فخيل له أن نفاقه إخلاص وقوله عدل.

سيزبوت: لو لم يفق غَيطَّشة من غفوته تلك، فلنودع مَنْ بمملكة القوط!

❀❀✤❀❀

(5)

في قصر طُلَيْطِلَة

فشلت كل محاولات الأب «أوباس» في التأثير على الملك «غَيطَّشة» كما فشلت كل محاولات ابنيه «إيفا وسيزبوت»، بل إن الأمر انقلب عليهم حين شعر الملك أن أخاه وابناه إنما يريدون الحول بينه وبين كل من يحبه، وذهب في تفكيره إلى أكثر من ذلك فشعر أنهم يريدون التدبير عليه أو ربما خلعه عن العرش، فنفر منهم، وبدأ يعاملهم بجفوة غريبة، وساعده في ذلك التودد الكبير الذي أبداه «لُذرِيق» الذي ما فتئ يستغل كل مناسبة للتعريض بخوفه على الملك وأن غَيطَّشة هو رمز للقوط وعزتهم، كما اقترح عليه إنشاء قوة ملكية خاصة تعمل على حمايته والسهر عليه، وقد فعلت محاولاته فعلها في الملك فشعر بأنه لا أحد يخاف عليه إلا لُذرِيق، فجعله الوحيد من رجال الدولة الذي يحق له الدخول عليه في أي وقت ومكان.

أمَّا «سيزبوت» فقد شعر بوحشة شديدة بينه وبين أبيه، وقد فت ذلك في عضده وشغل جزءًا كبيرًا من تفكيره، فانشغل عن «فلورندا» كثيرًا ولم يعد يسأل عنها كما كان من ذي قبل.

ودخلت «فلورندا» في حزن كبير من جرّاء إهماله لها، وهو الذي لم ينشغل عنها من قبل، ولم يكن يطيق الفراق، بل كانت الرسائل تترا بينها وبينه، ودائمًا يتحين الفرص للذهاب إلى «سَبتة» فأين هو الآن؟ وأين وعوده وعهوده عندما أخبرها أن لا شيء يمنعه عنها ولن يمتنع يومًا؟!

هذه الأسئلة وغيرها كانت تدور في عقلها باستمرار، فدخلت بسبب ذلك في محنة كبرى فانقطعت بهجتها وذبل جسدها، وغارت عيونها الجميلة، وحبست نفسها في غرفتها لا تخرج منها، فلم تعد بعد كالفراشة التي تملأ الدنيا سعادة وبهجة، بل أضحت كثيرة الصمت قليلة الحركة، وكأنها لا تريد الحياة، تكتم في صدرها ألمًا عميقًا، ومع ذلك فهي تتنسم أخبار حبيبها، وتصطنع له الأسباب وتختلق له الحجج فهي من جهة تعاتبه بشدة وتغضب منه ومن أخرى ترأف به وتحن إليه، وهكذا تحيا معلقة بين اليأس والرجاء.

وكم من المحبين حاله مثلها، فالغائب عنه حبيبه تغيب عنه مظاهر الحياة ويشعر أنه في ضيق عظيم فتختلج مشاعره في صدره وتتبدل أحواله وتذوب نفسه أو تكاد تذهب عنه، ويفقد الرغبة في الحياة.

لاحظ «يوليان» ما حل بابنته فحاول التسرية عنها والسؤال عن سبب ما حل بها ولكن «فلورندا» لم تخبره شيئًا بل كان جوابها دومًا الصمت وشكر الرب، ولما فشل في معرفة السبب منها لجأ إلى وصيفتها «أليفا» عله يجد عندها ما يشفي قلبه، ويقطع حيرته، فلم يجد عندها جوابًا شافيًا.

ولأن أليفا تعرف سبب ما حل بها فقد أشارت عليه أن يرسلها إلى بلاط طُلَيْطِلَة لتختلط بأبناء النبلاء؛ فلربما ساعدها ذلك على الخروج مما هي فيه.

فقال لها يوليان: تعلمين أن الملك طلب مني غير مرة أن أرسلها لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان، ولكنها رفضت وتعللت بعدم قدرتها على الحياة بعيدًا عني.

أليفا: لكنها ستقبل الآن يا سيدي.

يوليان: ولم أنتِ واثقة هكذا؟

أليفا: ثق بخادمتك يا سيدي.

يوليان: تعلمين أنك لست خادمة يا أليفا، وما عاملتك هذه المعاملة من قبل.

أليفا: هذا كرم منك يا سيدي.

هز يوليان رأسه ثقة برأيها وخصوصًا أنها أقرب الناس إلى ابنته، ومن ثم دخل على فلورندا وجلس على سريرها وقال: لقد ألح الملك غَيطَّشة عليَّ غير مرة أن أرسلك إلى طُلَيْطِلَة.

فلورندا: لا رغبة لي يا أبي.

يوليان: يجب أن نسمع للملك يا بُنيتي ومَنْ يدري فلعل هواء طُلَيْطِلَة يبدل مزاجك المتعكر هذا.

فلورندا: لا تفعل يا أبي.

يوليان: كنت قبل ذلك لا أرفض لك طلبًا أما وقد صرت إلى ما أراه الآن فسأفعل يا فلورندا وستذهبين إلى هناك؛ فلعلك تجدين بين بنات النبلاء خليلة تسري عنك يا بنيتي، واعلمي أني لا أستطيع حياة دونك، فعودي إلي كما عهدتك.

حاولت أن تعترض مرة أخرى، ولكنه رفع يده قائلًا: لا تجادليني واسمعي لأبيك وأطيعي.

ثم خرج من الغرفة.. لتدخل عقبه أليفا التي جلست بجوارها وقالت وهي تنظر لها برجاء: اسمعي له يا حبيبتي فهو قطعًا يريد سعادتك.

فلورندا: لا أريد الخروج من هنا، ولا أريد أن أرى أحدًا أو أختلط بأحد، ولا أدري ما الذي حدث حتى قسا أبي هو الآخر علي وكان من قبل لا يطيق فعل ذلك.

أليفا: لم يقس عليك، ولكنه يريدك أن تسري عن نفسك قليلًا وتسعدي؛ فهو يعلم أن الحزن يلبد بالإنسان ما دام مقيمًا على حاله، فرأى أن تغيري المكان؛ لعلك تلتقين بمَنْ يبدل أحوالك.

فلورندا: وما رأيك أنتِ؟

أليفا: أرى يا سيدتي أن ننتهز الفرصة؛ فهناك في طُلَيْطِلَة ستعرفين من الأخبار ما لم تعرفيه إن أقمتِ ها هنا!

❀❀✽❀❀

(6)

اللقاء

كان خروج القافلة من «سَبتة» وتوجهها إلى «طليلطة» قد بدل مشاعر «فلورندا» فراحت تُمني نفسها بلقاء قادم لا محالة، وانتعشت حتى صارت كل خطوة تقربها من طُلَيْطِلَة تضيف لها نفسًا وترد لها روحًا.. خاصة وأن أليفا ما فتئت تحدثها عن «سيزبوت» وحبه الكبير لها، وما أن لمحت أطراف المدينة حتى أغمضت عينيها وراحت تتنسم هواءها، ثم فتحت عينيها وقد علا ملامحها الرقيقة السرور، وسرت في حناياها حثيث اللقاء وشعرت أنه أوشك؛ فمن المؤكد أن خبر قدومها وصل إليه، ومَنْ يدري لعله الآن ينتظرها بحصانه على أحد أبواب طُلَيْطِلَة؟ أو ربما رتب لهما لقاء يبث فيه أشواقه، ويعتذر لها عن تلك الأيام العصيبة التي تركها فيها.. فقالت في نفسها والبسمة تعلو وجهها «لا يا سيزبوت لن أرضى عنك بهذه السهولة».

ثم نظرت إلى أليفا التي تراقب بهجتها وتفهم نظرتها وتعرف ما يدور بخلدها، فقالت لها: طيبي خاطرًا يا سيدتي، فقريبًا يبتهج قلبك ويهنأ باللقيا.

فلورندا: أحقًا يا أليفا؟

أليفا: قطعًا يا سيدتي فأنا على يقين أن حائلًا قويًا قد حال بين الأمير سيزبوت والسؤال عنك.

فلورندا متنهدة: كم أتمنى ذلك!

❀❀✽❀❀

كان في جملة قصور الملك غَيطَّشة قصر في شرقي المدينة على أكمة تشرف على ضفاف «نهر التاجة» العظيم، ويحدق به صنوف الأشجار والرياحين والأزهار، وملحق به قصر صغير له بابان، باب يؤدي إلى الخارج وعليه حراسات مشددة وآخر يتصل بالقصر الملكي حيث مقام الملك غَيطَّشة، وفي القصر الصغير نزلت الأميرة فلورندا حيث اجتمعت مع أبناء الفرسان والنبلاء للتعارف والتأدب بآداب الملوك.

نامت ليلتها وهي منتظرة الصباح الذي قد يأتي بالحبيب وكانت تتقلب غير هنيئة إذ طال بها السهر، حتى إذا أطلت الشمس من خلف الآكام، ونثرت سلاسلها الذهبية على «نهر التاجة» مبددة دُجى ليلة من ليالي شتاء طُلَيْطِلَة فتبخر ما كان على أوراق الشجر من طَلٍ وندى.. حتى خرجت فلورندا متدثرة برداء من الحرير الأحمر الزاهي، وشعرها

الذهبي مرسل على كتفيها وظهرها؛ لتسير بين أغصان الشجر في الحديقة، وعيناها على شرفات قصر الملك وكأنها تبحث عن شيء فيه، لاحظت أليفا تلك النظرات في عيون سيدتها فقالت لها: هوني على قلبك الصغير يا حبيبتي.

فلورندا: لا أستطيع صبرًا يا أليفا، ووددت لو أني أقتحم عليه قصره لأعلم نهاية ما أنا فيه، وهل علم بوجودي هنا فلم يتحرك للقائي؟ أم شاغلًا شغله عني؟ وكيف له أن ينشغل؟! فأنا ما قطعتُ تلك المسافات لألقى هنا ما لقيته بسَبتة، غير أني هنا قريبة منه بعيدة عنه.

أليفا: على حد علمي وظني فقد وصله الخبر يا سيدتي.

فلورندا: فلم لم يأت بعد ويريحني مما أنا فيه؟ لماذا لا يأتي ويخبرني بأسبابه أيًا كانت؟ فلقد ضجرت الانتظار ومللت الترقب وكرهت زحمة الأفكار في رأسي.

أليفا: لا أعلم ماذا أقول لك. ولكن لا بد من الانتظار إذ ليس من السهل دخول الأمير هنا كما أن الوقت ما زال مبكرًا فلعله لم يستيقظ بعد كما أننا لا نعلم ما الذي حل به على وجه الخصوص..

فلورندا: أيؤرق قلبي وينام؟!

أليفا: من يدري يا حبيبتي، لا تتعجلي الحكم عليه فلا أحد في تلك البلاد إلا ويعلم أن سيزبوت يذوب شوقًا فيك.

فلورندا: أنا نفسي لم أعد أعلم يا أليفا عن هذا الشوق.

وبينما تتجاذبان أطراف الحديث إذ بباب القصر المؤدي إلى الخارج قد فُتح، ودخل منه رجل ملثّمًا وجهه ببردة تخفي معالمه، وما أن رأته فلورندا حتى خفق قلبها خوفًا وجزعًا ولكن ذلك الخوف تبدل إلى لهفة، فما أن اِقترب القادم حتى شمت فيه رائحة «سيزبوت» فلم تعد تعلم ما تفعل أو تقول، أمَّا أليفا فقد زاغ بصرها يمينًا وشمالًا هل من وشاة هنا أو جواسيس؟ ولكن اِطمأنَّ قلبها فقد كان المكان خاليًا وخصوصًا أن الوقت باكر فمعظم الأمراء والنبلاء نيام.

اِقترب سيزبوت من فلورندا، فارتعدت ركبتاها وأرادت أن تقف لتلقاه فلم تستطع من شدة التأثر، فامتقع لونها وشخص بصرها إليه وهي لا تصدق أنه هنا، وتاهت منها الكلمات المرتبة التي كانت قد أعدتها له فالتزمت الصمت، أمَّا هو فلما دنا منها ولم تقف له ولا رحبت به، فثبت لديه غضبها منه وانزعاجها لعدم سؤاله عنها، ثم ما لبث أن رأى «أليفا» تمسك بثوبها رافعة إياه كي لا تطأه وهي تخطو نحوه بخطوات واسعة مبادرة باستقباله: أهلًا وسهلًا بحبيب القلب الأمير سيزبوت، ثم رنت بنظرها إلى فلورندا وابتسمت ابتسامة خفيفة.

فلورندا وهي معرضة عنه: لو كنت حبيبة قلبه حقًا ما انقطع عني كل هذه الفترة، ثم رفعت بصرها إليه ونظرت له نظرة خرقت أحشاءه، وقرأ في عينيها من تلك النظرة ما لو كتب على الورق لكان كتابًا، قرأ فيها العتاب والتعنيف، قرأ الشوق والوجد، قرأ الحب والغرام والاستعطاف والاستفهام، فلم يستطع جوابًا إلا أنه خر على ركبتيه أمامها وقال: ما انقطعت عنك يومًا يا حبيبتي وما كان لي أن أفعل.

ثم مد يده يريد مصافحتها فلم تمد يدها إليه فظل على حاله، ومضت فترة وهما يتخاطبان باللحظ وقراءة الأفكار ما يغنيهما عن الكلمات..

وقد انشغلت أليفا عنهما أو تصنعت الانشغال حتى تتركهما على حالهما، وظل سيزبوت ساكنًا، ساكتًا وقد عوّل على الصبر حتى تكون فلورندا البادئة بالكلام، فقضيا برهة حتى مدت فلورندا يدها إليه فقبض عليها وضغط كما لو كان يقبض على شيء قد فقده منذ زمن، ولولا خشيته أن يكون قد قسا عليها لضغط على يديها أكثر فأكثر، ثم هوى على يديها يقبلها ويستعطفها أن ترضى عنه وتسامحه..

ثم بدأت فلورندا بالحديث فقالت وقد زاغ بصرها بعيدًا عنه: ما الذي جاء بك إلى هنا يا سيزبوت؟

سيزبوت: لا أدري ما الذي جاء بي يا حبيبتي، فهل تعلمين أنتِ؟

فلورندا: لو كنت أعلم ما سألتك.

سيزبوت: أمَّا أنا فالذي أعلمه أني أسير هواك، حي برضاك، ميت بجفائك، سعيد بلقائك، حزين لافتقادك، أرجوكِ اليوم قبل الغد.

سحبت فلورندا يدها من يده وألقت إليه نظرة ناعسة وهي تقول: لو كنت حريصًا على رضاي ما تركتني كل هذه الفترة، وانشغلت عني فأنا الحزينة لا أنت.

تنهد سيزبوت وشحب وجهه وظهرت عليه كل علامات الحيرة والحسرة وقال: ما شغلني عنك شيء يا حبيبتي فأنت في القلب دومًا.

فلورندا: دعك من كل هذا، واصدقني ما الذي شغلك عني؟

بدا الحزن على محياه وقال: لقد توترت العلاقات بيني وبين أبي؛ فمنعني من الخروج عن طُلَيْطِلَة، فأنا سجين فيها لا أغادرها ولا أبرحها، ولولا ذلك ما تأخرت عنك يومًا.

فلورندا بوجه مقتضب: حقًّا! ولِمَ كل هذا؟

سيزبوت: لقد استطاع اللعين «لُذرِيق» أن يوصل إلى الملك أنَّ المكائد تحاك من حوله، وأنَّ عرش المملكة في خطر، وهناك من يدبر عليه، حتى كان ما كان من خروج العصاة على الملك في «ماردة» فخرج لهم على رأس الجيش واصطحبني ولُذرِيق معه، وكنت أراه يتملق أبي بكل وسيلة ممكنة، حتى إذا وصلنا «ماردة» أظهر شجاعة كبيرة وبسالة عظيمة حتى ظن من رآه أنه يقاتل وحده، فلما دخلنا المدينة وإذ بها خلت من المتمردين وصلنا إلى حصنها الغربي الذي قادنا له لُذرِيق فوجدناه خاليًا أيضًا إلا من عجوز قد جاوز التسعين من عمره «نحيل معوج الظهر» يجلس في الظلام وأمامه نار موقدة، فما استطاع لنا قيامًا، فاقتربنا منه والسيوف مشهورة في وجهه فنهره لُذرِيق: ألا تحيي جلالة الملك أيها العجوز وتقف تأدبًا؟!

فرد الملك: دعه يا لُذرِيق.

وجه العجوز حديثه للُذرِيق: تعلّم يا فتى من الملوك، ولا تجعل غيرتك وخوفك على الملك يمنعانك من الرحمة بالكبار مثلي، وإن مثلي لا يجهل الملك؛ ولكنه السن والوهن ولولا ذلك لوقفت له تعظيمًا وإجلالًا.

غَيطَّشة: لا بأس عليك أيها الرجل؟

أمسك العجوز بعصاة واتكأ عليها حتى نهض، فلما كاد أن يسقط حمله الملك بيده وساعده لُذرِيق على ذلك، ثم قال: أيها الملك ستخرج عليك الثورات هنا وهناك، وستقضي عليها واحدة تلو الأخرى، ولن يستطيع أحد أن يهزم غَيطَّشة إلا رجل من بيته!

ارتاع الملك لتلك الكلمة وشحب وجهه قبل أن يقول للعراف: من هذا الرجل؟ وماذا تقصد؟

العرّاف: لو كنت أعرف اسمه لذكرته لجلالتكم، غير أني لا أرى غير ذلك ثم هوى على الأرض جالسًا بينما الحيرة قد أخذت قلب الملك، وأخذت كذلك قلبي وعقلي، وكدتُ أن أصدق ذلك، ورحت أسأل نفسي مَن مِن آل «غَيطَّشة» سيخونه؟ حتى نظرت إلى وجه لُذرِيق فوجدت عليه علامات الفرح والسعادة، ثم خرجنا من «ماردة» ولم أشك لحظة واحدة أن هناك تدبيرًا ما بين العراف ولُذرِيق..

وعندما أشار على الملك باصطحاب العراف إلى طُلَيْطِلَة! وعدنا إليها لاحظتُ أحاديث بينهما في الخفاء، فتأكد عندي أنها مكيدة كبيرة، فحاولت إبلاغ جلالة الملك بأن أمرًا غريبًا يحدث، فلم يسمع لي، وعرفت يومها أن العراف ولُذرِيق قد نجحا في بث الريبة إلى قلبه فصار يرتاب من كل أهل بيته وخصوصًا أنا.

فتحت فلورندا فاها من هول ما تسمع وقالت: ولمَ أنت على وجه الخصوص؟

سيزبوت: لأني ولي عهده، ثم استطرد: ومنذ ذلك الحين ابتعد أبي عني، وأبعدني عنه ثم ما برح أن منعني من الخروج عن طُلَيْطِلَة وقرّب لُذرِيق إليه فكأنما هو ابنه دون أبنائه.

فلورندا: ألهذا الحد وصل لُذرِيق بقلب الملك؟

سيزبوت: بل ربما أكثر مما تتخيلين، حتى عمي «أوباس» قد منعه الخروج من «إشبيلية»، فكأن الملك بذلك قد عزل نفسه عن كل أسرته، بل ساوره الشك في كل من حوله إلا من لُذرِيق، وإني لأخشى يا حبيبتي عليه من تدبير هذا اللُذرِيق أن ينفرد به ولا نعلم ما الذي قد يحدث؟

ولكن دعكِ من هذا، فحديث الحُكم يوهن القلب ويتعبه، أمَّا حديث الحُب فيزهر القلب، ويريح النفس ويسعد الروح، واعلمي يا حبيبتي أن لولاكِ ما صبرت على ما أنا فيه فأنتِ معي في كل أموري، أتذكركِ لأنعش قلبي فإنّ هواك يضيء العمر إشراقًا.

رفعت فلورندا بصرها إليه وقد أخذ الهُيام منها مأخذًا عظيمًا حتى ظهر ذلك جليًا في عينيها فشخصت بهما إليه برهة؛ فأشرق وجهه، وانفرجت أساريره فرحًا بتلك النظرة التي أنسته مصيبته مع الملك والحجر عليه، وهان عليه كل ذلك في سبيل نيل رضاها عنه.

❀❀✽❀❀

(7)

الترياق

استطاع «لُذرِيق» أن يُحكم السيطرة على الملك ويكون أمين سره، كذلك اِطمأَنَّ الملك إلى العرّاف اليهودي وبدأ يستشيره في كل أموره، ويسأله أن ينظر له في الكواكب والنجوم، فحرضه الأخير على أولاده دون أن يفصح بذلك صراحة، وبدأ يمدح في لُذرِيق ويعدد للملك مناقبه، وبذلك تحسنت العلاقة بين لُذرِيق والملك، وفي الوقت نفسه ساءت مع أبنائه، حتى إن الملك كان يُنيب لُذرِيق عنه كلما ألمت به حاجة أو مرض، وظل لُذرِيق ينوب عنه أيضًا في الحضور أمام مجلس الأساقفة، حتى أحسن استغلال الأمر وتقرب كثيرًا من المجلس وأغدق عليهم المال والهدايا خاصة «الأب مارتين» رأس الكنيسة في طُلَيْطِلَة.

بعد أن اِطمأَنَّ لُذرِيق لمكانته، وشهد عليها مجلس الأساقفة ومن تبعهم، ونجح في عزل الملك عن شعبه وعزل أولاده عنه، بدأ في التفكير والتدبير للتخلص منه لا سيما أنه لن يجد فرصة أثمن من هذه، ولكن كيف؟ فهو يريد قتل الملك ولكن دون أن يعلم أحد أنه مات مقتولًا فكيف ذلك؟

انشغل عقله بهذا السؤال لفترة طويلة، حتى أوعز له العرّاف اليهودي بإمكانية دس بعض السم في طعام الملك على أن يقتله السم على مراحل وأيام، وافق لُذرِيق على تنفيذ تلك الخطة.

وكان الملك غَيطَّشة يشكو من كبر السن ومرض الشيخوخة، وكغيره من الناس يتوق لشيء يعيد له شبابه فقال له العراف: مولاي أستطيع صنع ترياق عجيب لا يعرف سره غيري، هذا الترياق يجعل الشيخ شابًا والضعيف قويًا.

غَيطَّشة: لك مني كل ما تطلب إن استطعت صنع شيء كهذا.

العراف: طلبي هو رضاك يا مولاي.

وبدأ العراف يسقي الملك من ترياقه الذي ما أن يشربه حتى يعود له نشاطه ما أثار حفيظة لُذرِيق وأراد البطش باليهودي، ولكن الأخير قال له: سيدي الكونت هذا هو فعل الظاهر إذ يمد الترياق الجسد ببعض القوة فيظهر كما أنَّ شيئًا لم يحدث أو كأنه عاد سنين شبابه، ولكنه في الباطن يدمر نسيج الجسد وينهكه فيتلف ويفسد.. لا تقلق يا مولاي فأمام غَيطَّشة بضعة أيام فقط وبعدها سيسقط فلا ينهض ويموت فلا يحيا.

لُذرِيق مهددًا: أرجو أن تكون صادقًا، وإلا فسأقطعك إربًا إربًا أنت وكل يهود الجزيرة.

العراف: ومن يستطيع أن يكذب عليك يا سيدي؟

بدأت صحة الملك تتغير للأسوأ فإذا شرب الترياق، عاد كمن ليس به علة أو مرض أو شيخوخة، فإذا ذهب تأثير الترياق سقط الملك وحاصرته الكوابيس اللعينة، ومع تقدم الوقت أصبح تأثير الترياق ضعيفًا فلا ينشط الملك كما كان سالفًا؛ فعوض ذلك بشرب كميات أكبر منه، وكل ذلك ولُذرِيق يحاصر الملك بأعوانه وجنوده ويمنع أولاده وحكام باقي الولايات عنه، لا يدخل مجلس الملك غيره و«الأب مارتين» فقط، فإن احتاج أحدهم لشيء كتب الملك كتابًا وختمه بختمه، وهكذا كانت تدار دولة القوط في آخر أيام حكم غَيطَّشة.

حتى إذا تمكن السم من الملك وفسدت كل أعضاء جسده سقط ميتًا، فبادر لُذرِيق على الفور بجمع مجلس الأساقفة، وأخبرهم بما حدث للملك وسط غياب من أسرته وأولاده، وقبل أن يدفن غَيطَّشة كان المجلس قد انتخب لُذرِيق ملكًا جديدًا للبلاد..

واختيار الملك الجديد في مملكة القوط كان يتم عن طريق الانتخاب المباشر من مجلس الأساقفة، وكان من المفترض أن يستعينوا بوصية الملك وأن يجعلوا «سيزبوت» ملكًا مكانه، ولكن وبإيعاز من «الأب مارتين» وبسيطرة من «لُذرِيق» تم الإعلان عن عقوق سيزبوت لوالده وبالتالي سقطت الوصية عنه، فأعلن الأب مارتين أنه يرشح الكونت لُذرِيق ملكًا وبالأخص أن الملك الراحل قد وضع ثقته فيه، وقد كان في أيامه الأخيرة ينتوي ترشيحه واليًا لعهده ولكن المنية قد عاجلته والدليل على ذلك أنه هو من كان يعتني بصحته دون أولاده، فما كان من مجلس البلاط إلا أن أيدوا ذلك، وبين ليلة وضحاها تم تنصيب «لُذرِيق بن تيودوفريدو» ملكًا على كل القوط، وتم استبعاد سيزبوت وأخيه من حكم المملكة.

❀❀✽❀❀

(8)

حصار سَبتة

في الوقت الذي كانت تجوز فيه مملكة القوط محنة كبرى ومؤامرات عظيمة، كان المسلمون يتقدمون في إفريقية بخطى ثابتة حتى استطاعوا طرد كل بقايا الروم منها، وفتحوا كل المدن ولم يبق سوى ثغر «سَبتة» المقابل «لطنجة» في الطرف الآخر من اللسان المغربي، وقد استطاعت لمنعتها وسهر حاكمها الكونت يوليان أن تحبط كل محاولة لأخذها.

وكان «موسى بن نصير» يتوق إلى افتتاح هذا الثغر المنيع، وتطهير إفريقية من البقية الباقية من العدو؛ حتى لا تقوم لهم قائمة وتخلص إفريقية كلها للمسلمين، ليحقق بذلك حلم عقبة بن نافع -رحمه الله- وبأمر منه تحرك «طارق بن زياد» وخرج من «طنجة» بجيشه وهو يحدوه الأمل في إسقاط آخر معاقل الظلم والجهل والفساد في الشمال الإفريقي.

وما أن وصل إلى سَبتة حتى انتشر جنده ليطوقوا المدينة الصغيرة الهامة، وقد كان ذلك من السهل جدًا خاصة وأنها لا تتصل باليابسة سوى من طريق ضيق.

نُصبت الخيام حول المدينة وتحرك «طارق وماتيه» ودارا حول الأسوار وجنود «يوليان» تراقبهما من أعلاها وبينما يتحركان بخيلهما إذ قال ماتيه: لقد شاهدت قلاعًا كثيرة، فلم أجد قلعة مثل هذه أبدًا.

طارق: إنها قلعة عجيبة! وربما الآن فقط ندرك كيف حافظ عليها القوط لعقود طويلة رغم صغر مساحتها ورغم حصار الروم لها غير مرة.

ماتيه: أترانا ننجح فيما فشل به الآخرون يا طارق؟

طارق: رسالتنا غير رسالتهم، وهدفنا مختلف لذا؛ لن تقف هذه الأسوار أمامنا.

ماتيه: لكن انظر فلن تجد لها نقطة ضعف تذكر، نعم المدينة صغيرة جدًا، ولكن ما دام البحر يمدها بالطعام وهذه الأسوار تمنعنا عنها فلن تسقط أبدًا.

أوقف طارق فرسه ونظر إلى ماتيه وقال: إنَّ لله ألطافًا خفية فيما يراه الناس مستعصيًا، ولو علمت كيف يدبر الأمور لعباده؟ لقوي يقينك وازددت له حبًا.

ماتيه: ونعم بالله، ولكن لو كنا انتظرنا حتى يكتمل إنشاء السفن التي أمر بها موسى لكان الفتح أيسر.

تحرك طارق بفرسه حركة يسيرة ليكمل تفقد الأسوار، حتى وصل إلى شاطئ المتوسط ونظر إلى الأمواج وسمع صوتها وقال: ولم لا نكل ونبذل أقصى جهدنا، ونترك تدبير الأمر لجانب الله -تعالى- وما تدري لعله يهيئ الأسباب لفتحها؛ فوالذي شق القمر لسيدنا محمد ﷺ وشق البحر لكليمه موسى عليه السلام، إني لأؤمن بأنه قادر على أن يشق لنا طريقًا ندخل به تلك الأسوار وما دونها ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

ماتيه: ليتني بمثل قوة إيمانك!

طارق: يا ماتيه ما ظنك بالله وهو يعطي الدنيا لَمن يحب ولمن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب فكن على يقين وثقة بأن الذي شرفك بالإسلام وجعلك من جنده سيمنحنا النصر وإن تاهت عنا الأسباب.

❀❀✽❀❀

كان «لُذرِيق» جالسًا على العرش عندما دخل عليه «الأب مارتين» يهنئه على حيازة الملك إذ قال: تهانينا للملك لُذرِيق، أين تيودوفريدو الآن ليرى مكانة ابنه؟!

نهض لُذرِيق قائلًا: آه أيها الأب الجليل.. لو أني سملت عيني غَيطَّشة لربما هدأت تلك النار في قلبي.

الأب مارتين بمكر: لقد سلبته روحه وملكه وحرمت أولاده من ذلك، ألا يطفئ هذا تلك النار في صدرك؟

تحرك لُذرِيق خطوات للأمام وقال: لا، حتى أقضي على كل عائلته وأحطم أحلامهم.

الأب مارتين: أعيذك يا مولاي أن تتعجل ذلك فهم وإن لم يحوزوا الملك، ولكنْ لهم أنصار وشيع سيثورون إن حل بهم مكروه، وخاصة أن هناك بعض الألسنة لم تصدق وفاة غَيطَّشة ويرجحون قتله.

عاد لُذرِيق إلى كرسيه وقال متحديًا: الويل لهم جميعًا، والويل لكل من يقف في وجهي.

❀❀✽❀❀

انتهى اليوم وصعد لُذرِيق للنوم لأول مرة وهو في ثوب الملك، وما أن دخل إلى جناحه الخاص حتى بادرته «أجيلونا» قائلة: هنيئًا لك الملك يا حبيبي.

لُذرِيق: أجيلونا زوجتي الحبيبة وملكة إيْبيرِيَّة كلها.

أجيلونا: مَن كان يظن أن أكون زوجة الملك؟!

لُذرِيق متشدقًا: لأنك من أصحاب الأحلام الضعيفة والهمم البالية الذين لا يرون إلا ما تحت أقدامهم، وهذا ما جعل أباك يراني في ثوب الهارب لذا؛ كان دائمًا يحتقرني ويقلل مني.

أجيلونا: ما زلت على عهدك القديم يا لُذرِيق رُغم محاولاته التقرب منك.

لُذرِيق: ما تقرب مني إلا بعد أن قربني غَيطَّشة وشعر أن مقاليد المُلك قد صارت بيدي فخشي على نفسه.

أجيلونا: لم تكن الملك ليخشى منك، ولكنه أراد أن يصلح ما بينه وبين زوج ابنته فلم يكن أحد يعلم أنك ستكون الملك.

تقدم لُذرِيق منها وأمسك ذراعيها واستطرد يقول: أجل، لم يكن أحد يعلم أو يؤمن بأن «ابن تيودوفريدو» سيكون يومًا ملكًا على كل إيْبيرِيَّة، ولكن أنا وحدي كنت أؤمن بذلك، وأعمل له ولولا إيماني هذا ما صرت إلى ما صرت إليه، فأول الأمر أن يؤمن الرجل بنفسه، ويحدد هدفه، ويتحرك صوبه، ولا يبال بعد ذلك.

ثم ترك ذراعيها، وراح يخلع ثيابه، فاقتربت منه وقد التزمت الصمت وراحت تساعده في ذلك ثم قالت: مهما يكن فأنا اليوم أسعد الناس بك.

نظر إليها بابتسامة خفيفة ثم بسط جسده على السرير ليغط في سُبات عميق.

وعلى غير عادته استيقظ مبكرًا فقد كان هذا أول أيام ملكه وأول أيامه في هذا القصر الجديد الذي كان يدخله ضيفًا أو ليخبر ملكه السابق بأمر من الأمور، وما أن استيقظ حتى تحرك صوب نافذة الحجرة المطلة على حديقة القصر و«نهر التاجة» ليلاحظ أن هناك فتاة رائعة الحسن والجمال تمشط شعرها الذهبي في حديقة القصر، نظر إليها مليًا محاولًا التحقق من شخصيتها بعد أن شعر أنه يعرفها، حدق النظر مرة أخرى ودقات قلبه تتسارع ثم اعتلت وجهه ابتسامة خبيثة وقال مذكرًا نفسه: فلورندااااااا.

❀❀✽❀❀

(9)

مراسم الحُكم

جلس لُذرِيق لبرهة ينظر إليها من خلف ستائر النافذة، وإذ بذاكرته تأخذه للوراء عندما التقاها أول مرة أثناء زيارته لمدينة سَبتة بصحبة والدها الكونت يوليان وكيف أنها لم تبد أي إعجاب به؟ وقتها كان قد علم أنها خطيبة سيزبوت، وبينما تداهمه أفكاره ويطيل النظر إليها إذ بصوت أجيلونا يقول: إلى ماذا ينظر الملك؟

أطلق الستارة من يده لتحجب النافذة ويخفت ضوء الغرفة قليلًا قبل أن يلتف للخلف ويأخذ نفسًا عميقًا ثم قال محاولًا إخفاء ما في نفسه: أستنشق هواء طُلَيْطِلَة تحت حكم لُذرِيق بن تيودوفريدو.

أجيلونا: سيكون أمام الملك الكثير من الوقت ليستنشق هواء «التاجة» بعد ذلك، ولكن لا تنس يا مولاي أن هناك جموعًا عريضة من الشعب تنتظر منذ الصباح لتبايعك.

انتفخ صدر لُذرِيق فخرًا وزهوًا وقال: حسنًا سأخرج عليهم الآن.

أمسكت أجيلونا بثيابه الملكية وساعدته على ارتدائها، ليخرج بعد ذلك من القصر في موكب فخم قد أعد لهذا اليوم وحوله الحرس والجند يفسحون له الطريق الواصل بين القصر وكنيسة طُلَيْطِلَة الكبرى، والناس ملتفون حول موكبه، وبعضهم ينظر من النوافذ والشرفات وأسطح المنازل، وهم في لهفة لرؤية الملك الشاب الذي انتزع الملك من آل غَيطَّشة، ولُذرِيق يشير لهم بيده في تكبر عظيم.

تحرك بموكبه حتى وصل إلى الكنيسة ليجد كبار الأمراء، والنبلاء، ورجال القصر في انتظاره ورجال الكنيسة قد أضاءوا الشموع، وزُينت الكنيسة بكل أنواع الزينات، وكذا خرج الأساقفة منها لرؤيته وهم يحملون الشموع بين أيديهم وبعضهم يحمل الصليب، وعند الباب ترجل الملك فوجد «الأب مارتين» يستقبله فحياه وانحنى له وقبّل يده وكذا قبّل صليبًا كبيرًا، وأقيمت الاحتفالات والنبلاء والقادة يباركون للملك الجديد حيازة المُلك، وبعد وقت طويل وما أن انتهى الحفل الكبير حتى عاد الملك إلى قصره وقد تمعر وجهه ولاحظ ذلك كل من كان معه وما إن جلس على كرسي عرشه حتى قال: أين أبناء الملك غَيطَّشة؟

تقدم الكونت بلايو (الشاب الصغير الذي أشار مارتين على لُذرِيق به فهو مثله ناقم على حكم الملك غَيطَّشة لذا؛ فقد استعان به وضمه إليه، وأصبح من كبار رجالاته، وأكثرهم قربًا له) وقال: لقد حضر إيفا وغاب سيزبوت يا سيدي.

ازدادت ملامح لُذرِيق غضبًا، وخصوصًا أنه خشي أن يكون سيزبوت استغل انشغال الملك وحراس القصر بالاحتفالات وسعى للقاء فلورندا فقال: كيف له أن يتأخر أما علم بوجوب مبايعته لي؟

الأب مارتين: إنه ما زال حزينًا على فقدان أبيه الملك يا سيدي حتى إنه لم يغادر قصره من حينها.

استرخى لُذرِيق على كرسيه بينما قال «الكونت بلايو» معرّضًا بسيزبوت وساخرًا: ربما شعر يا سيدي بفداحة ما فعله بحق الملك غَيطَّشة حتى مات وهو ناقم عليه، أو ربما يعتصر حزنًا على عظيم ما فقد من جاه وسلطان.

شعر لُذرِيق بنشوة عظيمة في داخله قبل أن يقول: لقد حاولت مرارًا إصلاح ما بينه وبين أبيه ولكن الملك الراحل أبى ذلك، وما كان لنا أن نراجعه في أمره، ولكن على كل حال سنعمل على تقريب سيزبوت منا؛ فهو رغم كل شيء يبقى نجلًا لملكنا السابق العظيم غَيطَّشة!

❀❀✤❀❀

(10)

ملكٌ خليع

تسارعت الأحداث في مملكة القوط الغربيين، وتحولت المملكة إلى طور انحلالها الأخير، فقد كان المجتمع القوطي يعاني صنوف الشقاء والبؤس، وقد مزقته عصور طويلة من الظلم والإرهاق والإعثار..

ولما جاء لُذرِيق ساهم في هذا الانهيار، فقسم الشعب إلى صنفين الأول: طبقة النبلاء والقادة الذين أراد أن يحوز ثقتهم ورضاهم، ويضمن ولاءهم له؛ ليظهر أمامهم أنه أفضل من غيره من الملوك، فأغدق عليهم بسخاء كبير، والثاني: طبقة العوام وهؤلاء فرض عليهم الضرائب الباهظة وسامهم سوء العذاب، وإلى جانب السادة والأشراف، كان رجال الدين يتمتعون بأعظم قسط من السلطان والنفوذ؛ فهم المحلل والمحرم لكل شيء، وهم من يطوعون الشعب، ومن يهبونه صكوك الغفران، وقد استطاعوا صياغة الحياة الفكرية والاجتماعية وفقًا لمصالحهم الشخصية وغاياتهم، ثم استغلوا هذا النفوذ في إحراز الضياع وتكديس الثروات، واقتناء الزراع والأرقاء..

وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تُجمع في أيدي فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين، اختصت بترف العيش ومتاع الحياة، ولم يكن الشعب سوى كتلة مهيضة من طبقة فقيرة وسطى، ومن جمهرة من الزراع شبه أرقاء، ومع ذلك فقد كان يقع عليهم إلى جانب الفروض والمغارم مهمة الخدمة وحماية البلد وقت الحاجة.

وكان لُذرِيق ملكًا خليعًا، فاجرًا، مغرقًا في ملذاته، وعلى رأس بلاط منحل وضيع الخلال كل هدفه تحصيل شهواته وقمع مخالفيه، ولو كانوا من الناصحين له ولشعبه.

وقد أثارت أفعاله غضب بعض الأشراف الذين رأوا سوء تدبيره وعلى رأسهم كان «رخشندس» الأخ الأصغر للملك غَيطَّشة الذي فر إلى الشمال، وبدأ في التدبير لخلع لُذرِيق من الحكم، فجهز له لُذرِيق الجيوش تلو الجيوش، وهدم جميع المعاقل والحصون الداخلية كي يحطم سلطان «رخشندس» وسائر خصومه ويجردهم من وسائل الدفاع والمقاومة، فلم يزدهم البطش والهزيمة إلا ظمأً إلى الخروج والثورة. ناهيك بأولاد الملك غَيطَّشة الذين ما خرجوا على لُذرِيق ولا حملوا السلاح في وجهه ولكنهم تمنوا بواره وأعدوه مغتصبًا للعرش، وهكذا بات عرش القوط يرتجف فوق بركان مضطرم من السخط.

لم يمض الكثير من الوقت حتى نفدت منه خزائن الدولة ووجد لُذرِيق نفسه بحاجة إلى المزيد من الأموال ليجنّد الجنود لقتل معارضيه، وحماية نفسه وعرشه، وشراء النفوس من حوله ليسترضيهم، ويحقق بذلك شهواته الدنيئة..

ولكن كان السؤال من أين يأتي بالمال؟

اجتمع لُذرِيق مع «الكونت بنسيو» و«الأب مارتين» الذي لا يكاد يفارقه أبدًا، فهو يستشيره في كل أموره.

الكونت بنسيو: لقد فرضنا الكثير من الضرائب على الفلاحين يا سيدي حتى عجز معظمهم عن دفع ما عليهم فهجروا مزارعهم ودورهم؛ لذا يا سيدي لا أرى أن نزيد ما عليهم.

هنا شعر لُذرِيق أن الأمر يفضل فيه استشارة مارتين على حدة فطلب من بنسيو أن يغادرهما، ولأنه يعلم قيمة «الأب مارتين» فهو لم يكن مجرد أب للكنيسة بل صاحب الفضل الأول في تنصيبه، لذا نظر إليه يستنطقه ويستشيره فيمَ يفعل؟ وكيف يحصل على الأموال اللازمة لتجهيز الجيوش؟!

وبعد نظرات وصمت قال لُذرِيق: تعلم يا قداسة الأب ما أقوم به من خدمات جليلة لحفظ هذا الوطن، فقد كثرت الفتن وخرج الثوار من هنا وهناك، حتى أبناء غَيطَّشة على الرغم من صمتهم فلا أظن أنهم ينسون لي سلب الملك منهم، فأشر عليَّ؛ بما أنك محسوب عليَّ فإن ذهبت أنا لن يبقى منصب لك!

ولأن «مارتين» على يقين أن بقاء لُذرِيق ملكًا سيخول له كل ما يريد من سلطة ومال؛ لذا عمل ما بوسعه ليوطد سلطانه، وهكذا دائمًا تلتقي المصالح فهذا الأب الفاسد لم ينظر للدين أو الشعب ولكنه نظر لمصالحه الشخصية ومن ثم كان أبًا للُذرِيق دون الشعب وإن بدا للعامة غير ذلك فقال له: كل ما يأمر به الملك هو قانون سماوي وعلى الجميع طاعته.

أمسك لُذرِيق بورقة أمامه وقال: تعلم قداستك أننا فرضنا المغارم على الشعب ولم يعد بإمكاننا أن نفعل أكثر من ذلك، وقد علمت أنَّ أموال الكنائس كثيرة، فماذا لو أخذنا منها ما نسد به حاجتنا؟

ما أن سمع الأب مارتين كلمة أموال الكنيسة حتى حاول الحديث معترضًا ففهم ذلك لُذرِيق فابتدره قائلًا: على أن نعوض تلك الأموال وأكثر منها عقب تخلصنا من المتمردين، بل وسيكون للأب مارتين أيضًا نصيب كبير من الغنائم.

ابتلع مارتين ريقه وسال لعابه بعد سماعه لنصيبه من الغنائم فقال: لا بأس يا جلالة الملك ما دام ستعوضون الكنيسة بعد ذلك.

وبينما يتحاوران إذ دخل أحد الحراس وقال: سيدي جلالة الملك «الكونت بلايو» بالباب يستأذن للدخول عليك.

أشار لُذرِيق للحارس فخرج ليدخل بعدها بلايو، وما إن دخل حتى انحنى وقال: سيدي الملك لقد استطعنا السيطرة على «بنبلونة، وجليقية» وفقد «رخشندس» كل أمل له في المقاومة.

نظر لُذرِيق إلى الأب مارتين مبتهجًا ثم ارتد ببصره صوب بلايو وقال: وأين هو الآن؟ ولماذا لم تقبض عليه؟

بلايو: لقد استطاع الفرار إلى أعالي الجبال فلم أرد أن أضيع وقت جندي في البحث عنه.

لُذرِيق عاقدًا حاجبيه: أخطأت يا بلايو، بل كان يجب أن تفعل، فالقضاء عليه وقتله هو خير سبيل لإنهاء ثورته.. ثم نهض وتحرك للأمام وقال: ما يدريك الآن أنه سيمكث حيث كان؟

بلايو: لا يجرؤ أن يترك الجبال وقد فقد كل مناصريه.

لُذرِيق: أخطأت للمرة الثانية يا فتى، فلو بقيَ معه بضعة رجال سيثور بهم، وسيجمع الناس من حوله، ولن يخضع لنا الشمال إلا برأسه فاحرص عليه.

بلايو: أمرك سيدي.

لُذرِيق: عد من حيث أتيت ولا يمنعك ارتفاع الجبال عن قتله، ولو اعتصم بالسحاب.

انحنى بلايو وخرج من القصر ليعود إلى «جبال كوفادونجا» الشاهقة ليستكمل ملاحقة الكونت رخشندس المعتصم بها.

❀❀✽❀❀

انفض المجلس وخرج من فيه وجلس لُذرِيق وحده يقارع خمره كأسًا تتلوه كأس، وقد احمرت عيناه ومن ثم استلقى على الأرض، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه بعض الخدم يحاولون إيقاظه أو حمله إلى غرفته ولكنه زجرهم جميعًا فتركوه رهبة وخوفًا، فنهض من مكانه مترنحًا حتى استلقى مرة أخرى على كرسي العرش، وأخذ يعاود احتساء الخمر، وبينما هو كذلك إذ دخلت عليه «أليفا» والخوف بادٍ عليها حتى إذا نظر لها كاد الرعب والفزع يقتلها، فقال لها وهو مخمور: من أنت؟ أكاد أجزم أني أعرفك ولكن لا أستطيع تذكر اسمك وكينونتك.

أليفا مرتجفة: أنا خادمة مولاتي فلورندا يا سيدي.

حاول لُذرِيق فتح عينيه وقال: فلورندا ابنة يوليان!

أليفا: أجل يا سيدي.

لُذرِيق (وكأنه نسي أنها بالقصر المجاور له): فأين هي الآن؟

أليفا: في جناحها يا سيدي.

لُذرِيق: جناحها!

أليفا: أجل يا سيدي وهي تطلب من جلالتك السماح لها بالعبور إلى سَبتة فقد اشتاقت لوالدها.

صمت لُذرِيق ولم يجب فقد كانت الخمر قد أثقلت لسانه، فاقتربت منه ولكن بحذر وقالت: سيدي... سيدي.

لُذرِيق: ماذا؟

أليفا: هل يسمح جلالتكم لسيدتي فلورندا بالعودة إلى سَبتة؟

قالت هكذا مرة أخرى، ولكن لُذرِيق لم ينطق ولو بكلمة!

❀❀✤❀❀

(11)

بيت الحكمة

في صباح يوم الخامس والعشرين من ديسمبر كان أهل طُلَيْطِلَة منشغلين باحتفال عيد الميلاد والناس يتقاطرون على الكنائس والأديرة، وكانت كنيسة طُلَيْطِلَة العظمى هي أكثر الكنائس ازدحامًا؛ لأن كبير الأساقفة يصلي فيها، ويحضر القداس الملك ومعه حاشيته فغصت الكنيسة على سعتها، وامتلأ فناؤها وما حواليه، وأوقدت الشموع، وعلقت الصلبان في كل مكان، ودقت الأجراس احتفالًا بهذا اليوم من السنة، وتقدم الملك في موكبه حتى وصل إلى الكنيسة فكان «الأب مارتين» في استقباله مع جموع من الشمامسة يحملون الشموع بين أيديهم.

هنأ الأب مارتين الملك وكذا رجال الكهنوت وأقيم القداس في حضرته، فلما انقضت الصلاة وهمَّ الملك بالرجوع اِقترب منه الأب مارتين هامسًا: ربما حان الوقت أن يزور جلالتكم كنيسة «سان بابلو» ويفعل ما يتوجب عليه أن يفعله.

وقد كان بطُلَيْطِلَة بيت مغلق وحجرة غامضة داخل كنيسة «سان بابلو» يحرسها قوم من ثقات القوط، وكان من عاداتهم أنه إذا تولى ملكٌ جديدٌ زاد عليها قفلًا، ولم يكن أحد يعرف ما في هذه الدار على وجه التحديد! وعندما تولى «لُذرِيق» الملك، نصحه رجال الدين بأن يفعل ذلك ولكنه انشغل عن هذا الأمر بملذاته ومؤامراته، فلما كان يوم العيد ذكره «الأب مارتين» لإضافة هذا القفل حتى يستقر ملكه فوافق لُذرِيق على ذلك.

تحرك الموكب الملكي صوب كنيسة «سان بابلو» وقد أعد مارتين كل شيء للملك، حتى إذا دخل لُذرِيق حيث الأقفال بادره أحد الشمامسة المكلفون بحراسة المكان وقدم له القفل الخاص به، فلما أمسكه نظر إلى الأب مارتين فوجده يشير له أن افعل، ولكن لُذرِيق تردد كثيرًا قبل أن يعيد النظر إلى الأب مارتين ويقول: هل يعرف أحدكم ما بداخل الغرفة خلف تلك الأقفال؟

نظر الشمامسة بعضهم إلى بعض ثم نظروا إلى الأب مارتين الذي قال: لا أحد يعلم فهذه الأقفال موضوعة مكانها قبل أن يولد أحدنا!

لُذرِيق: مممم.. إذًا لماذا لا نغيّر تلك العادة القديمة البالية؟

مارتين: كيف ذلك يا سيدي؟!

لُذرِيق: بدلًا من إضافة قفل، نكسر تلك القفول لنرى ما بداخل هذه الغرفة.

اِرتاع الأب مارتين وقال: لن تجد بها أكثر مما وجدته في غيرها يا مولاي.

لُذرِيق: لكنك لا تعلم ما فيها أيها الأب!

الأب مارتين: أُعيذ جلالتكم من أن تفعل ما لم يفعله من كان قبلك؛ فيكون ذلك نذير شر عليك وعلى المملكة، وإن كان الملك بحاجة إلى الأموال؛ فلن يجد هنا ما يريد، فلماذا نُغضب الأحبار والنبلاء؟ ولو كنت أعلم أن هناك كنوزًا لربما تركتك تفعل.

لُذرِيق: ولكننا سنفعل على كل حال؛ فإن لدي رغبة في معرفة ما في داخلها.

تقدم أحد الشمامسة وكان من كبار السن وقال للملك: أعيذك يا سيدي أن تفعل ذلك وتجلب الشر علينا جميعًا، وإن كنت تظن أن بها مالًا فقدره ونحن نمنحك إياه؛ رجاءً ألا تفتحها.

بدأ الغضب يظهر على ملامح لُذرِيق وقال: لن يمنعني أحد عن فتحه، ولا أدري أي رجال هؤلاء الذين يحرسون مكانًا ولا يعلمون ما بداخله، ثم صاح في أحد رجاله الأقوياء وقال له: حطم تلك القفول.

أمسك الجندي بقطعة من الحديد وراح يحطم قفلًا وراء آخر، وكانوا ستة وعشرين حتى حطمهم جميعًا وسط ذُعر من جميع الحضور بمن فيهم الأب مارتين، وقد لاحظ لُذرِيق هذا الذعر والضجر وتسرب لنفسه شيء منه، ولكنه حاول التظاهر بعكس ذلك، ثم أمر الجندي ففتح الباب الذي ما إن فُتح حتى سمع له صوت صرير غريب مريب، وكأنه صيحة الباب القديم الذي ظل زمنًا لا يتحرك.

وقف الجميع مشدوهين أمامه للحظات وكأنهم غير مصدقين لما حدث، حتى إنه لم يتجرأ أحد منهم على الدخول؛ فتقدم لُذرِيق ودخل وحده.

ونظر في أرجاء الغرفة ودقات قلبه تدل على رهبة مما يحدث، فالغرفة موحشة فارغة من كل شيء إلا من مائدة عظيمة من الذهب والفضة موضوعة في أحد أركانها وفوقها تابوت كبير مغلق، وقد التصق عليه الكثير من التراب وخيوط العنكبوت.

اِقترب من الصندوق بحذر فإذا به منقوش عليه جملة «التابوت المغلق»... اِقترب أكثر وأكثر فإذا بالأب مارتين يقول له وقد ظهر عليه الضجر مما يحدث: ألا يكفي ذلك يا جلالة الملك؛ فقد علمت ما في الغرفة فلنعد الآن حتى لا تلاحقنا اللعنات.

لُذرِيق: لا، لن نعود قبل أن نفتح هذا الصندوق ونعرف ما فيه، ثم مد يديه إلى الصندوق وكان ثقيلًا جدًا، فجهد حتى فتحه بنفسه، ولكن وجده فارغًا إلا من ورقة صغيرة ملفوفة قد وضعت فيه، وفي جوانب التابوت صور فرسان على أشكال العرب

يمتطون خيلًا ومتقلدون سيوفًا... أمسك الورقة محاولًا أن يقرأ ما فيها ولكن اللغة المكتوبة كانت غريبة عليه لم يفهمها، فارتاع لكل هذا فصاح بأحد الشمامسة وقال له: من هؤلاء؟! وما الذي كتب في هذه الورقة؟! وما هذه الصور؟!

اِقترب الشماس ونظر في التابوت وقرأ الورقة فجحظت عيناه وقال: أمَّا الصور فيبدو أنها للعرب المسلمين وأمَّا الورقة فمكتوب فيها «إذا فُتح هذا الباب وكُسرت الأقفال وفُتح التابوت، فإن القوم الذين صورهم في التابوت سيدخلون الجزيرة ويمتلكونها».

صاح لُذرِيق وقال: ما هذا الهراء؟ اِرتاع الشماس وتراجع للخلف فتدخل الأب مارتين وقال: هو لم يفعل إلا أن نفذ أوامرك سيدي، وقرأ لك ما في الرسالة.

لُذرِيق ممتعضًا: أي هراء ذلك؟! ثم خرج من الغرفة واندلث لا يلوي على شيء، وكأن مسًّا قد أصابه وهو لا يصدق ما حدث، ثم عاد إلى قصره مفزوعًا مما شاهد وسمع، ويشعر كأنه في كابوس مرعب، وراح يصارع الخمر، فصرعته واستلقى على كرسيه لبعض الوقت قبل أن ينهض مرة أخرى وقد احمرت عيناه، وبدأ يهذي بكلمات يلعن فيها بيت الحكمة والعرب.

(12)

أين قلبك إذًا؟

كان ذهاب الملك من آل غَيطَّشة ضربة كبيرة لهم وبخاصة «سيزبوت» الذي خسر الكثير بفقد أبيه أولًا وفقدان الملك ثانيًا، فما عاد ابنًا للملك وما عاد وليًا للعهد، وكأن كل شيء قد تبخر ولم يبق له غير آلام يتجرعها، وقد بالغ لُذرِيق في إذلاله فرتب له جواسيس تعد عليه خطواته، فقد كان يعلم من داخله أنه مغتصب للعرش ويخشى من انتقام أولاد غَيطَّشة لذا ضيق عليهم.. وهكذا دائمًا حال المغتصب لأي شيء، تراه يراقب ضحيته ويخشاها على الرغم من تحطيمه لها، فلا يقر له قرار ما دامت تلك الضحية ماثلة أمام عينيه تذكره بما فعله وتنغص عليه حياته فلا يكون أمامه إلا الإجهاز على تلك الضحية إن استطاع، وكان لذريق يخشاه ويخشى أتباعه وأتباع الملك القديم، على الرغم من جنوح سيزبوت للصمت والتزامه قصره وانقطاعه عما يدور حوله.

وسيزبوت يدرك جيدًا هذا، ويشعر به ويعلم أن لُذرِيق لن يتركه وقومه، فهذا دائمًا دأب اللصوص يترقبون من سرقوه، ويخشون انتقامه، ويصيبهم هوس الخوف منه.

جلس سيزبوت في غرفة مظلمة من غرف قصره حينما طرق عليه «الأب أوباس» الباب ليرد، وهو لا يعلم أن الطارق عمه: لا أريد شيئًا، ولا أريد أن ألتقي أحدًا؟

سمع أوباس ذلك وكان خادم سيزبوت بجانبه فقال له: هكذا حاله منذ وفاة مولانا غَيطَّشة يا سيدي.

أوباس: لا بأس فلتذهب أنت، ولتعد لنا شرابًا.

الخادم: أمرك سيدي.

تحرك الخادم بعيدًا بينما عاود أوباس طرق الباب قائلًا: افتح يا سيزبوت أنا عمك أوباس.

تبدل حال سيزبوت ونهض مندهشًا قائلًا: عمي أوباس هنا في طُلَيْطِلَة! ثم تحرك صوب الباب وفتحه وقال: اعذرني يا عماه.. لم أك أعلم أنك الطارق.

أوباس: لا بأس عليك يا بن أخي.

ثم تقدم أوباس وجلس في أحد جوانب الغرفة وسيزبوت يجلس أمامه ناظرًا للأرض وكأنه لا يريد أن يرى عمه هذا الانكسار في وجهه..

أوباس: إلى متى ستظل هكذا حبيسًا لتلك الجدران؟

صمت سيزبوت برهة قبل أن يقول: لم يعد بي رغبة في الحياة يا عماه فقد ضاع كل شيء، كل شيء! ومات أبي وهو غاضب مني بعد أن أقنعه هذا الثعبان أني أدبر عليه، حتى النبلاء الذين كانوا يتملقونني لأنني ولي للعهد ما عادوا كذلك بل لم يأت منهم أحد ليواسيني يوم وفاة أبي، فقد انشغلوا بلُذرِيق عنا آل غَيطَّشة.

أوباس: منهم يا بني من كان يتملقك لمكانتك، ومنهم من كان صادقًا معك.

رفع سيزبوت وجهه لوجه عمه وقال: فلماذا لا يسأل عني أحد؟

أوباس: لخوفهم من لُذرِيق، فهم يعلمون أنه سيبطش بكل من يتقرب منك.

سيزبوت: إذًا جميعهم سواء في نظري.

أوباس: لا، فالصادق معك يترقب الفرص ليكون بجانبك، ولن يخذلك إن طلبته وتراه مثلك يتمنى ويرجو فناء عدوك فهو معك بقلبه، ولن يكون يومًا مع عدوك، ولو جاءت الفرصة سيكون سيفه فداء لك.

سيزبوت: دعني يا عماه فقد ألفتُ الوحدة.

أوباس: وماذا عن فلورندا؟

سيزبوت: فلورندا!

أوباس: أجل، فلورندا التي تركتها في براثن هذا الثعبان... هل تستحق منك أن تنقطع عنها وتتركها وحيدة في طُلَيْطِلَة؟ أين قلبك إذًا؟ وأين حبك لها؟

شعر سيزبوت أنه قصّر كثيرًا في حق تلك الفتاة التي أحبته وتركت سَبتة من أجله فتركها هو من أجل أحزانه وآلامه فشعر بفداحة ما فعل..

ربت أوباس على كتفه وأردف: أجل، لقد تعرضت لمحن كبيرة وعظيمة منذ موت والدك، ولكن لا شيء يساوي كسرة القلب.. لا تخسر فلورندا فتخسر قلبك يا بني! ثم نهض وخرج من الغرفة.

❀❀✽❀❀

(13)

طلب زواج

قرر سيزبوت أن يلتقي بلُذرِيق من أجل فلورندا، فدخل قصر الحكم، وكانت تلك المرة الأولى منذ وفاة والده، وقد شعر بكثير من الضيق، فلم يهتم لوجوده أحد، حتى الجند الذين كانوا يسارعون في التودد إليه، وتحيته لم يعبأوا لوجوده.

تحرك متجهًا صوب قاعة الحكم حتى إذا وصل؛ أوقفه أحد الجند ليستأذن له الملك الذي جعله ينتظر بعض الوقت ليس لأنه منشغل ولكن ليزيد في تحقيره وإذلاله.

مضى بعض الوقت حتى سُمح له، وما أن دخل حتى ابتدره لُذرِيق قائلًا: أهلًا بابن مليكنا الراحل العظيم غَيطَّشة.

سيزبوت: أهلًا بك سيدي الملك.

لُذرِيق: لماذا تأخرت علينا كل هذا الوقت ولم تبايع مليكك؟

سيزبوت: إنه الحزن على والدي.

لُذرِيق محاولًا تقريعه: لا يمنعك حزنك من تأدية ما عليك من واجبات.

هز سيزبوت رأسه وصمت لحظة قال بعدها: جئتك يا جلالة الملك لتتم زواجي بفلورندا، فكما تعلم جلالتكم أنها مخطوبة لي منذ وقت طويل، وربما قد حان الوقت يا سيدي لأن نتم ما بدأناه.

لُذرِيق: أجل أعلم ذلك ولكن الأمور قد تبدلت يا سيزبوت.

سيزبوت: وما الذي تبدل يا جلالة الملك؟ فما زالت هي خطيبتي وأنا خطيبها.

أمسك لُذرِيق بكأس خمر ورفعها ناظرًا فيه وراح يديره ثم قال: لقد تبدل وضعك، أليس من المحتمل أن تكون موافقتها السابقة ناجمة عن كونك ابنًا للملك؛ فوافقت خوفًا منه أو لعل «الكونت يوليان» أجبرها على ذلك لينال مكانة عنده لذا؛ علينا إعادة سؤالها فإن وافقت... وإلا فلتتخذ لك زوجة غيرها.

ضغط سيزبوت على أسنانه ولم يبد ذلك له فهو يعلم أنه يستفزه ليوقع به، فقال له متظاهرًا بالرضا: أمرك يا جلالة الملك.

وضع لُذرِيق الكأس التي بيده ثم نظر إليه وقال: حسنًا.. ثم أشار بيده فانحنى سيزبوت أمامه وانصرف، وما أن خرج حتى أمسك لُذرِيق بالكأس مجددًا وقذف بها

على الأرض، فهو يكره مظاهر القوة في أعدائه ويريد دائمًا أن يتشفى منهم، فلما شاهد سيزبوت وقد بدا قويًّا غضب غضبًا كبيرًا، وبخاصة وأن الأمر قد تعلق «بفلورندا» التي وقعت في قلبه مذ شاهدها على ضفاف «نهر التاجة» فلما أعاد سيزبوت ذكرها تأججت نار الغيرة في قلبه فقبض على يده وقال: كما سلبتك الملك يا سيزبوت سأسلبك فلورندا.

❀❀✤❀❀

وبينما كان سيزبوت يحاول أن يتزوج فلورندا، كانت هي الأخرى قد يئست مما هي فيه وخصوصًا أن خبرًا لم يأتِها منه، فقد انقطعت أخباره منذ أن مات والده، لذا فقد طلبت غير مرة من لُذرِيق أن تعود إلى سَبتة بعد أن صارت طُلَيْطِلَة بالنسبة لها سجنًا كبيرًا، ولكنه لم يجب طلبها ولم يسمح لها بالعودة..

وظلت فلورندا حبيسة قلقة فقد ساورتها الشكوك حول سيزبوت، هل حدث له مكروه؟ هل ضايقه لُذرِيق؟ فكانت حزينة خوفًا عليه أكثر من حزنها لانقطاع أخباره عنها، وهي تعرف أن وصوله لها لم يكن قط بالأمر الهين لذا؛ فقد كانت كثيرة الصلاة والدعاء له، وكم جلست إلى أيقونة بجانب سريرها فيها صورة للمسيح مصلوبًا تطلب منه أن يحفظ لها سيزبوت ويوفقه للزواج منها، وهكذا تكون أحوال العاشقين، لا هم لهم، ولا تفكير، ولا راحة إلا في ذكر الحبيب حتى في صلاتهم ودعائهم، وكأن الحب هو شمس حياتهم ومركز كونهم.

أطالت فلورندا صلاتها وتضرعها، وأنساها التعب والدعاء نفسها فأحست بالنعاس؛ فاتكأت على سريرها وهي محتضنة لصورة المسيح وسرعان ما استغرقت في النوم؛ فتراءى لها «سيزبوت» في منامها قادمًا نحوها، ووجهه يفيض نورًا وسعادةً وفرحًا، فأرادت أن تمسك بيده فلم تستطع فانزعجت وفاقت منقبضة النفس، وبينما هي تفرك عينيها لتتحقق من كونها كانت في حلم أو حقيقة إذ سمعت وقع خطوات قادمة نحوها، فنظرت فإذا بوصيفتها «أليفا» قد أقبلت نحوها وعلى وجهها مظاهر الخوف والترقب فبادرتها فلورندا وقالت: ما خطبك يا أليفا؟

خفضت أليفا صوتها وقالت: لا أدري يا سيدتي، غير أني شاهدتُ الملك في جناحك منذ قليل.

انتفضت فلورندا وذهب النوم عن عينيها ونسيت هواجسها من سيزبوت وقالت: هنا في جناحي؟!

أليفا: أجل يا سيدتي، فبينما كنتُ في غرفتي؛ أصلح بعض الأغراض إذ رأيته يتسلل كلص يبحث عن شيء بعينه، فلما ذهب في الاتجاه الآخر جئتك من فوري.

وثبت فلورندا من فراشها وقد تحققت من وقوع الخطر، فأمسكت بسلسلة معلقة على صدرها وعليها صليب ذهبي كبير، وراحت تقبله وتدعو أن يخلصها الإله ممن يريد بها شرًا، وبينما هي كذلك إذ سمعت صوت خطوات قادمة نحو غرفتها، فأمسكت بيد أليفا وكأنها تحتمي بها، ومع تقارب الخطوات كانت دقات قلب الفتاة تزداد أكثر فأكثر، وعيناها لا تفارق باب الغرفة تنظر من يدخل أو يقترب منها، حتى إذا أمسك أحدهم بالباب فتحت عينيها بشدة، وقد اصطكت ركبتاها، وارتعدت فرائصها، ثم فُتح الباب فجأة فإذا بلُذرِيق يدخل وهو يبتسم ويقول: مرحبًا بالجميلة فلورندا.

تراجعت فلورندا للخلف وقالت: لو كان سيدي الملك دعاني إليه في مجلسه لأتيته، وما تعّنى للوصول إلى هنا.

برقت عينا لُذرِيق وقد زادها الاحمرار رعبًا وقال: المجلس للحكم لا للحب، قال ذلك وقد خيل له أن فلورندا ما إن تعلم بحب الملك لها حتى تكون طوع إرادته وكيف لا تكون وكل نساء القوط يتمنين ذلك؟!

تسارعت أنفاس فلورندا وقد حاولت أن تبدو متزنة وقالت: لا يليق بمثلي إلا أن تكون خادمة للملك.

ضحك لُذرِيق وقد سلبت الخمرة كل عقله؛ فنظرت إلى أليفا علها تفعل شيئًا، ولكنه انتبه لوجودها فأشار لها براحة يده كي تخرج ومن ثَمَّ تنحنح وقال: اجلسي يا فلورندا.. اجلسي هنا أمامي.

فلورندا تخفي احتقانها: العفو يا سيدي ليس مثلي من يجلس في حضرتك.

قطع لُذرِيق كلامها ثم أمسك يدها بقوة، وأجلسها فأحست بخوف كبير، وكأن نارًا قد لامستها فأجفلت وجذبت يدها من يده، وجلست وهي تحاذر منه.

غضب لُذرِيق لذلك واستغرب نفورها منه، ولكن حمل ذلك محمل الهيبة منه فتبسط لها وقال: اعلمي يا فلورندا يا أجمل نساء القوط أني جئتك هنا لأخاطبك بلغة من يريدك ويحبك لا بلغة الملوك والسادة، فخاطبيني كما لو كنتُ رجلًا عاديًا أو كما تخاطبي رجلًا يحبك ويهواك، رجلًا يريدك ملكة للقوط.

سمعت فلورندا ذلك فتحقق لها قصده، وحاولت أن تتخلص منه بالحسنى فقالت: ومن أنا حتى أكون ملكة للقوط أو حتى حبيبة للملك؟ ما أنا سوى خادمة من إحدى رعاياك يا سيدي.

ازداد تعجبه من حديثها، واستكبر أن يكون ملك ملوك القوط، والكل يرجو رضاه بينما فتاة بين يديه وفي قصره ترفضه، وتفضل عليه عبدًا من عبيده، فأراد أن يبطش بها ويأخذها بالقوة، ولكنه عاد مرة أخرى فآثر الحسنى والتلطف معها، فاقترب منها

وقد تصبب العرق منه ورجفت شفتاه وقال: وما الذي يمنع أن تكوني حبيبتي أيضًا؟ وحاول أن يمسك بيدها مرة أخرى فتراجعت عنه.

تلعثمت فلورندا وهي تقول: ما أنا سوى فتاة حقيرة لا تليق بك يا مولاي.

تملك هوى فلورندا من قلب لُذرِيق وزاده نفورها فيه، وشعر أنه صغير أمام رفضها فتملقها مرة أخرى، واستعطفها، وجثا على ركبتيه أمامها علها تصدقه، ووضع يده على قلبه وهو يقول: أعترف لك يا فلورندا أني أحببكِ فقد ملكتِ كل قلبي وعقلي.

لم تعبأ بقوله، وظلت على هدوئها ورفضها، ولم تتفوه ولو بكلمة، فرفع لها يديه وهو راكع على ركبتيه فلم تنظر له ولم تعطه يدها.

وهنا تبدل حال لُذرِيق، وشعر أنه أهان نفسه كثيرًا، وأن الغرور قد ركب عقل الفتاة، وأن اللين ربما لم يكن هو الوسيلة الناجحة معها فقال: يا لغرورك، أدعوكِ إلى النعيم وملك القوط، أدعوكِ إلى السعادة والشرف فترفضين، أما علمتِ أن كل بنات إيْبيرِيَّة يتمنين أن يكن الآن هنا!

ما أن سمعت قوله حتى تبدل ضعفها قوة وقالت: تزعم يا لُذرِيق أن بدعوتك تلك تدعوني إلى السعادة والشرف! أي شرف؟ وأي سعادة في هذا الفعل الدنيء؟ مع علمك أني مخطوبة لغيرك ولا أحبك، وهل إجبار من هم في طاعتك شرف؟ وهل استغلال كوني هنا بعيدة عن أبي شرف وقوة ومروءة؟!

عظُم على لُذرِيق توبيخها له، وزاد من غضبه ونقمته عليها ورغبته فيها ذكرها لسيزبوت الذي يثير نقمته؛ فأراد أن يصرخ في وجهها ولكن جمالها منعه من ذلك، فوقع عليه موقع السحر وكثيرًا ما يكون في جمال المرأة أو ضعفها قوة غريبة، فأخذ نفسًا عميقًا ثم قال كالناصح لها: يبدو يا فلورندا أن صغر سنك لا يزال غالبًا على عقلك، ولولا ذلك ما فضلتِ غلامًا لا شأن له ولا مقام على ملك القوط، ولكن أعذر طيشك وسوء تفكيرك، وأبيح لكِ إعادة النظر في حبي لكِ، وما أقدمه لكِ فتدبري أمركِ.

❀❀✽❀❀

الفصل الرابع

وإن حاصرت المحب الشكوك

ضاق واسع دنياه به، ولو كان يرتع

في القصور الفسيحة وتختنق أنفاسه

ولو كان في الهواء الطلق!

(1)

وصيفة أخرى

اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ..

سُمعت تكبيرات العيد وتردد صداها في «القيروان» بلسان عربي مبين، حيث تكاثرت أعداد المصلين في الساحة الخالية خارج مسجد عقبة بن نافع -رحمه الله- واختلط المسلمون الفاتحون مع إخوانهم البربر فلا يكاد الناظر يفرق بينهم؛ فقد جعلهم الإسلام سواسية، هتف المؤذن الصلاة جامعة، وبترتيب بديع وقف المسلمون لصلاة العيد يؤمهم «موسى بن نصير» حتى إذا سلم صعد فوق جذع نخلة أعدت لذلك وراح يخطب في الناس ويحمد الله على انتشار الإسلام في تلك الأصقاع، ثم قال بعد أن حمد الله: «وأيم الله! لا أُريد هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها، ويذلَّ أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين».

❀❀✽❀❀

كان رفض فلورندا كل المغريات المقدمة لها دافعًا قويًا لِلُذرِيق أن يتعلق بها أكثر وأكثر، وهكذا أغلب البشر يزدادون تعلقًا بمن يترفع عنهم أو يرفضهم، ويزهدون فيمن يتقرب منهم ويهتم بهم عن غيرهم؛ يجدون متعتهم فيما ليس لهم فيجتهدون لتحصيله فإن وصلوا إليه زهدوا فيه كغيره وصار عندهم بلا قيمة فالممنوع مرغوب فيه رجلًا عاديًا كان أو أميرًا، ولكن ليس الملوك كغيرهم فقلَّما يمتنع عنهم أو عليهم شيء؛ لذا يجدون متعة أكبر في تحصيل ما صعب عليهم نيله، وهكذا كان حال لُذرِيق مع فلورندا.

وقد كان حريًا بملك القوط أن يكون ملاذًا آمنًا للجميع ولكن أنَّى له، وقد غلبته شهواته فنسي أن تلك الفتاة الضعيفة إنما هي أسيرة لديه واقعة تحت جناح عدله ورعايته، فتجاهل كل هذا بجشع وأنانية وتذكر فقط شهواته..

ولأن «أليفا» لا تفارق فلورندا أبدًا، لذا خطط كي يزيحها من طريقه ويفسح لنفسه المجال ليفت في عضد الفتاة، فقام بإصدار أوامره بإبعادها إلى جناح الملكة حتى تكون في خدمتها على الرغم من معارضة فلورندا، ولم يكتف بذلك بل كلف وصيفة أخرى بملازمتها؛ لتكون تابعة له وتتجسس عليها.

أمَّا «سيزبوت» فقد عاش في قصره «بطُلَيْطِلَة» فترة عصيبة جدًا، إذ تأخر لُذرِيق في الإجابة عليه، فكان تأخره هذا سببًا في إثارة شكوكه، وإن حاصرت المحب الشكوك؛ ضاق واسع دنياه به ولو كان يرتع في القصور الفسيحة، وتختنق أنفاسه ولو كان في الهواء الطلق، ولا علاج لهذا سوى خبر عن حبيبه أو نظرة منه تشفيه؛ فينقلب حاله، ويتبدل حزنه فرحًا وضيقه فرجًا.. جلس يفكر فيما يفعل ليعرف ماذا حدث؟ ويسأل نفسه لماذا لم يرد علي؟ هل يكون قد سألها فرفضت بعدما أصبحتُ رجلًا عاديًا وفقدتُ ولاية العرش! أيعقل أن تكون فلورندا أحبت وريث العرش ولم تُحبني لذاتي؟!

دارت هذه الأسئلة وغيرها برأسه حتى كادت أن تقلته، ولكنه وكعادة كل العاشقين عاد ليلتمس لحبيبته العذر والأعذار وذلك؛ ليسكن قلبه وتهدأ نفسه، ويجيب عن كل سؤال بما يطمئنه، وبعد رحلة مع الأسئلة ومبرراتها قرر أن يقطع الشك باليقين! فخرج من قصره حاملًا بوجهه كل علامات البؤس والحزن حتى دخل على «لُذرِيق» وقد جفت شفتاه ووهن جسده وغارت عيونه من فرط حبه وحرمانه، وما أن دخل عليه حتى فهم الماكر سبب وجوده وقد كان من الدهاء بمكان، فأجلسه وراح يبحث مع حاشيته أمور الدولة تاركًا إياه يقاسي مشقة الانتظار، حتى إذا مر وقت طويل نهض لُذرِيق مصطنعًا التعب بعد يوم حافل من العمل فنهض سيزبوت أيضًا وقال: سيدي الملك لقد طال انتظاري لرد جلالتكم!

تصنع لُذرِيق جهله بحديث سيزبوت حتى يجبره على التكلم مرة أخرى، ويرهق أعصابه وقلبه، فزاد سيزبوت وقال: أقصد فلورندا يا سيدي.

لُذرِيق: كنت أظن أنك قد علمت بما حدث!

تسرب القلق لقلب سيزبوت فحاول أن يتمالك أعصابه ويبتلع ريقه قبل أن يقول: لم أعلم شيئًا يا سيدي.

لُذرِيق: الفتاة لا تحبك.. لقد حاولت معها غير مرة من أجلك فقالت ما لا يجب عليك أن تسمعه.

زاد انقباض سيزبوت وقال: ماذا قالت يا سيدي؟! بل يجب أن أعلم.

لُذرِيق: إذًا لتعلم أنها قالت: كيف أتزوج رجلًا مغمورًا لا شأن له؟

بُهت سيزبوت من هول الكلمة وحاول أن يتحدث فانعقد لسانه بينما تلذذ لُذرِيق بتلك الهزيمة في وجهه قبل أن يتركه في المجلس وينصرف.

تمالك سيزبوت نفسه وتحرك وكأن الدنيا تدور به، وقد طعن قلبه بسكين بارد، وسار كأنه قد فقد كل ما يملك في هذه الحياة حتى ولج إلى قصره، وما إن فعل حتى سقط على سريره والدموع تنهمر من عينه، كيف يا فلورندا؟ كيف تقولين ذلك على

رجل لم ير غيرك في هذه الدنيا؟! كيف تقولين ذلك على رجل لم يبخل عليك بما يملك بل لم يبخل عليك بقلبه وحبه وحياته؟

(2)

ما قبل الفجر

وبينما كان الخليفة «الوليد بن عبد الملك» في دمشق يرسل الجيوش لفتح الدنيا حتى وصل الإسلام إلى الصين شرقًا وإلى أقاصي إفريقية غربًا، وكان من رجاله «محمد بن القاسم» الذي فتح بلاد السند و«قتيبة بن مسلم» والي خراسان الذي فتح بلاد ما وراء النهر و«موسى بن نصير» الذي فتح غرب إفريقية؛ لتكون بذلك الدولة الأموية أكبر إمبراطورية إسلامية عرفها التاريخ.

كانت مملكة القوط تجوز أيامها الأخيرة فلُذرِيق منشغل جدًّا «بفلورندا» ولم يكن يفكر في سواها حتى بعد أن حاصرته الكوابيس المفزعة والظنون من جراء ما اقترفته آثامه، فطاردته تذكره بما فعل، فبينما هو نائم ذات ليلة إذ فزع من منام رآه، إذ رأى نفسه وحيدًا في كنيسة «سان بابلو» حتى إذا دخل الغرفة المظلمة، وفتح التابوت خرج منه فرسان يحملون سيوفًا عربية يريدون قتله، ارتاع ووضع يده على رقبته وتراجع للخلف والجنود يتبعونه حتى إذا أراد أحدهم ضربه بالسيف أفاق وهو يصرخ: اللعنة على التابوت... اللعنة على العرب... اللعنة على بيت الحكمة... وبسبب كل هذا صار العرب المحاصرون لسَبتة كابوسًا له وأي كابوس؟!

لذا أرسل إلى سَبتة من يأتيه بالخبر اليقين، فجاءه الرد بيقظة «يوليان» وتنبهه وبعجز العرب عن اقتحام المدينة وأسوارها؛ فاطمَأن باله، وهدأت نفسه، وعاد يفكر في فلورندا وكيفية الوصول إليها.

أمَّا الفتاة المسكينة فقد دخلت في هم كبير وبخاصة بعد أن فارقتها وصيفتها «أليفا» التي كانت تهوّن عليها الكثير، بعد أن تقطعت بها السبل فلا هي تستطيع العودة إلى «سَبتة» حيث والدها ولا تستطيع الوصول إلى «سيزبوت» ولا حتى الخروج من القصر، فصارت بذلك طُلَيْطِلَة سجنًا كبيرًا وسجّانه لُذرِيق، فلم يعد لها في ظل هذا غير خالقها تتضرع إليه أن ينجيها مما هي فيه.

جثت فلورندا على ركبتيها وأمام صورة للسيد المسيح قالت: ابعد عني أيها المخلص هذا الشيطان وغيّر قلبه؛ ليبعد عني ويشعر بفظاعة ما ينتوي عمله، أرشدني إلى سبيل أنجو به من هذه التجربة الأليمة، أنت ملجأ البائسين والضعفاء لا تسمح يا رب بوقوع هذا الشر.

وظلت تدعو وتتضرع معظم وقتها، وفي نفس الوقت احتاطت لنفسها فأخفت في طيات ثيابها خنجرًا لا لتقتل لُذرِيق فهي تعلم أنها لن تستطيع، ولكن لقتل نفسها إن حاول الاقتراب منها، وخاصة أنها تعرف أنه لا يريد قتلها.

وبالفعل فما أن جاء لُذرِيق حتى أخرجت الخنجر، ووضعت طرفه على صدرها مهددة بقتل نفسها فما كان منه إلا أن تركها وهو يكاد يتميز غيظًا ليعود إلى مجلس عرشه يقارع خمرته وكأسه، وهو يفكر في تلك الفتاة التي هزمته ويقول في نفسه: انتقمت لأبي، وحزتُ الملك، وما قدر أحد عليَّ حتى غلبتني تلك الفتاة، ثم راح يتجرع الكأس يلي الكأس، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه الكاهن اليهودي يتوكأ على عصاه الغليظة وقال: التحية لمولاي ملك القوط لُذرِيق بن تيودوفريدو.

فتح لُذرِيق عينيه وقال: ماذا تريد أيها الملعون؟

الكاهن: رضاك يا سيدي الملك.

لُذرِيق: لا تتملقني أيها الملعون فأنا أعلم بك من نفسك.. أخبرني ماذا تريد؟

الكاهن: لقد ابتعت ضيعة في ربض طُلَيْطِلَة الجنوبي يا سيدي ولكن صاحبها طلب مني الكثير من المال.

صمت لُذرِيق برهة من الزمن وبدأ كأنه قد قُدَّ من صخر فإذا بكل أعضاء جسده لا يتحرك منها عضو واحد، ولا ترمش له عين، وقد ركز بصره على الكاهن الذي بدأ يرتعب ويرتجف من الخوف ولكن لُذرِيق لم يطل به هذا السكوت فقال للكاهن: سأعطيك كل ما تريد من مال وذهب، على أن تصنع لي دواء يذهب بالعقل.

ابتسم الكاهن في مكر وقال: كهذا الترياق الذي سقيناه للملك غَيطَّشة؟

برقت عينا لُذرِيق ورفع حاجبيه إلى الأعلى وانتصب في مجلسه وقد وضح الغضب عليه وقال: لو نطقت بها مرة أخرى فسأقطع لسانك هذا.

الكاهن مرتبكًا: العفو يا سيدي العفو.

تنهد لُذرِيق واسترخى على كرسيه مرة أخرى وقال: أريد دواء يذهب العقل لا الروح، يجعل من يتجرعه نائمًا مستسلمًا لما يدور حوله، ولكن إن ذهب بروحه سآخذ روحك أيها اللعين.

الكاهن: أمرك سيدي.

لُذرِيق: كم تحتاج من الوقت لصنعه؟

الكاهن: يومين على الأكثر يا سيدي.

لُذرِيق: إذًا لا أراك إلا وقد صنعته فاذهب الآن.

الكاهن: والمال يا سيدي، أقصد مال الضيعة.

لُذرِيق مُشيحًا بيده: ليس الآن.. انصرف عليك اللعنة.

انصرف الكاهن وشعر لُذرِيق أنه عما قريب سينال فريسته التي أعيته كثيرًا؛ فانتشت روحه وبدلًا من أن يصب الراح في الكأس أمسك الزجاجة كلها وتجرعها دفعة واحدة، وما أن انتهى منها حتى سلبت الخمر عقله فنام على كرسي عرشه.

❀❀✽❀❀

انقضت المدة وجاء الكاهن يحمل قنينة الدواء التي أخذها منه لُذرِيق ولمعت عيناه وهو ينظر إليها ويقول: أواثق أنت في دوائك؟

الكاهن: كثقتي بعطايا مولاي الملك.

هز لُذرِيق رأسه ثم أعطى اليهودي صرة من ذهب فأخذها وانحنى أمامه، فأشار له أن ينصرف فخرج من حضرته.

رفع لُذرِيق القنينة ونظر إليها مليًا ثم هب واقفًا، وتحرك صوب أحد ممرات القصر ليجد تلك الخادمة الجديدة التي ترافق فلورندا بدلًا من «أليفا» فقال لها: اسقيها من هذا الدواء وحذارِ أن تنتبه لكِ!

أخذت الجارية القنينة ووضعت منها في طعام فلورندا التي ما إن شربت منه حتى راحت في سُبات عميق.

وجاء لُذرِيق وقد تملكت الخمر من رأسه، فتحسس جسدها بيده وعلت وجهه ابتسامة نكراء، وهو لا يكد يصدق أنه وصل إلى مبتغاه أخيرًا، ثم اغتصبها بينما لم تحرك ساكنًا وإن لم تفقد وعيها، وما أن انتهى من جريمته حتى نهض وخرج من غرفتها كالمذعور هاربًا من فعلته الشنيعة، وتركها وهي ما زالت فاقدة للوعي.

❀❀✽❀❀

(3)

زهرة سَبتة الذابلة!

مر وقت طويل قبل أن تبدأ «فلورندا» في التقلب يمينًا ويسارًا، وهي لا تستطيع الحركة من فرط الصداع والألم؛ فرأسها ثقيلة جدًا فما تكاد تنهض حتى تعود للنوم، وجاريتها الجاسوسة تجلس بعيدة عنها تراقب حركتها..

ولما استجمعت قوتها قليلًا وحاولت النهوض، وقد أمسكت برأسها خارت قواها واستلقت مرة أخرى وهي تقول: ماذا حدث؟ هل كنت في كابوس مرعب؟ لماذا أبدو هكذا؟ رأسي ثقيلة جدًا ولا أستطيع النهوض. وظلت تتأوه ثم صمتت وشرد ذهنها، وهي تحاول التحقق هل كان هذا كابوسًا أم حقيقة فبدت كالمذهولة مما حدث! ثم نظرت إلى جاريتها وحاولت التحدث معها ولكن عُقد لسانها فلم تستطع قولًا، وبدت كمن فقد القدرة على النطق والحركة، وخيل لها أن جاريتها إنما هي شبح ووحش يجلس بجوارها، فازداد ألمها وشعرت بوحشة عظيمة، واستمرت تهذي بكلمات غير مفهومة ومبهمة، ثم صمتت مرة أخرى، وبعد وقت قصير استجمعت كل طاقتها ونهضت تنظر في جسدها تتحسس ما به، وفجأة صرخت صرخةً مؤلمة قوية، ونزلت من فراشها وأمسكت بخنجرها، وأرادت قتل نفسها لولا أن منعتها الخادمة التي أمسكت بيدها ونزعت منها الخنجر..

ثم أسرعت إلى لُذرِيق تخبره بأمرها وما تريد فعله بنفسها.. وكان جالسًا في إيوانه ظاهرًا عليه علامات التعب والإرهاق والضجر فقال: إياكِ أن يعلم أحد بما حدث، وإلا قطفت رأسك هذه.

الجارية: أخشى يا سيدي تتحين غفلتي وتفعل.

لُذرِيق: سأرسل لك من يعاونك عليها، والآن اغربي عن وجهي.

عادت الخادمة إليها فوجدتها قد دخلت في حالة بكاء عظيمة وانهارت مما حدث لها، وقد شعرت أن جسدها تلوث وصارت عارًا على كل من تعرفه، فانكفأت على نفسها وامتنعت عن الطعام والشراب والكلام، وتوجست خيفة من كل من بجانبها وصارت تخشى الجارية وتصرخ فيها دومًا، وإذا ما طُرق بابها ارتعبت وظنته لُذرِيق؛ فانكمشت في سريرها وانطوت لا تريد أن يراها أحد، وربما أغمضت عينيها من الخوف والرهبة..

وهكذا اشتعلت نار الحسرة تأكل فؤادها، ولم تعد لها رغبة في الحياة بعد أن فقدت أغلى ما تملك، وبدا الهزال واضحًا عليها فجحظت عيناها، وفقدت وزنها فشحب وجهها أكثر وأكثر، وكادت أن تهلك وهي لم تعد تتحدث إلى أحد..

ومرت الأيام وبدا الموت يقترب من فلورندا فخشيت الوصيفة على نفسها؛ فأبلغت لُذرِيق الذي كان قد ذهب عنه افتتانه بها بعد أن نال منها ما نال، كحال الكثير من الناس، يلح على الأمر حتى إذا بلغه زهد فيه أو كرهه، وقد نصحته الوصيفة بأن يرسلها إلى «سَبتة» فلعل هواءها ينعش روحها، ولكنه خشي عاقبة ما صنع فلم يكن ليؤجج صدر «يوليان» عليه وهو الحارس الأمين على سَبتة مفتاح مملكة القوط من الجنوب، فماذا لو علم بما فعل؟ ولهذا لم يوافق على إرسالها وأيضًا لم يرد أن تموت هكذا، فحاول التخفيف عنها، لا محبة فيها ولكن لكيلا يتخذ يوليان منه عدوًا، فأرسل لها خادمتها الأمينة أليفا لتخفف عنها، وفي نفس الوقت شدد الحراسة على القصر ومن فيه؛ حتى لا يتسرب أي خبر إلى أبيها.

فرحت «أليفا» بعودتها إلى سيدتها وصديقتها أيما فرح، ولكن ما أن دخلت عليها حتى كادت أن تُصعق من هول ما رأت؛ فراحت تقترب منها وهي تظن أن فلورندا ستركض نحوها، فوجدتها كزهرة ذبلت أوراقها حتى كادت أن تهلك، وزاد من دهشتها صمت فلورندا، وعدم الاهتمام بوجودها، فحاولت أن تعرف ما الذي حدث في غيابها؟! ولم هذا الدمع في عيونها؟! لكن فلورندا لم تنبس ولو بكلمة، بل انتفضت وقالت بصوت مرتفع عندما لامست أليفا كتفها: ابتعدي عني أيتها الشيطانة.

أليفا بذهول: ما الذي جرى يا حبيبتي؟!

فلورندا: ابتعدي عني لا أريد أحدًا بجانبي.. اتركوني وحدي.. لا أريد أن أرى أحدًا.

بكت أليفا ولم تعبأ بما تقوله وحاولت التحدث معها فعاودت فلورندا الصراخ، فما كان من أليفا إلا أن جلست في أحد جوانب الغرفة وهي صامتة باكية.

❀❀✽❀❀

ومرت أيام أخرى..

وبعد أسبوعين مما حدث بدأت فلورندا تبث شكواها وتروي لأليفا هول ما حدث معها، فكانت تحتضنها بقوة، وتطمئنها، وتحيطها بكل وسائل الرعاية والحب وقالت لها: يجب أن تتعافي يا حبيبتي من أجل نفسك، ومن أجل مَن يحبك، ومن أجل أن ننتقم ممن فعل ذلك؛ فلا يجب أن يفلت بفعلته تلك ولو كان ملكًا للعالم كله وليس فقط ملكًا للقوط، ولكن أولًا يجب أن نجد طريقة للخروج من هنا والعودة إلى سَبتة.

فلورندا بيأس شديد: هل ترينه يتركنا نعود إليها؟

أليفا: يجب أن يفعل، ولكن الأمر يحتاج إلى تدبير مُحكم حتى يظن هذا الشيطان أنكِ فقدتِ الرغبة في الحياة، وأن بقاءك هنا يعني الموت لا محالة، وأنكِ منقطعة عن الكلام.

فلورندا: هل تظنين أننا سننجح؟

أليفا: يجب أن نؤمن بذلك حتى نفعل، وهذا البغيض وإن كان ملكًا على القوط إلا أنه بحاجة إلى أبيك لذا؛ فهو الآن يريد التخلص منكِ بشرط يأمن أن سره معكِ لن تبوحي به لأحد، وقد علمتُ أن «الكونت يوليان» قائم في سَبتة لأن العرب حاصروها، وقد أمده الملك بالجند والعتاد ليقاوم هذا الحصار، لذلك سيرفض الملك عودتك؛ حتى لا يتغير عليه قلب أبيك.

فلورندا: فماذا نصنع إذًا؟

أليفا: لا تتحدثي إلى أحد ولو جاءت الملكة «أجيلونا» إلى هنا أمَّا أنا فسأتواصل معها وأخبرها بمحنتك على ألا نخبرها بما فعله زوجها، بل نكتفي بقول ألا أمل لكِ في الحياة؛ فلماذا تُحرمين من الموت بين أذرع أبيك في سَبتة؟

فلورندا: أوَ تظنين أن الملكة تساعدنا؟

أليفا: لقد خدمتها فترة غيابي عنكِ، وظني بها أنها مختلفة عن لُذرِيق كما أنه لن يجد سببًا يذكره لها يبرر به سجنك هنا ومنعك عن أبيك!

فلورندا: افعلي ما ترينه مناسبًا، فما عاد لي طاقة على فعل شيء.

وضعت أليفا قبلة رقيقة على رأس فلورندا التي استرخت على سريرها وغطَّت في سُبات عميق.

❀❀✤❀❀

(4)

مساعدة أجيلونا

نجحت أليفا في التسلل إلى جناح الملكة فهي تعرفه جيدًا، وكانت الملكة منشغلة بتزيين نفسها وحولها الوصيفات يساعدنها على ذلك، وهي تنظر في المرآة تراقب حسنها الواضح وتُهذب حالها..

حتى إذا دخلت أليفا وقفت جانبًا، وقد عقدت يديها منتظرة فراغ الملكة مما هي فيه، ولكن الملكة لاحظتها ولاحظت وجومها فصفقت للجواري والوصيفات، وأمرتهن بالخروج من الغرفة وقالت: أليفا لمَ أنتِ هنا؟

تحركت أليفا صوبها وهوت على يديها تقبلها وهي تقول: أدركي فلورندا يا سيدتي.

أجيلونا: فلورندا ابنة يوليان!

أليفا: أجل يا سيدتي.. فليس لها في هذه البلاد غيركِ.

نهضت أجيلونا وقالت: ما بها؟

أليفا باكية: لقد تبدل حالها بعد أن أصابها مرض لعين لا أحد يعرف ماهيته! حتى إن طبيب الملك قد أخبرنا أنها لن تتحدث أبدًا بعد أن فقدت القدرة على الكلام، وأنه لن يطول بها المقام في هذه الدنيا، فهي هالكة لا محالة.. ثم أجهشت في البكاء.

أجيلونا: وهل أرسل لُذرِيق لها طبيبه؟

أليفا: أجل يا سيدتي.. وقد كان منه ما أخبرتكِ به.

أجيلونا: إني لأتذكر تلك الفتاة وكيف كانت وردة يانعة.

أليفا: لو رأيتِها الآن لأنكرتِها.. ثُمَّ هوت على يدها تقبلها وتستعطفها مرة أخرى وتقول: لقد كان الهدف من مقام سيدتي فلورندا هنا أن تتعلم وتتأدب بآداب الملوك حتى تتزوج من أبنائهم، أما وقد رغبت سيدتي عن الحياة، وصار الموت والشقاء رفيقها فلا فائدة من جلوسها هنا يا سيدتي فلا نضاعف لها العذاب بمكوثها بعيدًا عن والدها، فلو تحدثتِ يا سيدتي إلى الملك؛ عله يسمح لنا بالعبور إلى سَبتة.

أجيلونا: لن يعترض لُذرِيق على ذلك فطيبي خاطرًا.

أليفا تستدركها: ربما يريد الملك ألا يرسلها حتى يُتم شفاؤها يا سيدتي ولهذا قد يعترض، ولكن صدقيني فحالتها تنتقل من سيىء إلى أسوأ فأرجوكِ يا سيدتي..

أرجوك أن تُلحي على الملك في ذلك.

أشفقت أجيلونا عليها وهي تنظر إلى دموعها المنهمرة على وجهها، ثُمَّ قالت: تعالي معي، وتحركتا حتى وصلتا إلى غرفة فلورندا التي كانت جالسةً على سريرها خائفة ترتجف، وما أن رأتها الملكة حتى تحدثت إليها ولكنها لم تجب، فوقع في قلب أجيلونا أن أليفا صادقة لا سيما أنها رأت ذلك بعينها.

وفي المساء.. وبينما لُذرِيق جالس في عرشه دخلت عليه الملكة، وهي بكامل زينتها وحليها، وكانت لا تدخل إيوان العرش إلا نادرًا، فوقف لها وأجلسها بجانبه وقال وهو يشم عطرها الذي ملأ الإيوان: لقد انتعشت روحي برؤيتك هنا بعد عمل يوم شاق.

أجيلونا: لقد اشتقت إليك فلم أستطع الانتظار حتى دخول الليل.

أمسك لُذرِيق يديها وراح يقبلها وهو يقول: وأنا أيضًا اشتقت إليك يا حبيبتي.

نهضت مبتسمة وملأت كأسًا من الخمر وناولته إياه فأمسك بها وتجرعها دفعة واحدة قبل أن تقول: هل لي بطلب عند جلالة الملك؟

لُذرِيق: لك كل ما تشائين يا حبيبتي.

أجيلونا: ابنة يوليان.

ارتبك لُذرِيق وذهبت تلك الابتسامة من وجهه بعد أن شعر للحظات أنها قد عرفت فعلته فقال بصوت تشوبه رجفة: ما بها؟

بدا التأثر عليها وهي تقول: الفتاة مريضة يا مولاي، وقد علمتُ أنها تصارع الموت وأن لا فائدة تُرتجى من بقائها هنا «بطُلَيْطِلَة» بعيدة عن أبيها، فلماذا نحرمها من الموت بين يديه؟ فقد زرتها اليوم وراعني ما شاهدته لقد ذبلت، وانقطعت عن الكلام.

لُذرِيق: لو طلب غير هذا.

وقفت أجيلونا وقالت: لا طلب لي غير ذلك.

لاحظ لُذرِيق ما حل بالملكة من ضيق وعرف أن بقاء فلورندا بعد طلب الملكة سيثير الكثير من الشكوك حول الجدوى من بقاء فتاة مريضة في بلاط طُلَيْطِلَة، كما أدرك أن الملكة تستطيع مراسلة يوليان ووقتها لن يقدر على منعها عنه إن هو طلبها، فما كان منه إلا أن تصنع ابتسامة وقال: لك ما تطلبين يا أجيلونا.

ابتسمت وعادت للجلوس بجواره، وقد ذهبت بهجته وشرد بذهنه يفكر في أمر «فلورندا» مرة أخرى وكأنها لعنة عليه لن ينتهي منها.

وما أن انبلج صباح اليوم التالي حتى أرسل لها الطبيب «يعقوب»؛ ليعودها ويخبره بحالتها، فرجع إليه وأخبره باقتراب هلاك الفتاة، فلم ير لُذرِيق بأسًا في عودتها، وبخاصة أنها لن تستطيع ذكر ما كان منه لأبيها بل أراد أن يستغل صمتها ويوغل قلب «يوليان» على «سيزبوت» فأرسل له مَن يخبره بوجوب القدوم إلى طُلَيْطِلَة في أمر مهم، ولم يمر الكثير من الوقت حتى كان يوليان يقف بين يديه وقد توجس وأخذت منه الظنون مأخذها، وتقمص لُذرِيق الدور جيدًا وراح يتصنع أنه لا يستطيع الحديث فقال له يوليان: يكاد عقلي أن ينفجر يا مولاي فهلا أخبرتني بمَ حدث لفورندا؟

لُذرِيق: وقد تصنع الحزن والألم: لقد أغواها سيزبوت فوقعت في الخطيئة.

يوليان مذهولًا: خطيئة! أي خطيئة تتحدث عنها جلالتكم؟!

لُذرِيق: عليك أولًا أن تعالج الفتاة، وبعد ذلك سأمكنك من سيزبوت فافعل فيه ما تشاء.

يوليان: كيف فعل ذلك؟ وكيف وصل إلى القصر؟!

لُذرِيق: لا نعلم حقيقة الأمر ولكن على الأرجح أن الملعونة أليفا ساهمت في ذلك وسهلت من مهمة سيزبوت. (وكان يريد بذلك أن يوغل صدر يوليان على أليفا ويضعها في موضع الاتهام حتى لا يستمع لها، أو ربما يقتلها فيضمن لُذرِيق بذلك صمتها إلى الأبد، فهي الشاهدة الوحيدة على جريمته).

وقع الخبر على مسامع يوليان كالصاعقة فلم يدر ماذا يفعل أو يقول؟! وعض على أسنانه بقوة وتخيل نفسه للحظات يطيح بسيفه رأس سيزبوت الذي دنس شرف ابنته وقال: الحقير الدنيء لأقتلنه شر قتلة.

لُذرِيق: اهتم بالعزيزة فلورندا قبل أي شيء، وبعدها فكر في الانتقام.

يوليان: لن يهدأ لي بال أو أهنأ بنوم قبل أن أريق دمه، فلتسمح لي يا مولاي بأن آخذ ابنتي وأعود بها إلى سَبتة.

أشار له لُذرِيق بيده فانصرف وقلبه منفطر على ابنته فهو يعرف عفتها جيدًا ودينها فكيف لها أن تقع في الخطيئة؟!

وما أن دخل على ابنته حتى وجدها في حالة يرثى لها وقد تحولت إلى بقايا إنسان، والأعجب أنها لم تتحرك صوبه بل ظلت على حالها، تنازعت مشاعره فلا يدري أيهرول صوبها يحتضنها؟ أم يقسو عليها ويضربها؟ فلزم مكانه برهة من الزمن وهو يتمنى لو مات قبل هذا، وأليفا تنظر إليه وتشفق عليه، ولما غلبت عليه رحمة الأب تقدم

صوبها، وحاول أن يتحدَّثَ معها، ولكنها لم تجبه ولم تلتفت إليه، ولما بالغ في المحاولة ظلت صامتة لا تتحدث أبدًا.

❀❀✽❀❀

(5)

البَرِيء

جلس «سيزبوت» في حديقة قصره بطُلَيْطِلَة وقد تزاحمت الأفكار في مخيلته فبدا شارد الذهن منعزلًا عما يدور حوله مستقلًا بنفسه يفكر ولا يتكلم، وكأن الصمت قد أصبح لغته ورفيق دربه... أسئلة كثيرة كانت تدور في رأسه وأحداث جسيمة (كيف استلب لُذرِيق المُلك منه؟ وكيف مات الملك غَيطَّشة غاضبًا عليه؟ ثُمَّ استخفاف لُذرِيق به وتحقيره له... كيف سلبه حبيبته ومنعها منه ومنعه عنها؟ وكيف أنه صار لا شيء وأصبح عاجزًا مقهورًا؟ حتى قصر أبيه لم يعد يدخله إلا زائرًا بعد أخذ الإذن من لُذرِيق)

وهكذا تمكن منه شعور العجز عن فعل أي شيء، وأكثر ما ألم به هو أمر فلورندا وكيف هان عليها فتركته بدون كلمة وداع؟!

أجل لقد فقد الملك والسلطان ولكن فقدان القلب أعظم؛ فقد كان يعول عليها أن تكون هي مملكته الوحيدة بعد فقدانه مملكة القوط... آه يا فلورندا كيف هان عليكِ قلبي أن تكسريه وحبي أن تنسيه وروحي أن تنزعيها؟ فأكون جسدًا بلا روح!... ثُمَّ وضع وجهه بين كفيه فتكاثف الصمت والظلام عليه، حتى إذا مر بعض الوقت وجد يدًا تتحسس كتفه وتربت عليه، مسح دموعه ونظر إلى الواقف بجانبه فإذا هو الأب أوباس، انتعشت روحه قليلًا؛ فقد كان «الأب أوباس» معالج الروح بالنسبة له، صديقًا وأخًا وعمًا وكاتمًا سره ومعلمًا في ذات الوقت..

انتصب سيزبوت واحتضن عمه بقوة ثُمَّ هوى على يده يقبلها، وبعدها جلسا في الحديقة ونظر أوباس إليه فتبين له الدمع في عينيه والانقباض في أساريره فقال له: ما لي أراك هكذا مهزوم النفس خائر الإرادة؟

لم يتمالك سيزبوت نفسه؛ فأرسل دموعه بين يدي عمه وكأنه كان ينتظر من يحنو عليه بعد أن فقد في هذه الدنيا كل من يحب قبل أن يجيب بقوله: لا تسألني عن شيء إلا وأنت أخبر به مني.

أوباس: إن كنت تقصد اللعين لُذرِيق فهذا أمر قديم، وقد رأيتك غير مرة بعدها فكنت أفضل حال مما أنت عليه اليوم فاصدقني يا بن أخي.

تنهد سيزبوت قبل أن يقول: صدقت يا عماه وأمَّا ما جد فهو أني وقفت بين يدي ذلك الخسيس وقفة الخادم بين يد سيده فلم يهتم بي، بل احتقرني. ولما خرجت من

عنده رأيت رجال الحاشية لا يعبأون بمروري بعد أن كانوا زمن والدي يتسابقون لتقبيل يدي.

أوباس: وما الذي دعاك إلى وقوفك هذا الموقف؟ وعهدي بلُذرِيق أنه قلَّما يدعوك إليه!

سيزبوت: لم يدعُني يا عماه.

أوباس: فماذا إذًا؟

صمت سيزبوت ولم يتحدث واكتفى أن وضع رأسه بين يديه.

أوباس: أهي فلورندا؟

رفع سيزبوت وجهه بعد أن انتفض لسماع اسمها فثارت شجونه وزاغت عيناه.

أوباس: إذًا ما قد سمعته كان صحيحًا؟!

أومأ سيزبوت برأسه وقد تخيل أن عمه علم برفضها له وقال: أجل يا عماه.

وقف أوباس وقال بلهجة حادة: ويحك! كيف تفعل؟

تعجب سيزبوت من حديث عمه فنظر إليه والدموع تكاد أن تحجب رؤيته وقال: ما بك يا عماه؟! وماذا تقول؟

أوباس منفعلًا: كيف تنتهك عرض فتاة بريئة أحبتك، فلم ترأف بها وصرت عونًا للشيطان عليها؛ فدنست شرفها، وجلبت العار لها ولأبيها.

سيزبوت مشدوهًا: ماذا تقول يا عماه؟

أوباس: أنت تفعل ذلك يا سيزبوت.. أنت؟ وأنا من كنت أظن الخير بك.

سيزبوت: من قال لك ذلك؟! أقسم أنني لم أفعل ولم أرها منذ وفاة والدي.. أقسم لك يا عماه....

أوباس: فمن فعل غيرك؟

سيزبوت: لا أدري.. ولا أعلم شيئًا مما تقول كيف أفعل ذلك بمن أحببت؟ أقسم لك يا عماه..

وراح يقسم لعمه الغاضب عليه، وقد كان أوباس يعلم صدق ابن أخيه وأنه طاهر النفس نقي القلب، فتوقف للحظات وهو يسمع محاولاته في نفي التهمة عن نفسه، قبل أن ينهض ويقول: سأذهب إلى سَبتة يجب أن أعرف الحقيقة!

سيزبوت: أي حقيقة تلك؟ وهل أصاب فلورندا مكروه؟ إذًا خذني معك.

أوباس: لقد اعتدى أحدهم عليها ودنس شرفها، وانتشر بين الناس أنك من فعلت ذلك حتى وصل الخبر إليَّ في «إشبيلية» وظننت أنه قد وصل إليك إلا أنك قد عزلت نفسك خلف جدار أسود، فلم تعد ترى ما يحاك لك، فإن كنت صادقًا فهناك من يريد هلاكك بهذه الفرية.

فتح سيزبوت عينيه بقوة وهو لا يكاد يصدق ما يحدث ولم يدر ماذا يقول؟ فصمت للحظات قال بعدها: يجب أن أرى فلورندا وأطمئن عليها بنفسي وأنفي تلك التهمة عني.

أوباس: حذارِ أن تطأ قدماك سَبتة أو نواحيها؛ فالكونت يوليان قد أقسم على قتلك جزاء ما فعلت.

سيزبوت: إذًا ألتقيه لأبرئ نفسي.

أوباس: لن يسمعك، فالغاضب لا عقل له ولا أذن.

سيزبوت: فما أنا فاعل؟

أوباس: يجب أن تتحدث فلورندا، فدون حديثها ستظل أنت صاحب تلك الجريمة!

❀❀✤❀❀

(6)

إلى متى؟

أشرقت الشمس وألقت بخيوطها الذهبية على خيام المسلمين حول أسوار مدينة سَبتة العتيقة، لتعلن لهم أن حصار المدينة المنيعة قد زاد يومًا آخر، وفي إحدى الخيام جلس «طارق بن زياد» ووضع سيفه بين يديه وأخذ حجرًا وراح يسن به ولكن ببُطْءٍ شديد فبدا كأنه يفكر في شيء ما حتى إذا دخل عليه صديقه «ماتيه» ولاحظ ذلك قال: يكفي يا رجل لقد كدت أن تفسده.

نظر طارق إلى السيف فإذ هو يلمع من شدة السن فوضعه بجانبه بينما جلس ماتيه بجواره وقال: ايــهٍ يا بن زياد.. لقد طال الوقت وأخشى أن يمل الجند، ولا أرى سبيلًا لأخذ هذه المدينة إلا بقطع ما بينها وبين القوط؛ فالأسوار عالية وحراس يوليان على أهُبة الاستعداد دومًا فلا يكاد يقترب أحد منا إلا ويطلقون عليه المزيد من السهام.

طارق: أعلم ذلك وهذا ما يؤرقني، ثُمَّ نهض من مكانه وخرج من الخيمة وراح ينظر للسور وقال: يجب أن نجد طريقة أخرى لاقتحام تلك الأسوار، أمَّا قطع ما بين سَبتة ومملكة القوط فيصعب علينا الآن؛ إذ لا نملك السفن اللازمة لذلك ناهيك بسفن القوط المتأهبة للدفاع عن المدينة.

ماتيه: فلنرفع الحصار إذًا.

طارق: والله، لا أبرح هذا المكان إلا أن يفتح الله لي أو أنال الشهادة؛ فلا يقول القوط عجز المسلمون فيستقوون بانسحابنا، ويظنون بنا الضعف، لا يا ماتيه فوالله، لو كانوا في السماء فلأصعدن لهم ولو كانوا تحت الأرض لحفرت لهم، وعسى الله أن يجعل بعد ذلك أمرًا، فلا تخاطبني في فك الحصار مرة أخرى، ولا يتسربن ذلك إلى الجند فتخور نفوسهم، وتوهن قلوبهم، وتضعف عزائمهم.

ماتيه: لا والله، لا أقول ذلك إلا لك، ولا أراجعك فيه مرة أخرى.

❀❀✽❀❀

وكعادة والي إفريقية «موسى بن نصير» فقد كان يتابع كل ما يجري فيها من كثب، ويعلم صعوبة أخذ «سَبتة» بالحصار ما لم تحاصر المدينة من البحر، وفي أحد الأيام وبينما يجلس في قصره بمدينة «القيروان» إذ دخل عليه أولاد «عقبة بن نافع»، وهم ما يزالون على بغضهم للبربر، فلم ينسوا يومًا أن أباهم كان قتيلهم، ولم يتذكروا للبربر

أنهم صاروا مسلمين مثلهم، وهكذا بعض النفوس لا تتبدل ولا تتغير مهما تبدلت الظروف من حولها، فهم لا يتطورون مع تطور الزمن فينقرضون أو يهلكون، وإن موسى يعرف ذلك منهم، ولكنه كان يأمل في أن تتبدل أحوالهم وتنضبط أمورهم..

تحدث عثمان: لقد فتح الأمير كل معاقل الروم والقوط ودوخ البربر في كل مكان، ما عدا ثغر سَبتة فإلى متى يستمر هذا الأمر؟

موسى: أي أمر تقصد يا بن عقبة؟

عثمان: وجود طارق بن زياد على رأس الجيش المحاصر، إذ كيف لرجل من البربر أن يحاصر قومه؟

موسى: ما زلت تشكك في طارق يا عثمان وفي ولائه لنا، بل ما زلت تشكك في إسلامه رغم كل ما قدم، أين أنت من قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فلا يحملنك بغضك لقوم على ألا تعدل في حكمك فيهم، فتجور عليهم من أجل ما بينك وبينهم من العداوة ثُمَّ من قال أن طارق منهم؟ من قال ذلك يا عثمان؟ لقد صار منا منذ إسلامه، أمَّا وجوده على رأس الجيش فلأنه الأفضل لهذه المهمة.. ثُمَّ نظر إلى عبد العزيز الذي قال: والله يا أميرنا ما وجدنا يقظة مثل يقظة طارق وقد أحسن الأمير إذ جعله على رأس الجيش.

عياض: حقًا عليك يا عبد العزيز أن تقول ذلك!

عبد العزيز: ولو كان أحد غير أبي لقلت مثل ذلك، فليس مثل طارق من يجهله الرجال وانظر يا بن عقبة ستجد أن حسان بن النعمان قد أوصى به خيرًا فهل فعل ذلك محاباة للبربر أم لأنه وجد في طارق ما لم يجده في غيره؟

❀❀✽❀❀

(7)

معرفة الحقيقة

كانت الشمس تميل للغروب عندما رست سفينة قادمة من جنوب إيْبيرِيَّة على شواطئ مدينة «سَبتة»..

نزل أحد البحارة وربط جمل السفينة بالشاطئ، ثُمَّ وضع لوحًا خشبيًا كبيرًا ربط بين السفينة والشاطئ؛ ليبدأ بعدها النزول من السفينة يتقدمهم «الأب أوباس» الذي قدم خصِّيصَى لملاقاة «الكونت يوليان».

بوقار بالغ تحرك الأب أوباس حتى وصل إلى قصر يوليان الذي ما إن علم بقدومه حتى هب لاستقباله، وقد كان أوباس يثير بلطفه وأناته وحلمه حب الجميع له، حتى يوليان يجله ويوقره.

احتضنه يوليان ثُمَّ اصطحبه حتى أجلسه بجواره في قاعة القصر، وقال: لماذا لم يخبرنا قداستكم لنكون في شرف استقبالكم؟

أوباس: تعلم أنني لا أحب التكلف والمظاهر الخادعة أيها الكونت، ولست أنا ممن يبحث عن الدنيا ليتفاخر فيها.

يوليان: وهذا مما يثير إعجابي أيها الأب، ويزيد في محبتي لقداستكم.

أوباس: هو شعور متبادل أيها الكونت، وإلا ما تعنيت القدوم إليكم.

يوليان: لقد شرفتني بتلك الزيارة، ورغم ذلك فإني أتعجبها إذ لم تفعلها منذ سنوات!

صمت أوباس قليلًا قبل أن يقول: هلا أخليتني بنفسك أيها الكونت.

أشار يوليان إلى حراسه فخرجوا جميعًا، ثُمَّ نظر إليه متعجبًا ومستفهمًا فقال أوباس: خبر سمعته عن فلورندا وأريد أن أستوثق منه.

ظهرت علامات الحزن ممزوجة بالغضب على وجه يوليان ثُمَّ صمت قليلًا وكأنه لا يعلم ما يقول ثُمَّ قال: لقد صارت ابنتي حديث إيْبيرِيَّة كلها، فكيف تهنأ لي الحياة بعد ذلك أيها الأب؟ كيف! بينما ابنتي التي أفنيت حياتي في تأديبها يحدث معها الذي حدث؟

ثُمَّ ارتفع صوته أكثر وازداد انفعاله: ابنة يوليان، زهرة الجزيرة كلها ومضرب الأمثال في العفة والطهارة يعتدي عليها مجرم صفيق مستهتر في غفلة من أبيها! أبوها الذي أرسلها وقد ظن أنها في مأمن هناك، فإذا بمجرم ظن أنه ناج بفعلته تلك يفعل ما فعل.

أوباس: هدِّئْ من رَوْعِك قليلًا يا يوليان.

يوليان: كيف أهدأ بعد الذي سمعت، وأنا الذي جنيت عليها بيدي؟

أوباس: أنت لم تفعل شيئًا، ولم تجن على أحد فلا تقتلن نفسك، فما هي إلا عادات وتقاليد قديمة متبعة.

يوليان: لا أيها الأب لن أقتل نفسي حسرة وكمدًا، ولكنى سأقتل من قتل ابنتي وطعنها في عرضها.

أوباس: ما زلت أقول لك هدِّئْ من رَوْعِك.

يوليان: أنا أحترم قداستكم، فلا يضطرني دفاعك عن الجاني إلى الندم.

أوباس: أنا أخاطب عقلك يا يوليان، ألا ترى أن هناك أمرًا عجيبًا قد حدث؟ ألم تسأل نفسك كيف سولت لسيزبوت نفسه أن يفعل ما فعل؟ أقصد أنه لم يقدم على ذلك الفعل الدنيء وهو ولي للعرش وابن للملك، فكيف يفعل ذلك بعد أن فقد كل شيء وفقد معه من كان يمكن أن يحميه من عواقب جريمته؟

يوليان وقد ضاقت نفسه: لا أكاد أتخيل أن قداسة الأب أوباس الذي تحبه كل الجزيرة يدافع عن ذئب معتدٍ قد نسي كل العهود والمواثيق، ودنس شرف فتاة بريئة طاهرة ليتسبب لها في كل هذه المعاناة وهذا الألم!

أوباس: من قال أني أدافع عن سيزبوت؟ أنا فقط أفكر في الأمر، وما دامت فلورندا لم تتحدث يظل الاجتهاد فرضًا علينا، فلا يجب أن نسلم آذاننا وعقولنا للص كلُذرِيق.

يوليان: لا تحاول أيها الأب، فلُذرِيق عندي خير من ابن أخيك.

وقف أوباس وقال بعد أن يئس من حديث يوليان: إذًا اسمح لي أن أزور العزيزة فلورندا.

هز يوليان رأسه وقال: لم تتفوه ولو بكلمة مذ عادت من طُلَيْطِلَة، ومذ شفيت من جراحها بعد أن حاولت قتل نفسها.

أوباس: دعني أحاول يا يوليان، فأنت تعلم جيدًا أنها تثق بي وتنصت إليَّ.

يوليان: لا بأس أيها الأب، وإن كنت على يقين بأنها لن تتحدث ولكن.....

أوباس: ولكن لنحاول علنا نجد الحقيقة.

ضرب يوليان بيده على فخذه قائلًا: لنحاول. ثُمَّ نهضا وتحركا معًا حتى إذا وصلا إلى غرفتها طرق والدها الباب طرقًا خفيفًا، وانتظرا ومرت لحظات قبل أن تفتح لهما الخادمة الجديدة لفلورندا بعد أن أبعد يوليان «أليفا» عنها وسجنها في أحد أروقة القلعة.

دخل يوليان أولًا ثُمَّ تبعه الأب أوباس فلم تعبأ فلورندا بدخولهما وظلت على ما هي عليه من صمت وسكون.

يوليان: ها هي أمامك وردة ذابلة وبقايا إنسان، لم تتحدث ولو بكلمة مذ وصلت، وما رأيت في وجهها غير الدموع، والحسرة، والندم.

جلس أوباس بجوارها ثُمَّ نظر إليه وقال له: هل لك أيها الكونت أن تتركني وفلورندا؟ فإن لي حديثًا معها لا أريد لغيرها أن يسمعه ولو كان أباها.

رفع يوليان يده وقال: كما تحب أيها الأب، ثُمَّ هم بالخروج، فقال له أوباس: ولتخرج الخادمة أيضًا ثُمَّ التفت إلى فلورندا وقال مبتسمًا: أريد أن أجلس مع هذا الملاك بمفردي.

خرج يوليان وخلفه الخادمة من الغرفة ثُمَّ أوصدوا الباب.. فنظر أوباس إلى فلورندا فوجد في عيونها حزنًا عميقًا، وجرحًا عظيمًا، ويأسًا كبيرًا، وكأن قيامتها قد قامت، فذهل مما رأى وحزن لذلك كثيرًا ولكنه لم يرد أن تلاحظ الحزن في عينيه أو حتى الشفقة عليها؛ فتجشم مشقة إخفاء مشاعره وأظهر لها ابتسامة تخفي خلفها الكثير من الألم وقال لها: كيف حال عزيزتي فلورندا؟ ظننت أنك لن تريني حتى تهرولي إليَّ كما اعتدت على ذلك.

لم ترد ولم ترفع حتى رأسها لتراه أو ترسل له برسالة من خلف جفونها (لقد كانت تؤدي دور الصامتة كي تلوذ بالهرب من قبضة لُذرِيق، ولا تعلم أن آلامها ستدفعها إلى الصمت ليبتلعها في غياباته مرة أخرى شاءت أم أبت؛ فلقد انْتَكَسَتْ حالتها مذ عودتها إلى سَبتة!) فاستطرد يقول: أنا أعرف فلورندا هذه الفتاة البريئة الطاهرة المؤمنة، التي كنت أحضر إلى هنا فتملأ الدنيا من حولي بهجة وسعادة وفرحًا.

نزلت دمعة كبيرة من عيونها وتدحرجت على خديها، فعرف أنها تسمعه جيدًا فأردف: أمَّا تلك الفتاة القانطة اليائسة فأنا لا أعرفها، ومهما بلغت الأسباب، ومهما سُدت الأبواب فما دام باب إيمانك مفتوحًا ولك سبيل إلى إلهك فلن تضيعي، فإن لك ربًا لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فقدرته فوق الأسباب، وفرجه يأتي من حيث لا

نحتسب، يجبر كسر المؤمنين، ويسد خلل المتوكلين، فلا يأس مع الإيمان، وإنما اليأس سمة من سمات الكافرين.

انتحبت فلورندا وزاد بكاؤها، وكأنه لمس جرحها بيده، فما أن سمع بكاءها حتى استطرد يقول: أعلم يا عزيزتي طهر نفسك، وأعلم أنك لم تخطئي يومًا.

رفعت عيونها ونظرت إليه فمد يده ومسح دموعها فقالت: لقد دُنس هذا الجسد وتلوث وما عاد يصلح لشيء، (وكانت تلك أول كلماتها منذ وصولها إلى سَبتة) وقد فرح أوباس بتلك الكلمات كثيرًا وعلم أنها ستتحدث له، وكان هدفه من حديثه معها أن يتبدل حالها وتعود إلى ما كانت عليه، فمهما كان ما حدث فلا يجب لنفس أن تموت هكذا. وهدفه الثاني تبرئة سيزبوت فانتظر حتى تبوح له بما لديها ولكنها عادت للصمت مرة أخرى فقال لها: تحدثي يا فلورندا تحدثي يا بُنيتي، اكسري هذا الطوق الذي يقيدك، وأزيلي عن صدرك ما به من ألم.

رفعت وجهها المبلل بدموعها وقالت بصوت متقطع: لن يكسر هذا الطوق سوى أن تفارق الروح هذا الجسد الملوث بالخطيئة.

أوباس: أنتِ لم تخطئي يا صغيرتي ولكنه سيزبوت.

تبدلت ملامح فلورندا وزاد انقباضها وقالت: سيزبوت!

أوباس: أجل سيزبوت، هو المُخْطئ ولن يفلت بجريمته تلك.

فلورندا: لكن سيزبوت لا علاقة له بما حدث.

أوباس: فمَن إذن؟

بكت ولاذت بالصمت فعاود أوباس حديثه ولكن بلهجة استنكار وقال: هل تكون فلورندا الطيبة الجميلة هي المخطئة؟

سمعت ذلك فعادت إلى صمتها، فقد كانت تخشى من غضبة لُذرِيق على والدها إن هي صرحت بالفاعل، إذ لا طاقة ليوليان على لُذرِيق، فآثرت الصمت حتى لا تعرض حياة أبيها للخطر، ولكن أوباس أراد أن ينهي الأمر فضغط عليها وراح يتحدث إليها مرة أخرى ويقول: إنك بصمتك هذا إنما تعرضين حياة سيزبوت للخطر، فهناك في طُلَيْطِلَة ملك مغتصب للعرش ينتظر هلاكه وهنا في سَبتة يمكث يوليان يريد الانتقام منه، فلا تكوني بصمتك هذا أيضًا عونًا عليه يا بُنيتي.

فلورندا: وأبي؟

أوباس: ليس يوليان بالرجل الضعيف فيُخشى عليه فتحدثي يا بنيتي واطمئني.

بكت مرة أخرى وقالت: لو علم لُذرِيق أني أخبرته لن يتردد في الكيد له، وربما يدبر عليه.

أوباس: ما علاقة لُذرِيق بما حدث لك؟

خفضت رأسها ولم تتحدث فسألها مندهشًا: أهو هو؟! أهو من فعل؟!

أجهشت في البكاء وراحت ذاكرتها لذلك اليوم المؤلم، فعلم أن لُذرِيق هو الفاعل ولكنه أراد أن تنطق بذلك، فقال لها: يجب أن يعلم يوليان بما حدث فمن يدري ما قد يصنعه لُذرِيق به، فحتى وإن لم تخبريه فبكل تأكيد سيظن لُذرِيق أنك فعلتِ فينقم على أبيك، ويدبر له تدبير الخائف منه، وسيظل أبوك عدوًا له ولو لم يعرف لُذرِيق بجهله بالأمر فتدبري أمرك ولا تظلمي من أحبك.

بعيون دامعة رفعت فلورندا وجهها وقالت: أجل فعل، هو من فعل بعد أن سقاني ذلك الدواء اللعين فغبت عن الوعي ولم أدر ما يُصنع بي.. نعم هو من فعل هذا الفعل الجبان الخسيس، وتسبب لي في كل هذا الألم والشقاء.. أجل أيها الأب الطاهر لقد سقوني ما أذهب عقلي ويقظتي، أقسم لك أن شيئًا لم يكن بيدي أو قدرتي.

تأثر أوباس بحديثها وبكائها فهو على يقين من صدقها، فاحتضنها وقال: لا بأس عليك يا بُنيتي.. لا بأس فالخطيئة ليست خطيئتك وإنما جريمته هو وعليه وحده وزرها.

❀❀✽❀❀

(8)

خطة الانتقام

كان الشفق الأحمر قد أطل من السماء عندما كانت سفينة كبيرة تنتظر على شواطئ سَبتة وفوقها بحارتها بينما على الشاطئ يتحدث «الكونت يوليان» إلى «الأب أوباس».

الكونت يوليان: كنت أتمنى أن يظل قداستكم معنا بضعة أيام أخر؛ فقد تحسنت حالة ابنتي واطمأنت لوجودك معنا.

أوباس: يجب أن أعود إلى إشبيلية حتى لا يثير غيابي فضول لُذرِيق فيتقصى عني ويسأل، أمَّا الحبيبة فلورندا فسوف أعودها مرة أخرى فلا تقلق.

يوليان: كما تحب أيها الأب.

تحرك أوباس بعد أن تبادل التحية معه ثُمَّ صعد على ظهر السفينة التي أبحرت في اتجاه إيْبيرِيَّة..

أمَّا يوليان فما أن عاد إلى القصر حتى جلس في إيوانه وهو لا يصدق ما حدث، حتى إنه راح يكلم نفسه ويقول بصوت مرتفع: أكاد أن أجن، لُذرِيق اللعين! كيف سولت له نفسه أن يفعل؟ كيف يغدر بفتاة ضعيفة لا حول لها ولا قوة؟! ثُمَّ صرخ قائلًا: ودين المسيح لأزيلنَّ ملكه وسلطانه ولأحفرنَّ تحت قدميه.

أثناء ذلك دخل الحارس وهو يقول: سيدي لقد وصلت هدايا من الملك لُذرِيق، وهي بُزَاةٌ وطيور وغيرها، كما أنه يرغب بالاطمئنان عليك وعلى أحوال سَبتة سيدي الكونت.

كتم يوليان غيظًا في نفسه وقد فطن أنه يريد التودد إليه ليصرف عن نفسه التهمة فقال أرسل إليه: سَبتة في مأمن، ولأوردنَّ عليك طيرًا لم تسمع قطُّ بمثلها! (قال ذلك وهو ينوي الغدر به).

ثُمَّ استدعى حارسًا آخر وقال له: أحضر لي القائد «تولجا» فورًا.. أومأ الحارس ثُمَّ خرج ليعود بعد قليل وخلفه القائد تولجا بزيه العسكري المميز، وما أن دخل حتى وضع يده على صدره وقال: سيدي.

نزل يوليان من على كرسيه وتحرك خطوات في اتجاهه وقال بلهجة صارمة: من الآن لا أريد أحدًا من رجال لُذرِيق على أرض سَبتة. وقبل أن يسأل تولجا عن السبب أعقب وقال: لا تسأل فقط نفذ ما أقول لك.

تولجا: أمرك سيدي.

يوليان: أريد أن يبدو الأمر طبيعيًا للغاية؛ فلا تدع جند لُذرِيق يشعرون بأي تغير فقط أخبرهم أن مهمتهم انتهت بعجز المسلمين عن مهاجمة الأسوار وقدرتنا على مجابهتهم، وحاجة الملك لهم في حربه ضد الخارجين عليه.

وهكذا قرر يوليان الانتقام منه، ولكن كيف لحاكم مدينة صغيرة محاصرة كسَبتة أن ينتقم لنفسه وابنته من ملك مملكة كبيرة كلُذرِيق؟ كان هذا هو السؤال المؤرق بالنسبة إليه، خصوصًا بعدما نظر للجنوب فوجد المسلمين محاصرين له ومنذ فترة كبيرة، فلو أعلن العصيان الآن عليه وفي هذا الوقت بالتحديد فأقل ما يفعله لُذرِيق هو قطع المؤنة عن سَبتة فيجعلها بذلك عرضة للهلاك والسقوط بيد المسلمين، ناهيك بمهاجمة لُذرِيق لسَبتة نفسها، وربما اعتقاله أو قتله هو وابنته وبذلك سيجلب هذا العداء الصريح كل الويلات عليه.. لذا فكر يوليان في الاستعانة بأولاد غَيطَّشة وكل الناقمين على لُذرِيق، ثُمَّ ينقلبون عليه ومن ثَمَّ ينتقم منه، ولكنه وجد صعوبة في هذا الأمر خاصة وأن لُذرِيق متنبه لهم ولكل خطواتهم وتحركاتهم كما أنه فقد أولاد غَيطَّشة الكثير من الأنصار بعد وفاة والدهم كما أن وجودهم في طُلَيْطِلَة يجعلهم رهن قبضته.

نجح تولجا في مهمته وقد نفذها خلال يومين ثم عاد يقول: سيدي الكونت لم يبق على أرض سَبتة إلا جندك بعد رحيل جند الملك لُذرِيق.

يوليان: اسمع يا تولجا من الآن راقب البحر كما تراقب البر جيدًا.

تولجا: هل ينوي سيدي الكونت الانفصال عن إيبيرية؟

يوليان: أجل.

تولجا: ولكن ذلك سيجعلنا لقمة سائغة في فم العرب!

يوليان: أعلم ذلك، وأحاول تدبر الأمر حتى لا نقع فريسة بين ذئبين.

وبينما يصمت تولجا استطرد يوليان وقال: قل لي ماذا تعرف عن العرب المسلمين؟

تولجا: هم الذين لا تصدأ سيوفهم أبدًا.

يوليان: لا أقصد حروبهم وشدة قتالهم ولكن أخلاقهم.

تولجا: ما علمنا عنهم إلا كل خير؛ فهم الموفون بعهودهم الملتزمون بكلمتهم.

يوليان مرددًا كلمات تولجا وكأنه وجد ضالته: الموفون بعهدهم، هل تيقنت من هذا؟

تولجا: نعم سيدي لقد اتسعت دولتهم شرقًا وغربًا، وكل يوم تهوي أفئدة فئام من الناس لهذا الدين فتزداد جموعهم، وقد راقبتهم من كثب خلال هذا الحصار فلاحظت

أن نظرة الجنود لقائدهم طارق تمتلئ ودًا وتقديرًا، أمَّا معسكرهم فتكتنفه إخوة لم أرَ مثلها، فلا تكاد تفرق بين جنديهم وقائدهم، إلا بسيره فيهم يبث الشجاعة والصبر على الجهاد، كما أنهم يصطحبون بينهم علماء الدين وأعتقد هذا من أسباب تخلقهم بهذه القيم يا سيدي، ولي ملاحظة تعجبت لها يا سيدي!

يوليان: ماذا؟! أكمل لا تخف عني شيئًا.

تولجا: لاحظت أنهم يعتنون بالطهارة والنظافة ويدأبون عليها، وليس من بينهم سكير.

نكأت كلماته جرحًا في قلب يوليان فحدث نفسه بأسى معجبًا مما قال: هنيئًا لهم قودهم زمام عقولهم، هذا العقل الذي سلبته الخمر من ملكنا فسلب هذا السكير شرف ابنتي.. ثم انتبه أنه شرد بذهنه فقال: اذهب الآن أنت يا تولجا وتابع عملك جيدًا.

تولجا: وماذا عن العرب يا سيدي؟

يوليان: لا تنم أنت وجندك عنهم، فيدخلوها علينا.

خرج تولجا وظل يوليان وحده يفكر في الأمر، وأخيرًا اهتدى إلى التعاون مع المسلمين المحاصرين له، وبخاصة بعد الذي عرفه عنهم، ولم يكن هذا الأمر سهلًا على يوليان القائد والأمير الذي حفظ سَبتة لسنوات طويلة فعجز عن دخولها وأخذها الروم والقوط والبربر، حتى المسلمون أنفسهم لم يقدروا عليها رغم طول الحصار، فيكف له الآن أن يخون دينه وبلده؟ كيف له أن يعطي مفتاح بلاده للغزاة؟

نهض يوليان من مكانه وتحرك في بهو القصر ثم توقف وقال محدثًا نفسه: أي خيانة تلك يا يوليان؟ وما هي الخيانة في نظرك؟ إن العرب والمسلمين هم دعاة عدل ورحمة، قوم يوفون بعهودهم ولا يرغمون أحدًا على دينه ولا يهتكون العرض ويحفظون المواثيق، فهل هم خير أم هذا اللُذرِيق اللعين الذي هتك العرض، وسفك الدماء، وأخذ ملك إيْبيرِيَّة بالخيانة والخداع؟ هل لُذرِيق خير للجزيرة أم المسلمون؟ ثم قال بعد أن عزم أمره: أجل يا يوليان، هناك عالم قديم متعفن يجب أن يجتث من أصوله وعالم جديد يحيا بالعدل يجب أن يسود ويحيا.

❀❀✽❀❀

(٩)

عرض العبور

بينما طارق بن زياد وجنوده متأهبون في معسكرهم، إذ فُتحت أبواب «سَبتة» لترفع رايات الرسل بيد فارس يمتطي حصانًا ويتقدم نحوهم في ثبات، وما أن خرج حتى أغلقت خلفه الأبواب، ووسط صهيل الخيل تقدم الفارس وهو يسأل الجنود أين أميركم؟

تقدم ماتيه من بينهم وقال: ماذا تريد؟

نزل الفارس من على صَهْوة جواده وتقدم صوب ماتيه وقال: أنا رسول من الأمير يوليان حاكم سَبتة أحمل رسالة منه إلى قائد الجند هنا.

ماتيه: رسالة!

الفارس: أجل يا سيدي.

ماتيه: إذًا تعالَ معي.

تحرك الفارس وسار خلفه حتى إذا وصلا إلى باب خيمة طارق طلب منه ماتيه أن ينزع سيفه وسلاحه وينتظر خارج الخيمة.. دخل ماتيه ليخبر طارق بأمر الرسول فتعجب الأخير وفكر برهة قبل أن يأذن للرسول بالدخول عليه.

وما أن دخل الرسول إلى الخيمة حتى انحنى أمام طارق الذي كان جالسًا بينما يقف ماتيه بجواره، ثم قال: رسالة من سيدي الكونت يوليان حاكم سَبتة يا سيدي.

مد طارق يده وأمسك الرسالة، وقرأ ما فيها قبل أن يقول للرسول: فلتنتظر بالخارج حتى تحمل الرد إلى سيدك.

أومأ الرسول برأسه ثم خرج بينما قال ماتيه: ما الأمر يا طارق؟

طارق: إنه يريد لقائي.

ماتيه بدهشة: تقصد يوليان!

طارق: أجل.

ماتيه: بعد كل هذا الحصار؟!

شرد طارق بفكره قليلًا وقال مرددًا: بعد كل هذا الحصار.

ماتيه: وهل ستجيبه إلى ما طلب؟

طارق: أجل إن كان في ذلك خير للمسلمين، ثم خرج للرسول وقال له: أخبر سيدك وقل له إن كان يريد لقاء طارق بن زياد فطارق يرحب به.

الرسول: هنا يا سيدي بين جنودك؟!

طارق: أجل هنا.

الرسول: ألا يكون اللقاء عند البحر أو قريبًا من السور بين معسكرنا ومعسكركم؟

طارق: كما ذكرت لك، والآن امض راشدًا.

الرسول: أمرك سيدي، قال ذلك ثم امتطى صَهْوة جواده وتحرك مثيرًا بحركته الرمال..

نظر ماتيه إلى طارق وقال: أتراه يأتي إلى معسكرنا؟

طارق: إن كان يريد خيرًا سيأتي.

❀❀✤❀❀

وسط صهيل الخيول ودبدبة أرجل الخيل وجنود المسلمين المنتشرين حول أسوار سَبتة، تحرك الكونت يوليان بمفرده صوب خيمة طارق بن زياد، حتى إذا ما وصل إليها وجد أحد الجند فقال له: أخبر سيدك أني في انتظاره.

نظر الجندي إليه قال: من أنت؟

يوليان: فقط أخبره أن حاكم سَبتة أمام خيمته.

الجندي: فلتقف مكانك.

وقف الكونت يوليان ينتظر بينما دخل الجندي للخيمة وقال باستنكار: رجل من أهل سَبتة يريد لقاءك يا سيدي.

طارق: ألم يذكر لك من هو؟

الجندي: يزعم أنه حاكم سَبتة يا سيدي.

طارق: حاكم سَبتة!

ماتيه: هل أخرج له.. فأعلم ماهيته؟

طارق: بل أخرج له أنا.

وما أن خرج طارق حتى ابتدره يوليان وقال: ها قد جئتُ إليك وبمفردي كما أردت يا طارق.

طارق مُرَحِبًا: زيارة كريمة من رجل كريم، ثم رفع ذراعه وقال: تفضل لنجلس داخل الخيمة.

يوليان: بل خارجها في الهواء الطلق.

طارق: كما تحب أيها الكونت.

ثم تحركا معًا وسارا بين جند المسلمين حتى وصلا إلى شاطئ البحر وهما يتحدثان بينما وقف ماتيه يراقب من بعيد.

يوليان: قل لي لماذا أسلمت يا طارق؟

طارق مبتسمًا ووجهه يشع نورًا: اخترت أن أولد من جديد في كنف عالم يولد من جديد على يد هذا الدين العظيم والذي جاء رسالة للعالمين.

يوليان: رسالة إلى العالم كله؟

طارق: أجل للعالم كله، دين فيه نضارة وطهارة الطفل حين يولد، دين يحق الحق ويرفع الظلم، ويساوي بين البشر، ويقدر العقل ويضعه موضعه فليس في شريعة الإسلام ما يخالف العقول أو يسفهها، وإنما فيه ما تشهد العقول الذكية بصدقه ونفعه وصلاحه، وكذلك أوامره ونواهيه عدل كلها لا ظلم فيها، فما أمر بشيء إلا وهو خير أو راجح، وما نهى إلا عن الشر الخالص، أو الذي مفسدته تزيد على مصلحته.

يوليان: كنتُ أنتظر أن أسمع صدق قولك فبينما يولد عالمك هنا -يشير تحت قدميه- إذ هناك خلف هذا البحر عالم آخر يتهاوى، عالم متعفن يجب أن يتقوض، ويزال من جذوره، هناك حيث الظلم والجهل، حيث تنتهك العفة، وتقتل البراءة، وتنتشر الفوضى، ويموت الضعيف فلا منقذ له، ويسود القوي فلا رادع له.

طارق: الروم وما هم فيه؟!

يوليان: والقوط وما هم فيه، في ظل ملك فاسد فاجر أسلم نفسه لشهواته، فلم يرع حرمة شعبه كما أن هناك في القسطنطينية يجلس قيصر عجوز على مملكة متهالكة.

طارق: مع من أنت إذًا؟ أم تريد أن تنضم لديننا؟

يوليان: أنا لن أنضم لدينك يا طارق، ولا أريد أن أولد من جديد، ولكن أريد أن أساعد في تقويض هذا العالم المتعفن وما فيه.

طارق: ولكن سَبتة تابعة للقوط!

يوليان: وكانت تابعة للروم من قبل، ولكنها مستقلة على الحقيقة.

طارق: فماذا تريد أيها الكونت؟

يوليان: أريد أن أساهم في هدم هذا العالم القديم.. ثم صمت برهة قال بعدها: أما حلمت يومًا يا طارق بعبور هذا البحر؟

أخذ طارق نفسًا عميقًا ثم نظر إلى الشاطئ الآخر من البحر قبل أن يرتد ببصره صوب يوليان ويقول: هذا البحر! هذا البحر أحلم بعبوره مذ كنتُ صغيرًا، مذ عرفتُ أنهم يعبرون إلينا ليختطفوا أطفالنا ونساءنا، مذ علمت أنهم ينتهبون أموالنا ويحقرون من شأننا.

يوليان: هذا قبل أن تدخلوا هذا الدين؟

طارق: أجل، عندما كنا أمة بلا دين، قبائل متناحرة متقاتلة.

يوليان: إذًا فأنا أدعوك لعبور هذا البحر يا طارق بدينك الجديد.

طارق: إلى إيْبيرِيَّة؟

يوليان: أجل يا طارق، فقد حان الوقت لأمة القوط أن تتقوض في ظل ملك أرعن يتعامل كلص لا ملك.

طارق: عذرًا.. ولكن هل ستخون قومك أيها الكونت؟

يوليان: هؤلاء ليسوا قومي وقد قلت لك أنا ملك سَبتة وحسب، أمَّا الخيانة فلا وجود لها في حياتي، ولو أنصفت لقلت أنني بدعوتي تلك إنما أنا حريص على تلك البلاد وأهلها وشعبها، وإلا فمن غيركم الآن قادر على إزاحة ملك فاسد كلُذرِيق، ولو لم تتدخلوا يا طارق فاعلم أن وزر القوط عليك، فأين دينك وعالميته مما تقول؟ إن وقفت هنا موقف المتفرج وتركت الدود ينخر في جسد هذا العالم ولم تجرد سيفك لحمايته من بطش الفاسدين.

طارق متفحصًا لتعبيرات وجه لوليان: أتريد حقًا ذلك!

يوليان: أجل.. وإني لأعلم أن في دعوتي تلك من الخير للقوط الكثير.

طارق: فماذا عن تلك البلاد وجيوشها وامتداد أراضيها ووعورتها؟

يوليان: هذا شأنك وقائدك موسى يا طارق.

طارق: وإن كانت دعوتك حقًا، فما الذي يضمن لي صدقها؟ ما الذي يضمن لي أنها ليست مكيدة منك لفك هذا الحصار وضرب جيوشنا؟

يوليان: سأسلم لك سَبتة وسأدعك تضع حامية فيها، على أن تخرج تلك الحامية وتتركون لي سَبتة بمجرد تأكدكم من صدق دعوتي، على أن أحكمها بعد ذلك بعهد منكم ولا تجبروني وأهلها على دينكم.

طارق: نحن لا نجبر أحدًا أيها الكونت على ديننا، أمَّا حكم المدينة فلا أظن أن الأمير موسى يرغمك على ترك حكمها، وهو من جعل ابن الكاهنة يحكم «الأوراس» بعد دخولها حوزتنا فمن باب أولى أن يحكم الكونت يوليان سَبتة.

يوليان: ولكني أعلم أن للكاهنة ابنًا عربيًا تبنته بعدما أسرت منكم ثمانين رجلًا.. ألم يحدث ذلك؟

طارق: أجل.. كانت الكاهنة «ديهيا» عجوزًا قوية ذات شوكة ودهاء خلفت كسيلة في زعامة البربر وظنت أنها بذلك ستقف أمام المسلمين عندما هزمتهم في معركة حامية قرب نهر نيني وأخذت «خالد بن يزيد» وكان شريفًا شجاعًا وقالت له: ما رأيت في الرجال أجمل منك، ولا أشجع! وأنا أريد أن تكون أخًا لولديَّ، فلها ابنان تبنتهما أيضًا أحدهما بربري، والآخر يوناني فدعتهم لتناول دقيق الشعير الذي لَثَّته بزيت وقالت لهم إن هذا بمنزلة رضاع إن أكلتموه صرتم بذلك إخوة ونتوارث. ففعلوا.

يوليان: وهل أصبح خالد تابعًا لها أم ظل ولاؤه لكم؟!

طارق: لقد انقلب السحر على الساحر.. فقد أرسل «حسان بن النعمان» رسولًا على هيئة سائل فقير فما أن رآه خالد بن يزيد حتى علم أنه رسول ولكنه لم يتمكن من محادثته فقال له: رزقك الله، عد إليَّ..

يوليان معجبًا بالأمر: إن الحرب خدعة، ولا حرج على الرسول إن تنكر، ولكن كيف تحدث معه؟

طارق: لما عاد إليه انفرد به وأخذ منه الرسالة وإذ بحسان يسأله عن أحوالهم، فرد عليها وكتب في ظهرها يستحثه على القدوم «إن البربر متفرقون، لا نظام لهم ولا رأي عندهم، فاطو المراحل، وجد في السير». ووضعها في خبز وسلمها له.. ولما وصلت لحسان رحل بجنوده إلى «جبل أوراس» ودارت معركة كُتبت فيها نهاية الكاهنة واستراح البربر من عسفها وجورها وتخريبها.

يوليان بعد نفس عميق: أما وإني لأتمنى أن يستريح القوط من بطش لُذرِيق. ثم أردف: وأي ابن للكاهنة حكم بعدها أهو خالد؟

طارق: لا.. بل «يفران» لما علم البربر بقدوم حسان أقبلوا عليه يستغيثون به بعد أن ضاقوا من تعنت كاهنتهم، ودخل الإسلام جموع كبيرة منهم وصاروا معه يدًا واحدةً عليها.

يوليان: وما علاقة يفران بذلك؟

طارق: إن ابني الكاهنة «يفران ويزديكان» قد اعتنقا الإسلام عن حب واقتناع؛ لما رأيَاه من خالد خلال بقائه معهما في المملكة طيلة خمس سنوات فأعجبا بدماثة أخلاقه وجميل خصاله، وبساطة فطرته التي تتوافق مع فطرة البربر، لذا حسن إسلامهما وأصبحا فيما بعد من قادة الجيوش المسلمة بل إن حسان أعطى يفران حكم ولاية جبل الأوراس.

❀❀✤❀❀

الفصل الخامس

أدركنا يا لُذرِيق؛ فقد نزل علينا قوم لا نعلم من أهل الأرض هم أم من أهل السماء!

(1)

دمشق «عاصمة الخلافة الأموية»

ما أن سمع «موسى بن نصير» حديث طارق عن دعوة يوليان لهم لفتح إيْبيرِيَّة حتى هب واقفًا، وتحرك بهدوء صوب طارق الذي وقف بدوره وقال: رجل يدعونا لتسليم معقله وغزو بلاده، ومع ذلك فهو لا يريد أن يدخل ديننا أو أن يكون منا، إنه لأمر عجاب!

طارق: صدقت أيها الأمير ولولا سؤالي ومعرفتي بالكونت يوليان ما صدقته أبدًا، ولكن إن وضعنا في حساباتنا ما حدث لابنته لزال العجب وفهمنا مراده، فالرجل يا مولاي إنما يريد الانتقام لابنته التي دنس هذا الشقي شرفها، ولأنه يعلم باستحالة أن ينتقم منه وحده فقد لجأ إلينا، فدعوته إذن مسببة، ولعل تلك الحادثة جعلته يرى الأمور كما لم يرها من قبل، حيث رأى مملكته متهالكة يحكمها رجل ساقط وشعبها جاهل مغلوب على أمره، مملكة غاب عنها العدل فحل الظلم والخراب، ومثل هذه الممالك محكوم عليها بالفناء العاجل، كما أن يوليان رجل حكيم وإن لم يكن على ديننا لكنه رأى أننا نحمل الخير للبشر، وأننا غالبون أينما حللنا، وأن سيف عدالة الإسلام ماض لن يوقفه أحد، فأراد بذلك أن يكون جزءًا من عالم الغد ويساعد بنفسه في هدم ممالك الظلم.

عاد موسى إلى كرسيه قبل أن يقول: لقد أحسنت صنعًا يا طارق بطلبك منه ضمانات لهذا الاتفاق، فالقائد لا يأمن عدوه مهما قدم له المغريات، على أن هذا الأمر لا أملك قرارًا فيه بمفردي، فهذه بلاد عظيمة مجهولة يفصلنا عنها بحر كبير لذا؛ يجب علينا أن نرجع في هذا الأمر للخليفة.

طارق: لكن مسافات طويلة تفصلنا عنه أيها الأمير، والحاضر يرى ما لا يراه الغائب.

موسى: ورغم ذلك فلا بد من استشارته وطلب الإذن منه.

❀❀✽❀❀

في «دمشق»..

وصل رسول موسى بن نصير يحمل رسالته إلى الخليفة الشاب «الوليد بن عبد الملك» الذي كان مشغولًا ببناء مسجد بنى أمية، وكثيرًا ما يغيب عن قصره إذ يتابع أعمال

البناء بنفسه، فقد كان شغوفًا بالهندسة المعمارية فهو من وسع المسجد النبوي وشيد قبة الصخرة وزينها.

وقف الرسول في ساحة القصر أمام أبوابه منتظرًا الإذن بالحضور ليمثل بين يدي الخليفة، ومن حوله عدة رسل آخرون أتوا من كل أنحاء الدنيا، فدمشق كانت تعد مركز الكون كله ومنارة الدعوة والعلم والأدب، ومقصد القادة والعلماء، وموطن الحل والعقد، فمنها تخرج الجيوش والأوامر الخليفية لفتح البلاد، وتعيين الولاة أو إقالتهم، وبخاصة في زمن «الوليد» الذي كانت تتدافع فيه الفتوحات الإسلامية كتدافع أمواج البحر موجة في إثر موجة، يفتحون السند والهند حتى حدود الصين و يفتحون إفريقية بعد مصر حتى تصل جنودهم إلى بحر الظلمات في غرب الأرض ويصبح الفاصل بينهم وبين أوروبا هو «بحر الزقاق»، ويقرعون أبواب القسطنطينية غير مرة وتنتشر جيوشهم ظافرة في كل الميادين.

بعد فترة من الانتظار سُمح للرسول، فدخل وألقى عليه السلام، ثم أعطاه الرسالة.

فتحها الخليفة بيده وما أن طالعها حتى هب من مكانه وأكملها وقوفًا، وكأن ما فيها قد حرك دماءه ثم نظر إلى الرسول بتعجب يشوبه ريبة وقال: يريد فتح بلاد القوط!

الرسول: أجل يا أمير المؤمنين، فوالله إننا لنرى شاطئ تلك البلاد في اليوم الرائق.

الحجاج: ما الذي أثار أمير المؤمنين وجعل التعجب يظهر على وجهه؟! أليست جيوشك يا مولاي هي التي فتحت الأرض، فلم تعجب من طلب موسى فتح بلاد القوط وهي ليست بأمنع من غيرها؟

عاد الوليد للجلوس قبل أن يقول: لم نسمع من قبل عن أمير من أمراء تلك البلاد المفتوحة يدعونا لفتح بلاده يا بن يوسف، أمَّا هنا فيقول موسى أن حاكم مدينة سَبتة دعاه لذلك!

الحجاج وقد اعتراه الشك: ربما أراد أن يغرر بموسى!

الوليد: ليس موسى بالذي يُغرر به يا حجاج.. ثم نظر إلى الرسول وقال له: أخبرني عن بلاد المغرب وأحوالها.

الرسول: لقد دخل أهلها في دين الله أفواجًا، وصاروا لنا عضدًا وقوة يا أمير المؤمنين حتى اتخذ منهم موسى جندًا وحرسًا، فأخيرًا استقرت تلك البلاد وصار الإسلام فيها شمسًا لا تغيب.

الوليد: إذًا قل لموسى أن يختبر بلاد إيْبيرِيَّة قبل أن يخوضها بنفسه وبجيوش المسلمين ولا يُلقِ بالمسلمين في التهلكة وأهوال البحر حتى وإن كان الفاصل بين

العدوتين بحر صغير.

وكان هذا الموقف من الوليد دليلًا على حرصه على المسلمين، وأنه لا يروم لفتح البلاد بقدر ما يعنيه الحفاظ على الجند وأرواح العباد، وهكذا يكون الحاكم الرشيد.

❀❀✽❀❀

(2)

زيارةٌ سرِيَّةٌ

في الوقت الذي كان «موسى» منتظرًا لرد الخليفة ومنشغلًا بعد العدة وتجنيد الأجناد وتجهيز الفيالق، كان «طارق بن زياد» قد استقر به الحال في «طنجة» فأسس بيتًا، وتخير زوجة طيبة الأصل كريمة المعشر؛ تُعينه على ولايته لتلك المدينة العريقة التي تمتد في جذور التاريخ وقيل عنها الأساطير، فجاء هو ليضيف لها مزيدًا من الجمال بنور الإسلام وعظمة نهجه ونظامه؛ مما حدا بأهلها أن يفتخروا به ويساندوه قلبًا وقالبًا، وهَيّأوا له السبل كي تكون مركزًا لجيوش المسلمين فاستطاع بحنكته أن يضُمَّ المزيد من البربر المسلمين وخاصة من قبائل غمارة وبرغواطة إلى جنده، حتى بلغ عدد المرابطين منهم في «طنجة» وحدها عشرة آلاف كلهم تواقين إلى الجهاد في سبيل الله.

وهكذا أصبح معسكره محطة رئيسية لتجمع المسلمين الجدد، الأمر الذي تطلّب بناء مسجد فاختار مكانًا جميلًا يعدُ حصنًا طبيعيًا بين جبلين في سلسلة جبال الريف بمنطقة «الشرافات» وأسس به أول مسجد في المغرب الأقصى ساهم في نشر وتثبيت الإسلام بين قبائل البربر (وظل منبعًا معطاء لا ينضب من العلم، ومجمعًا للعلوم الدينية تخرج منه العديد من العلماء والوعاظ وما زال قائمًا حتى الآن).

سنوات قليلة تحول فيها البربر مِن عداوة ومقاومة الإسلام إلى نشره والدعوة إليه، ومن تبعيتهم للروم والقوط إلى غزو أرضهم ومعاقلهم، ومن خوفهم من البحر الذي كثيرًا ما حمل لهم الغزاة إلى الوقوف على شواطئه كالأسود ليس فقط ليدافعوا عن دينهم العظيم ولكن لنقله ودفعه إلى هذه القارة العجوز، لقد تبدلت الأحوال وصار للمستضعفين في الأرض دولة وقوة، وعز بعد أن وحدهم الإسلام وجمع كلمتهم فصار العرب والبربر أمة واحدة لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى والعمل والصالح.

ولأن إفريقية فُتِحت كلها ولم يبق فيها إلا مجاهل الصحراء الشاسعة، وما خلفها من غيابات لا يعلمها إلا الله، لهذا تطلع الجند وعلى رأسهم قائدهم الشاب إلى فتح مملكة القوط والجهاد فيها، وأن يكون للبربر سهم من نشر الإسلام وفتح البلدان.

أمَّا «يوليان» فقد عمل على علاج ابنته وحشد المعارضين لحكم لُذرِيق في صفه وقد كانوا كُثرًا، فقد استطاع لُذرِيق بصَلِفه وعجرفته أن يُزيد من أحقاد النبلاء عليه، ناهيك بيهود الجزيرة الذين فرض عليهم الكثير من المغارم التي رفعها غَيطَّشة عنهم، فصاروا يتمنون بواره ويرجون زواله.

وفي «سَبتة» المحاصرة حيث لم يفك طارق حصاره بعد، وفي زيارة سرية وصل «سيزبوت، والأب أوباس» إلى شواطئها، حيث دعاهما الكونت يوليان..

وكان سيزبوت يتوق إلى تلك الزيارة؛ ليطمئن على خطيبته وليكن معها وقت المحنة يخفف عنها وحشتها ويداوي لها جراحها، فهي الحبيبة مهما تناوبت عليها الخُطُوب، فاعتداء مكرهة عليه بريئة من آثامه لا ينقص من مكانتها، وقد شرط أوباس عليه أن يكتم السر ويتحلى برباطة الجأش فيتصرف كأن شيئًا لم يكن، وألا يذكر لُذرِيق بأي شر ما داموا في مملكة القوط وألا يفضح أمره مع فلورندا.

وما أن وصلا حتى تحركا بتخفٍ تام صوب قصر يوليان، وهم في زي العامة فقد تخلى الأب أوباس عن زيه المعتاد، وكذا تخلى سيزبوت عن لباس الأمراء وارتدى ثياب الفلاحين.

كانت كل خطوة لهما كأنها دبيب سرى في قلب سيزبوت فتختلط مع دقاته وتزيد من سرعتها، فكاد أن يترك عمه ويهرول منطلقًا صوب فلورندا؛ ليضُمَّها إليه ويزيل عن قلبه الوحشة..

ولما دخلا القصر بادرهما يوليان بالترحيب حتى إذا التقت عيناه بعيون سيزبوت شعر بالذنب تجاه هذا الشاب العفيف، الذي أحب ابنته وأرادها زوجة له وقد سبق أن حنق عليه واتهمه ظلمًا... شعر سيزبوت بما يدور في عقل يوليان فأراد أن يرفع عنه الحرج فابتسم وقال: كيف حالك سيدي الكونت؟ وكيف حال فلورندا؟

يوليان: أحقًا يا سيزبوت تريد أن تطمئن عليها رغم ما حدث؟

سيزبوت: بالطبع سيدي الكونت، فقبيل وفاة أبي كنت وليًا للعرش وخطيبًا لها فلما مات وفقدت الملك حزنت كثيرًا لذلك، ولكن ما فقدت كل شيء، حياتي وملكي وقلبي إلا بفقدانها وبُعدها عني وقتها علمت أن مُلك إيْبيرِيَّة لا يعد شيئًا أمام امتلاكي لقلب فلورندا.

أوباس مبتسمًا: هكذا دائمًا حال العاشقين، تهون عليهم مَنُون الدهر وتضمر دنياهم في أعينهم ما داموا على العهد قائمين، بل إن في قرب الحبيب لحبيبه ما يهون عليه مشاق الحياة، لهذا كان فراق فلورندا في السابق هو المصيبة التي لا شفاء منها لسيزبوت ولا حل لها، أمَّا الآن وقد عرف أنها كانت في محنة كبيرة فقد ابتهج رغم تألمه عليها وشعر بحقارة كل شيء سواها.

سيزبوت مسترسلًا لكلام عمه: كل شيء يهون إلا فراق القلب للروح.

يوليان: حتى بعد الذي حدث!

سيزبوت: وهل كان بإرادتها يا سيدي؟ هي لم تفعل شيئًا ولكنه المجرم الدنيء الذي تسلط بالملك علينا.

يوليان: أحقًا ما زلت تحبها يا سيزبوت أم هو العطف والشفقة؟

سيزبوت: بل أحيا لحُبها.. ولا أستحيي أن أقول ذلك أمام أبيها وأمام العالم كله.

اِبتسم أوباس لسماعه هذا القول من ابن أخيه بينما ازداد يوليان إعجابًا به، وخصوصًا أنه ربت على قلبه بإفصاحه عن حبه وبهذه القوة لفلورندا في هذا الوقت.
أردف سيزبوت: هل يسمح لي سيدي الكونت بلقاء فلورندا؟

يوليان: أنا لا أمانع في ذلك.. ولكن وجب علي أن أستأذنها، فما زالت حالتها غير مستقرة ولا أريد أن تنتكس مرة أخرى.

سيزبوت: لن أكون يومًا سببًا في شقائها أيها الكونت، فدعني أراها.

أوباس: لا بأس أن يستأذنها فاصبر.

تحرك يوليان صوب غرفتها بينما ظل سيزبوت ينتظر وهو مضطرب القلب حتى إذا غاب بعض الوقت نهض من مكانه وبدأ يتحرك في القاعة جَيْئَةً وذَهابًا ثم نظر إلى الأب أوباس وقال: لمَ تأخر هكذا؟

أوباس: اِهدأ يا بُنيَّ فالرجل لم يتأخر، ولكنك متعجل كثيرًا.

سيزبوت: هل تُراها ترفض لقائي يا عماه؟

وما كاد أن يتم سؤاله حتى عاد يوليان فرفع سيزبوت نظره إليه يستعجله بالتحدث، لكنه تحرك حتى جلس على كرسيه ثم قال: لقد رفضت.

سيزبوت: رفضت ماذا أيها الكونت؟

يوليان: لقد رفضت أن تلقاك يا سيزبوت، بل رفضت أن تتحدث بالأساس.

وقعت كلماته على مسامع سيزبوت كالصاعقة فألجمته الصدمة عن الكلام لدقائق قبل أن يفقد أعصابه ويتجرأ متحركًا صوب جناحها حتى إذا وصل إلى الغرفة دفع الباب بقوة ودخل وفي إثره الكونت يوليان الذي قال له بصوت عالٍ: ماذا تفعل أجُننت أيها الفتى؟

لم يبال سيزبوت بحديث يوليان وجثا على قدميه أمام فلورندا التي كانت تجلس في أحد أركان الغرفة وقال لها: حبيبتي أنا سيزبوت، أنا سيزبوت حبيبك، أجيبيني يا فلورندا، أنا هنا من أجلك، من أجلك أنت وحدك.

يوليان مشتدًا: لن تجيبك فهيا قبل أن أفقد صوابي أنا أيضًا، وأفعل ما لا يجب عليَّ فعله.

سيزبوت متابعًا حديثه لها: يجب أن تجيبيني يا فلورندا، انظري إليَّ ها أنا معك، أنا من يريدك ويحيا لأجلك، يجب أن تجيبيني يا حبيبتي... أرجوكِ ليس الصمت في مثل هذا الوقت.

اِغرورقت عينا الفتاة بالدموع مما أغضب يوليان أكثر فأمسك بذراعه وجذبه نحوه بقوة وهو يقول: هيا اخرج من هنا.

سيزبوت موجهًا حديثه لفلورندا: ودين المسيح لأقتلنَّه يا فلورندا، ثم صرخ بصوت عالٍ: سأقتلك يا لُذرِيق، قسمًا سأقتلك.

يوليان: هيا يا فتى، هيا.. ثم جذبه بقوة وأخرجه من الغرفة، بينما تحول بكاء فلورندا إلى نحيب.

❀❀✽❀❀

(3)

هِممٌ تُزيلُ الجِبَالَ

في قصره بالقيروان جلس موسى بين رجاله وقال: تعلمون أن الخليفة قد أرسل إلينا أن نختبر تلك البلاد بالسرايا أولًا؛ حتى إذا خبرناها وعرفنا طبيعتها، ومكامن القوة والضعف فيها جهزنا الجيوش لها.

مُغِيث الرومي (أرسله الخليفة ليكون مع موسى وليمده بالأخبار): ماذا عن السفن أيها الأمير؟ فنحن لا نملك منها العدد الكافي لفتح كهذا، بل لا تملك الخلافة كلها مثل هذا العدد من السفن.

موسى: أعلم ذلك؛ لعدم حاجة الخلافة للسفن إذ إن معظم حروبنا وفتوحاتنا كانت برية باستثناء ذات الصواري وفتح قبرص، ومن ثم لم تهتم الخلافة بالبحر والسفن، أما وقد احتجنا للسفن فلتعلم يا مُغِيث أننا ومنذ ثلاث سنوات قمنا في إفريقية ببناء مدينة كاملة لبناء السفن أسميناها «تونس» وقد قمنا بحشد صانعي السفن من مصر والشام في تلك المدينة.

هز مُغِيث رأسه معجبًا بيقظته، وعمله الرائع.

عبد العزيز بن موسى: وماذا يا سيدي عن البربر وهم حَديثُو عَهْدٍ بالإسلام؟! إذ أخشى إن أنت نهضت لفتح الأندلس وتركت المغرب بلا جيش أن يفعلوا بمن تبقى منا مثل الذي فعلوه «بعقبة بن نافع» فيرتدوا بعد إسلامهم ويقطعوا عليك بذلك خطوط العودة.

همَّ طارق بن زياد أن يتحدث ولكن إشارة من موسى ألزمته الصمت وتحدث هو: لقد ارتدوا عندما أسلموا خوفًا وطمعًا، أمَّا الآن يا عبد العزيز فقد تغلغل الإسلام في قلوبهم ونفوسهم حتى استعنا بهم في جيوشنا وصار منهم القائد والجند، وصاروا منا ونحن منهم بل إن شغفهم للجهاد وحماية الإسلام قد بدا واضحًا عليهم فتراهم مع طارق يبحثون عن ميدان يقتحمونه للدفاع عن دين الله ونشر الإسلام.

مُغِيث الرومي: ورغم ذلك أيها الأمير لا أنصحك أن تُخلي البلاد من الجند كما فعلها «عقبة» من قبل.

موسى: عندنا من الجيوش ما يكفي يا مُغِيث، فقد تبدل الحال وصرنا هنا (مشيرًا تحت قدمه) في أرض المسلمين ورغم ذلك فلن أخلي البلاد من الجند وليس ذلك مخافة

مسلمي البربر، ولكن لإمداد جيش الفتح بالمدد تلو المدد.

طارق: سيدي الأمير أرجو أن يكون للبربر دور في هذا الفتح المبين، فتحفظ بذلك جزءًا من جندك هنا ليحافظوا على البلاد وليكون للبربر شرف نشر الإسلام في تلك الأصقاع.

❀❀✤❀❀

عاد طارق إلى سَبتة بعد أيام قضاها في التشاور مع أميره موسى والترتيب للفتح وفي خيمته أمام أسوار المدينة جلس يفكر في الأمر ومعه صديقه ماتيه الذي نظر إليه وقال: هل حقًا تريد أن تكون جزءًا من هذا الجيش المتجه صوب مملكة القوط؟ مملكة القوط... لطالما أثار هذا الاسم رعبي وخوفي.

طارق: لم يثر خوفك أنت فقط.. بل خوف ورعب كل أهل المغرب، فلم نر منهم إلا القتل والدماء واختطاف الأطفال، حتى سَبتة هذه كانوا يستخدمون قلعتها كحماية لهم، يخرجون من أسوارها ليلًا ليقتلوا ويخطفوا ويعتدوا على النساء، ثم يعودون ومنها صوب مملكة القوط وهم محملون بالأطفال والنساء وأموال البربر.

ماتيه: إذًا تريد حقًا أن تكون في جيش الفتح!

طارق: أجل يا صديقي أريد.. ومَن مِن البربر لا يريد ذلك؟ إن لم يكن جهادًا فثأرًا لما فعلوه بنا في سابق الأزمنة، ولكن الْحَمْدُ للّهِ أن بدّل ثأرنا جهادًا وفتحًا..

ثم نهضا وتحركا معًا حتى جلسا على شاطئ البحر.. نظر طارق في الجهة المقابلة من الشاطئ الآخر وفكر في تلك اللحظة التي تطأ فيها أقدامه البلاد هناك وشعر أن شيئًا ما سيربطه بها.. وبينما هو كذلك إذ قدم عليه أحد جنوده يقول: لقد وصل القائد موسى بن نصير يا سيدي.

طارق: لم تمر بضعة أيام مذ فارقناه في القيروان!

ماتيه: أتعجب كيف لشيخ كبير مثله أن يكون بمثل هذه القوة والجلد؟ والله إنه ليثير إعجابي بقوته وصبره!

طارق: إنه الإسلام يا ماتيه والشهادة التي يرجو الرجل أن ينالها، فالحياة يا صديقي لا تتوقف عند عمر معين ولكن تتوقف عندما تعجز قلوبنا عن تصور الغد والحلم به، تتوقف عندما يغلبنا اليأس والقنوط و«موسى» رجل ذو همة عالية وعزيمة لا تلين، يرى أن حياته لا تتوقف على السن بل تتوقف عندما تتوقف إرادته وتنام عزيمته ويسقط سيفه من يده، وما مثل موسى يسقط منه السيف إلا أن يُسقطه الموت!

هيا لنلتقي به.. نهضا وتحركا صوب خيمة موسى وما أن دخل طارق حتى ابتدره موسى وقال: مرحبًا بصاحب «طنجة».

طارق: مرحبًا بأمير إفريقية كلها.. مرحبًا بالقائد موسى بن نصير.

موسى: كيف حال الجند؟

طارق: كما رأيت يا سيدي هممًا تزيل الجبال إن أرادت.

موسى: همة الجند من همة القائد فكن كما تريدهم أن يكونوا.. والآن خذني إلى البحر أريد أن أعاين الأمر بنفسي.

طارق: كما تحب أيها الأمير. ثم تحركا بمفرديهما صوبه حتى إذا وقف موسى على صخرة عالية استطاع أن يرى الشاطئ الآخر من البحر.

طارق: هكذا تبدو لنا في النهار الرائق يا سيدي.

نزل موسى من على الصخرة قبل أن يقول: الشاطئ قريب جدًا، ما يعنى أننا وإن لم يعرض علينا يوليان خطته كنا سنتجه إلى فتحها؛ لتأمين تلك البلاد (مشيرًا إلى أرض المغرب) فأمن ما نحن فيه يحتاج إلى أن تكون بلاد القوط في أيدينا.

طارق: هل يعني ذلك أننا إن لم نفتح تلك البلاد فإن القوط سيعتدون علينا؟

موسى: قطعًا يا طارق فبلاد الظلم يا ولدي لا تستطيع الحياة بجوار دولة العدل، وقد كان القوط في السابق يعتدون على هذه الأرض. فما الذي يمنعهم من تكرار ذلك فيما بعد؟

طارق: صدقت يا سيدي.

وبينما يتحدثان إذ «بماتيه» يقترب ومعه أحد جنود سَبتة، ثم أشار إلى الجندي قائلًا: يقول إن الكونت يوليان ينتظر لقاء الأمير موسى.

موسى: حسنًا.. هيا يا طارق.

تحرك موسى وطارق ومعهم فرقة من جيوش المسلمين، وما أن اِقتربا من أسوار سَبتة حتى فتحت لهم أبواب المدينة وخرج يوليان ليستقبلهما حتى إذا تصافحوا دخلوا جميعًا إلى سَبتة.

وبداخل القصر جلس يوليان بصحبة ضيوفه ليتناقشوا حول مشروع الفتح، وكان أول من تحدث هو موسى بن نصير إذ قال متفرسًا لوجه يوليان: أخبرني أيها الكونت، لماذا تساعدنا ونحن أعداؤك ومحاصرون لك؟

يوليان برصانة وثقة: إنما العداوة يا سيدي تنشأ لوجود اختلافات جوهرية بين البشر، حق وباطل، ظلم وعدل، نور وظلام، فإن عاد الظالم عن ظلمه، والباطل عن باطله امتلأ الظلام نورًا وسقطت العداوة وذابت الفوارق.. لقد اِخترت أيها الأمير أن أكون معكم؛ لجميل ما رأيته منكم، ويكفي أن أنظر إلى طارق لأعلم أين أنتم! وأنظر إلى موسى بن نصير فأجده شجاعًا باسلًا كجنده، وأن أنظر إلى من اتبعكم فأراه مثلكم لا تتفضلون عليه بشيء ولا يتخذ بعضكم بعضًا عبيدًا وخدمًا.

موسى: وماذا عن القوط؟

يوليان: عندما ينتشر الظلم والجهل في قوم، عندما يحكمهم خائن منتهك للأعراض تكون قد حلت نهايتهم وحق بوارهم.

موسى: ألا تتبع ديننا وتكون معنا؟

يوليان: أمَّا أن أتبع هذا الدين فلن أفعل وقد أخبرت طارق بذلك، فلن أبدل ديني وقد مضى من العمر معظمه أمَّا أن أكون معكم فبكل تأكيد وإلا ما دعوتكم.. وفي تلك الأثناء تقدم أحد الخدم وقدم شرابًا لهم فقال يوليان: نعلم أنكم تحرمون الخمر لذا لم نقدمه لكما فتفضلا.. ثم أردف: أخبرني أيها الأمير هل وافق خليفتكم على الغزو؟

موسى: طلب منا أن نختبر الجزيرة بالسرايا أولًا، حتى لا نلقي بالمسلمين في بحر شديد الأهوال.

وضع يوليان كوب الشراب جانبًا قبل أن يقول: مَن قال إنه بحر شديد الأهوال؟ لو علم الخليفة ما تعانيه إِيْبيرِيَّة من الخلاف والشقاق، وما يسودها من الانحلال والضعف والفوضى، لما قال ذلك، كما أني لن أعرض حياتي وجنودي لهذه الأهوال إن كنتُ أعلمها، فكيف وقد وعدتكم بتسليم سَبتة وباقي المعاقل التي تحت يدي؟ وتقديم ما أملكه من سفن لنقلكم في البحر، ومعاونتكم بجندي وإرشادي، إنَّ الفوز ميسور محقق أيها الأمير فلا تقلق وطمئن خليفتك فسيكون فتحها أيسر عليكم من هذه الأرض التي أقف عليها.

موسى: ومع ذلك أيها الكونت يجب أن نطيع أوامر الخليفة.

يوليان: أخشى أن يكون في ذلك ضياع للوقت.

موسى: لا تخش شيئًا أيها الكونت، فسننتهز تلك المدة في إكمال التجهيزات اللازمة للعبور والفتح وتجييش الجيوش.

يوليان: إذًا سأصلي للرب أن تنتصروا.

موسى: أخبرني عن تلك البلاد أكثر وأكثر أيها الكونت.

يوليان: لقد دب الخلل فيها منذ وفاة غَيطَّشة وتسلط هذا الأرعن الفاسد على رقاب الناس، فسلبهم أموالهم وضياعهم، فأضحى الشعب في حالة يرثى لها من الحرمان والبؤس، يعاني أمر ضروب الظلم والعسف والإرهاق، ويُخص وحده دون الطبقات الممتازة، بأعباء المغارم والضرائب الفادحة، ومشاق العمل، والسخرة في ضياع الأشراف والأحبار، وتسلبه فروض العبودية والرق، كل شعور بالعزة والكرامة.

موسى: وماذا عن النبلاء والقادة؟

يوليان: تقصد القوط أنفسهم؟ أمَّا هؤلاء فقد فقدوا منذ بعيد خلالهم الحربية القوية، وركنوا إلى حياة النعماء والدعة، وفتت في عزائمهم وشجاعتهم نعومة الجو وترف العيش، ولم يعودوا بعد أولئك الغزاة الأشداء الذين أخضعوا «روما»، وتوغلوا فيها بين الدانوب والمحيط، بل تراهم اليوم غارقين في سبات السلم، لا يعتنون بتحصين مدينة، ولا يعبأ شبابهم بتجريد سيف، وهناك أيضًا حزب الملك غَيطَّشة وهؤلاء سلبهم لُذرِيق كل امتيازاتهم؛ فهم اليوم أشد بغضًا له ويتمنون زواله.

موسى: أتعني أن هؤلاء سينفضون عنه إن نحن واجهناه، أم سيلتف الشعب حوله ويناصره؟

يوليان: بكل تأكيد سينفضون عنه، إن لُذرِيق يحكم مملكة قد مزقها الخلاف وشعبًا أضناه العسف، فلا ترى اليوم شعبًا أتعس من شعب إيْبيرِيَّة في ظل هذا الملك، لهذا لن تجدوا صعوبة كبيرة في هزيمته، فمن ينفض عنه شعبه لن يحميه جيش مرتزق يحيا على أموال الشعب ويقتات منه.

طارق: هل تخبرني عن هذه المساعدات أيها الكونت؟

يوليان: كل موارد سَبتة وشواطئها وسفنها، بل ورجالها سيكونون طوع أمركم في هذه الحرب ليس هذا فقط بل سيكون معكم رجال خبروا الجزيرة جيدًا، جبالها، طرقها، وديانها؛ ليقدموا لكم كل ما قد تحتاجونه من معلومات، وليكونوا لكم أدلاءً وقت الحاجة.

طارق: وماذا عن أبناء غَيطَّشة؟

يوليان: سيكونون معنا ولكن ليس الآن.

طارق: فمتى؟

يوليان: عندما يشتد الخطب بلُذرِيق سيلجأ إليهم وإلى كل النبلاء ووقتها سينضم «سيزبوت وإيفا» إليه على ألا ينصروه.

موسى: اِسمع أيها الكونت نحن لا نشك في قولك، ولا نرتاب فيه غير أننا نخاف على المسلمين من بلاد لا يعرفونها وبيننا وبينها البحر وبينك وبين ملكك حمية الجاهلية واتفاق الدين.

يوليان: لقد أعطيتكم كلمتي وسأفي بها.

طارق: ربما يريد الأمير أكثر من الكلمة.

نظر يوليان إلى موسى وقال: فماذا عليَّ أن أفعل؟

موسى: اِجمع من جنودك من يقول بقولك، وجز إليه بنفسك، وشن الغارة على بلاده، واقطع ما بينك وبينه، وإذ ذاك؛ تطيب النفس عليك ونحن من ورائك إن شاء الله.

صمت يوليان قليلًا ثم هز رأسه موافقًا وقد علته ابتسامة خفيفة بعد أن علم أنه يريد التأكد من صدق نواياه فعلًا لا قولًا، وحق له أن يفعل، فأبدى له الموافقة وبعد ذلك خرج موسى وطارق من «سَبتة» عائدين إلى معسكر المسلمين.

(4)

لا حل بديل

جهز يوليان بضع سفن وحشدها بالرجال، وجاز إلى الجزيرة الخضراء مستغلًا اِنشغال لُذرِيق بحروبه في الشمال، فشن الغارة عليها وحرق وسبى وغنم ورجع إلى سَبتة وقد امتلأت يده بالغنائم؛ تنفيذًا لوعده لموسى بأن يقطع ما بينه وبين لُذرِيق ويجعل الصلح معه مستحيلًا، وما إن عاد بملابس حربه حتى وجد «الأب أوباس، وسيزبوت» في انتظاره فقد كان اللقاء بينهم لا ينقطع.

نظر الأب أوباس إليه وتعجب من لباسه العسكري، وقد ظن أول الأمر أنه كان يلتقي موسى بن نصير فقال له: هل أتممت تعاهداتك معهم؟

يوليان: أجل أيها الأب.. وقد أبدى الرجل موافقته على الأمر، وقريبًا سندخلها على سيوفهم.

سيزبوت: ولكن ما الذي يضمن لنا أنهم سيعودون أدراجهم؟

يوليان: سيرتهم، إذ إنهم في كل بلد فتحوه تركوه لأهله وأنشأوا لأنفسهم مدنًا جديدة كي لا يتدخلوا في حياة الناس، فشيدوا «القيروان» في إفريقية، و«الكوفة» في العراق و«الفسطاط» في مصر وجعلوا ابن الكاهنة يحكم «الأوراس»، بل وجعلوا من طارق بن زياد قائدًا وحاكمًا لطنجة وهو ليس عربيًا وإن كان من المسلمين، فلا أظن أبدًا أن بهم طمعًا في اِمتلاك البلاد، ولكن جل غايتهم الغنائم والأموال، وفي إيْبيرِيَّة من الغنائم الكثير والكثير فلو امتلأت أيديهم، سيرحلون بعد أن ينصبوا سيزبوت ملكًا عليها.

سيزبوت: وماذا إن لم يرحلوا؟

أوباس محتدًا: هذا فرض قائم يا سيزبوت، ولكن أين الحل البديل؟

نكث سيزبوت رأسه ولم يتحدث فتابع أوباس وقال: لُذرِيق، إذًا هو الخيار البديل.

يوليان: أجل أيها الأب.. إمَّا العرب بجميل أخلاقهم وإمَّا لُذرِيق بفجوره وانحلاله ناهيك بتقصده إذلالك وعشيرتك.

أوباس: فإن خرج العرب كما يقول يوليان فبها ونعمت، وإن لم يخرجوا فيكفينا أن نكون سببًا في دمار مملكة لُذرِيق لا مملكة القوط التي ستعمر بغيره، فضياع ملك لُذرِيق لا يعني بالضرورة ضياع شعبه فمهما كانت عداوتنا للعرب فلن يُكرهونا على أمر لا نريده، وسنحيا بينهم كما نحب ولن يهتكوا الأعراض ولن يغتصبوا النساء.

يوليان: اِعلم أيها الفتى أنني لن أتراجع عن تدبيري هذا، ولن أحنث بقسمي أبدًا، فلأزيلنَّ عرشه ولأنتقمنَّ لشرف ابنتي مهما كان الثمن!

❀❀✤❀❀

(5)

أليفا وفلورندا

في غرفتها بقصر أبيها جلست فلورندا أمام المرآة وقد بدأت تستعيد نشاطها فتحسنت حالتها بعض الشيء، بعد أن أشعرها الجميع أنها لم تخطئ وأنها رغم ما حدث تظل فلورندا الطاهرة.. لحظات مرت وهي تلهو بشعرها قبل أن تدخل عليها وصيفتها أليفا (التي عادت لخدمتها مرة أخرى بعد أن تأكدت براءتها) وتتجه صوبها مباشرة وتمسك شعرها ثم تبدأ في تصفيفه وهي تقول: لكِ عندي أخبار جميلة يا سيدتي.

لم ترد عليها فلورندا ولكن عينيها تعلقت بها فتابعت أليفا تقول: ما إن رآني حتى خَفَّ إليَّ وكانت اللهفة والشوق باديين عليه فقال لي: أليفا.

أليفا: سيدي.

سيزبوت: كيف حال فلورندا؟

أليفا: بخير ما دمت كذلك.

سيزبوت: كوني معها رجاءً لا تتركيها حتى تعود كما كانت، وأخبريها أنى أحبها ولا حياة لي دونها، أخبريها أني هنا من أجلها وأعدها بقتل لُذرِيق عما قريب، أرجوكِ يا أليفا أخبريها أني في شوق لها وأني أنتظر منها كلمة تُحي قلبي المولع بحبها.

ثم نظرت أليفا إلى فلورندا وقالت: ما كنت أظن أن يأتي اليوم الذي يرجوني فيه رجل كسيزبوت.

فلورندا: أتظنينه حقًا يريد رؤيتي؟

أليفا: بل أجزم أنه وبعد أن فقد ملكه أنه لا يريده بقدر ما يريد قلبك يا حبيبتي.

فلورندا: قلبي! أبعد الذي حدث؟

أليفا: لم يحدث شيء يا سيدتي، فما زلتِ فلورندا زهرة سَبتة والمملكة كلها.

نهضت فلورندا وقد تبدلت ملامحها وقالت: إذا لماذا أراهم يشفقون عليَّ؟

اِقتربت منها أليفا وقالت: ليست شفقة ولكنهم يحبونك، سيدي يوليان، والأمير سيزبوت، بل والجميع هنا... يجب أن تتخلصي من هذا الطوق ولا تحملي نفسك أكثر مما يجب.

❀❀✽❀❀

(٦)

سر القوة

لبث موسى حينًا بسَبتة يهيئ عُدة الفتح، ويعاونه في ذلك طارق بن زياد خاصة بعدما صار رجله الأول في إفريقية، وكانا كثيرًا ما يذهبان إلى شاطئ المدينة ليشاهدا العدوة الأخرى ويتنسما هواء المحيط، ويتحاورا حول المهمة الجديدة.

وتحت زخات المطر فوق رمال سَبتة ورائحة المطر التي تفوح منها، وعلى شاطئها الجميل، نظر طارق إلى موسى وقال: يا له من حلم عجيب! كيف تحولت تلك البلاد فصارت قبلة لذوي الحاجات يسعون إليها، يتدبرون حاجتهم لديها، وقد كانوا من قبل يأتون إليها طامعين في سلب خيراتها؟ فسبحان من أنعم علينا وأمدنا بتلك القوة التي تبدل الرجال والدول فتصير القوية ضعيفة والضعيفة قوية!

موسى: صدقت يا طارق، فالدين هو القوة الكامنة التي يمكنها أن تحول الضعيف قويًا، والجبان شجاعًا لا يهاب الموت، وهذا ما حدث للمسلمين فبعد أن كانوا من أجهل وأضعف الأمم صاروا أعلمهم وأقواهم، حتى دانت لهم مشارق الأرض ومغاربها، فبسطوا دولتهم وصارت بلدانهم قوة يخشاها الجميع، إذ من يستطيع أن يهزم أمة كتلك توحدت كلمتها على قلب رجلٍ واحدٍ يجلس في قصره بدمشق، يصدر أمره فيسمعه ويطيعه من في الأرض.

طارق بارتياح: الْحَمْدُ للّهِ على نعمة الإسلام.

موسى: أجل، الْحَمْدُ للّهِ على نعمة الإسلام، والآن ما رأيك بطريف بن مالك؟

طارق: لم تسألني عن أمر إلا وأنت به أعلم يا سيدي.

موسى: ولكني أحب سماع رأيك.

طارق: إذًا فهو جندي عظيم، وفارس لا يشق له غبار.

زادت زخات المطر فتحركا صوب المعسكر وما أن دخلا حتى أكمل موسى حديثه وقال: سنجعله قائدًا لتلك السرية التي سنختبر بها بلاد الأندلس.

❀❀✤❀❀

جهز موسى خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس بقيادة «طريف بن مالك» فعبروا البحر من سَبتة في أربع سفن قدمها يوليان وذلك لتضليل العدو فلا يلحظ أحد أن

للمسلمين سفنًا تجوب «بحر الزقاق»!

أبحر طريف واصطحب معه ماتيه وذلك في منتصف ليل رمضان سنة 91 هجرية، ونزل إلى البقعة المقابلة لسَبتة وهي جزيرة «لاس بالوماس»، وما أن نزل الجزيرة حتى شن من موقعه سلسلة من الغارات على السواحل الجنوبية لإيْبيرِيَّة، وطالت غاراته الرقعة الممتدة بينه وبين الجزيرة الخضراء بإرشاد من بعض جنود يوليان، فأصاب كثيرًا من الغنائم، وقوبل وجنوده بالإكرام والترحيب، وشهد كثيرًا من دلائل خصب الجزيرة وغناها، ثم عاد في أمن وسلام، وقص بدوره على موسى نتائج رحلته فاستبشر بالفوز، وجد في أهبة الفتح.

❀❀✤❀❀

انتهى طارق من تفقد أحوال جنوده، ودخل خيمته ليستريح فيها بعض الشيء، وقد وضع يديه خلف رأسه ونظر للأعلى وتخيل نفسه يمتطي صَهْوة جواده يحاول العبور به إلى إيْبيرِيَّة، ثم ذهبت به ذاكرته لذاك اليوم البعيد، حينما التقى ذلك الرجل العجوز على شاطئ (المتوسط) فبشره بعبور البحر، وبينما هو كذلك مبتسمًا ولا شيء أمامه، دخلت عليه «أم حكيم» وقد لاحظت تلك الابتسامة فقالت له: ما الذي جال بخاطر صاحب طنجة حتى ابتسم هكذا؟

اِلتفت طارق إلى زوجته وقال: إنها تلك النُّبُوءَةُ العجيبة وذاك العجوز في سالف الزمان.

أم حكيم: لم تفارق خيالي مذ علمت بخبر يوليان فلكأنها صدق.

تنهد طارق وقال: لا يشغلني صدقها من كذبها، ولكن يشغلني أمر الفتح وأن أكون مع هذا الجيش.

أم حكيم: ستكون إن شاء الله.

طارق ممازحًا: تتحدثين وكأنك صاحبة إفريقية.

أم حكيم: بل أتحدث بما أعرفه عن حب موسى لك وثقته فيك لذا؛ فأنا أجزم أنه لن يخرج في أمر كهذا إلا ويصطحبك معه.

نهض طارق وتحرك نحو باب الخيمة وقال: أرجو ذلك يا أم حكيم، ثم أردف: ها هو الأمير موسى يتفقد الجند.. ثم خرج متجهًا صوبه فما أن رآه موسى حتى قال له: من تراه يا طارق حقيقًا بأن يكون قائدًا لهذا الجيش المتجه صوب الأندلس؟

نظر طارق إليه متعجبًا وقال: ألن تخرج بنفسك أيها الأمير؟

تحرك موسى للأمام وقدماه تغوصان في رمال سَبتة وقال: كنت أريد ذلك، ولكن يتطلب الأمر وجودي هنا.

طارق: لمَ أيها الأمير؟

موسى: نحن ما زلنا لا نعلم الحقيقة كاملة عن تلك الأراضي وجيشها رغم سرية طريف بن مالك، ورغم كل ما قاله يوليان الذي هوّن من شأنها كثيرًا وما فعل ذلك إلا ليستحثنا على الفتح، فلا يجب أن نهون من عدونا ونهرول خلفه فهو ليس منا على كل حال لذا؛ يجب عليَّ البقاء هنا يا طارق لأمد الجيش بالمؤن والمدد وقت الحاجة وأكون ظهرًا وحوزًا له إن حدث ما لا نتوقع.

طارق: نعم الرأي يا سيدي.

موسى: فمن يكون أمير هذا الجيش؟

طارق: ليس المسئول يا سيدي بأعلم من السائل.

موسى: وأمرهم شورى بينهم يا رجل.

طارق: إن كان كذلك يا سيدي، فليكن طريف بن مالك؛ فهو قائد بارع في فنون القتال كما أنه قد خبر الجزيرة من قبل.

نظر موسى إلى طارق وقال: وماذا عن طارق بن زياد؟

فتح طارق عينيه بقوة وقال: يرجو أن يكون في طليعة المجاهدين يا سيدي، وألا تكون ولاية «طنجة» عائقًا يحول بينه وبين الجهاد في سبيل الله فقد وهبت حياتي لذلك، ولا يهمني من سيختار الأمير لقيادة هذا الجيش فيكفيني أن أكون ضمن رجاله والعابرين لهذا البحر الفاتحين لتلك البلاد.

موسى: بل ستكون أنت القائد يا طارق.

حاول طارق أن يتحدث أو يعترض على توليه هذا الأمر الجلل فأكمل موسى وقال مقاطعًا: أجل أنت أمير هذا الجيش يا طارق، ليس لأنك جدير بذلك وحسب؛ بل لأن معظم هذا الجيش (وأشار إلى الجنود) يتكون من البربر.

طارق: البربر المسلمون يا سيدي.

موسى: بلى.. الذين حسن إسلامهم وحق عليهم الآن أن ينصروا هذا الدين، وستكون هذه هي مهمتهم الأولى في ذلك، ولن أختار معظم الجيش الفاتح من البربر وأختار لهم قائدًا من غيرهم، فمثلما رأيت أنهم متحمسون وقادرون على استكمال حركة الجهاد ورفع راية التوحيد، فكذلك لديهم من القادة طارق بن زياد فلا تخذلني فيك يا طارق

وعد إليَّ بمفاتيح الأندلس، ولا تلق بالمسلمين في التهلكة، وكن حذرًا في تحركاتك، وتذكر ما حدث لعقبة بن نافع فالسعيد من اتعظ بغيره، واحفظ وصية أمير المؤمنين يا فتى.

ثم شدَّ على ذراعي طارق الذي قال: أعانني الله ببركة منه كي أكون عند حسن ظن أميرنا.

(7)

استعداد

قبيل الغروب على شاطئ سَبتة، وقف طارق بلباسه العسكري، وظل يراقب قرص الشمس وهو يغرق في بحر الظلمات، وبينما هو كذلك إذ أقبل عليه صديقه «ماتيه» فلاحظ وجومه فقال له: فيم يفكر أميرنا؟

طارق: انظر يا ماتيه.. شاهد كيف لقرص الشمس الذي كان منذ ساعات في قلب السماء ينير لنا الدنيا كلها، هوى وسقط في بحر الظلمات فعاد كأن لم يكن!

ماتيه متعجبًا: وما الجديد في هذا؟!

طارق: كذلك هي جيوش المسلمين كالشمس في وضح النهار، لا يقف أمامها أي شيء، فلا سحب تحجبها ولا ظل يمنعها، لكن ماذا إن كان هذا البحر يفصل بين تلك الجيوش؟

ماتيه: أقلق أنت يا طارق؟

طارق: وأي قلق يا ماتيه.. إنه ذاك القلق الذي يشعرك بعظم المسئولية الملقاة على عاتقك، فيجعلك تفكر كيف لتلك الجيوش أن يستمر النصر حليفها فلا يمنعها من ذلك «بحر الزقاق» أو مملكة القوط.. وبينما هو يتحدث إذ قاطعه صوت صهيل خيل قادم، فنظر للخلف فإذ بأحد الجنود يتقدم صوبه ويقول: يدعوك الأمير موسى إلى لقائه الآن في خيمته.

تحرك طارق من فوره صوب خيمة الأمير موسى، وما أن دخلها حتى وجد الأمير ومعه الكونت يوليان فقال: أرسلت في طلبي أيها الأمير؟

موسى: أجل يا طارق؛ فقد قدم لنا الكونت يوليان الكثير من المعلومات التي ستساعدك في مهمتك، فتجهز لذلك فليس أمامك الكثير من الوقت.

طارق: أنا جاهز في كل وقت أيها الأمير، ولكن ماذا عن السفن؟

يوليان: لديَّ اقتراح لو قبلتموه.

موسى: ما هو؟

يوليان: أن يعبر الجيش في سفن تجارية وهذه موجودة بحوزتنا، فبحر الزقاق يعج بتلك السفن فلن يفطن أحد إلى أن بعضها يحمل جيشًا محاربًا.

موسى: وهذا ما كنت أنتويه أيها الكونت، فلو أضفنا إلى ذلك موعد الإبحار واخترنا أن يكون العبور ليلًا سيكون ذلك أدعى للحيطة والحذر وعاملًا مهمًا من عوامل التمويه، مع الوضع في الحسبان أن السفن الموجودة معنا حاليًا لن تكفي لنقل الجيش مرة واحدة، ما يعنى وجوب السرية في الأمر حتى لا يتلقف العدو من يصل منا إلى العدوة الأخرى فيأخذنا قبل أن تكتمل عدتنا وعبورنا.

❀❀✤❀❀

(8)

العبور المهيب

وسط صهيل الخيول، وغلس الليل، وأمواج البحر المتلاطم، ومن شواطئ «سَبتة» العتيقة بدأت طلائع جيش المسلمين في الإبحار صوب الشمال صوب «بلاد الفندال»، وكان موسى وطارق ويوليان يتابعون عمليه الإبحار من كثب وموسى يدعو الله للمسلمين بالنصر القريب.

وكان أول من أبحر «طريف بن مالك» ومعه جزء من الجيش، إذ أبحر الجيش على دفعات لقلة عدد السفن، حتى إذ كانت آخر سفينة تقدم طارق من موسى واحتضنه بقوة، ثم صعد ليركب السفينة وكذا ركب معه الكونت يوليان، وماتيه، وكذلك زوجته أم حكيم مع مجموعة من نساء المسلمين وكذلك مجموعة من القادة المسلمين منهم «عبد الملك بن أبي عامر، ومُغِيث الرومي».

تحركت السفن لتمخر عباب «الزقاق» في ليلة مباركة مهيبة يغشاها الهدوء وتمتمات دعوات الجند، هؤلاء الأبطال الذين يركبون السفن لأول مرة ويشقون البحار، وقد سكنت الأمنيات قلوبهم آملين في نشر دعوة رب الأرض والسماوات فاطمأنوا في مسيرهم، وكأن الملائكة قد حفتهم تصطحبهم إلى نصر مجيد وفتح قريب..

وطارق يقف في صمت مطبق فأقبلت عليه زوجته أم حكيم وهي تقول: ما لي أراك هكذا يا طارق وأنت من أنت؟

أخذ طارق نفسًا عميقًا قبل أن يقول: إنها بلاد عظيمة يا أم حكيم، ولا أريد للراية أن تنكسر.

أم حكيم: لا والله، لن تنكسر راية المسلمين وفيهم من فيهم من خيرة الرجال الذين خرجوا من سَبتة لا يريدون إلا الله، فكن على يقين أن الله لن يخذلك وقد عقدت نيتك على نصرة دينه، فوالله يا طارق، سيكون لك عن كل صلاة وكل حسنة في هذه الأرض حسنة مثلها، فاستعن بالله وتوكل عليه.

طارق: ونعم بالله.

سيطر التعب على طارق، الذي كان منذ أول الليل يراقب الجيش وتحركاته، فوضع رأسه على حجر أم حكيم فأخذته سنة من النوم، فرأى في منامه النبي ﷺ والخلفاء الأربعة أصحابه عليهم السلام يمشون على الماء حتى مرّوا به، فبشّره النبي ﷺ بالفتح،

وأمره بالرفق بالمسلمين، والوفاء بالعهد، فهبَّ من نومه مستبشرًا، وقد تبدلت ملامح وجهه وفارقها ذلك القلق، وإذا بأم حكيم تنظر له متعجبة فما كان منه إلا أن قص عليها رؤيته، فاستبشرت خيرًا وأشارت عليه أن يقصها على أصحابه ففعل، فارتجت السفن بالتكبير والحمد وانتشرت البشارة بين الجيش.

وقبيل انقضاء الليل حل طارق بن زياد وجيشه على الشاطئ الشمالي لبحر «الزقاق» وما أن نزل على الجزيرة حتى التف حوله كبار رجاله طريف بن مالك، ماتيه، الكونت يوليان، عبد الملك المعافري، مُغِيث الرومي، فقال طريف: المكان هنا مرتفع لا يصلح لأن نعسكر فيه.

طارق: ما اسم ذاك المكان أيها الكونت؟

يوليان: هذا «جبل كالبي» يا طارق، وهو كما قال طريف لا يصلح للمعسكر لارتفاعه.

طارق: إذًا لنبحث عن مكان آمن.

ماتيه: يجب أن يحدث ذلك قبل طلوع الشمس؛ حتى لا يتنبه إلينا أحد.

الكونت يوليان: أعرف مكانًا منخفضًا بين جبلين، فلو نزلنا فيه سيكون أفضل لنا وأبعد عن عيون القوط.

طارق: حسنًا أيها الكونت.

ماتيه: إذًا دعني يا سيدي أكون طليعة لكم، فإن رأيت خيرًا وإلا عدت إليكم فتحولتم إلى غيره.

طارق: لسنا في نِفْزَة يا ماتيه، فكيف تكون طليعة في أرض تجهلها؟

ماتيه: لا تخش علي يا سيدي فقط يخبرني الكونت بكيفية الوصول إلى ذلك المكان.

يوليان: خذ معك أحدًا من جندي، فجميعهم يعرفون المكان جيدًا.

ماتيه: بل سأسير بمفردي؛ فيكون أيسر عليَّ في التخفي والهروب وقت الخطر.

يوليان: كما تحب.

تحرك ماتيه ماشيًا على قدميه بعدما وصف له الكونت يوليان المكان وكيفية الوصول إليه، وكان قد غطى وجهه بلثام أسود، وكانت الليلة شديدة السواد، حتى إذا وصل إلى هذا الوادي شاهد فرسانًا من القوط ومشاتهم يحرسون هذا المكان، فراح يحصيهم عددًا، ثم ارتد إلى الخلف دون أن يصدر أي صوت.

وعاد إلى طارق وقال له وهو يلهث من التعب: فرسان من القوط يحرسون المكان وهم على بعد مسافة قريبة من هنا، وقبل أن يتحدث طارق استبقه يوليان وقال: لقد عهدت هذا المكان فارغًا لا أحد فيه ولا أحد يحرسه، وقد شعر طارق بأن الكونت إنما يريد أن ينفي تهمة الخيانة عنه فقال له: ربما حدث جديد في الأمر وما لم تعرف أيها الكونت فلا بأس عليك.

يوليان: تعلم أنني قد عاديت لُذرِيق علنًا فلن أخونكم؛ وقد تعلق مصيري ومصير سَبتة بكم.

طريف ونبرة الشك في صوته: فلماذا اخترت لنا واديًا كهذا؟!

استبق طارق الكونت يوليان وقال لطريف: لو أراد الشر، لأخبرهم بساعة نزولنا الجزيرة يا طريف.. والآن علينا التحرك فورًا قبل أن يحاط بنا.

ماتيه: ولكن دون إحداث أي جَلَبة.

هز طارق رأسه ثم قال ليوليان: دُلني على مكان صعب الوصول إليه أيها الكونت.

أثارت هذه الكلمة الغيظ في قلب طريف الذي يشك في ولاء الكونت يوليان فقال في نفسه: ما زلت تثق به يا طارق!

يوليان: هناك مكان قريب من هنا، ولكن لن تستطيع الرجال الوصول إليه لشدة وعورته، فالطريق إليه مليء بالحجارة كثير التعرج ولن تكفينا الخيل لتحملنا فنحن سبعة آلاف وليس معنا من الخيل سوى ثلاثة آلاف فقط.

طارق: فماذا ترون إذًا؟

ماتيه: إن كان كما يقول الكونت، فيمكننا أن نخلع برادع الدواب والمجاذف ونجعلها تحت أقدامنا وبهذا نستطيع الوصول إلى هذا المكان.

مُغِيث الرومي: أحسنت يا ماتيه.

طارق: على بركة الله.

(٩)

بِشارة العجوز

في الوقت الذي عبر فيه طارق بحر الزقاق كانت فلورندا بدأت تتعافى مما هي فيه، وعاد سيزبوت يراسلها كثيرًا؛ ليشعرها أنه ما زال على العهد باقيًا بل ربما يحبها أكثر من ذي قبل، وبدأت تعود للحياة مرة أخرى، وقد أرادت أن تسقط تلك الأيام المريرة من حياتها فلم تعد تريد أن تسمع اسم لُذرِيق ينطق أمامها..

في المقابل فإن سيزبوت جعل الانتقام لشرف فلورندا عنده مقدمًا على ما دونه حتى حوزته عرش القوط، وكيف لا؟ وفي قتله حياة لفلورندا وحياة لقلبه، ولكن حسب الخطط الموضوعة فقد مكث سيزبوت في طُلَيْطِلَة؛ ليستطلع أخبارها وأخبار لُذرِيق، وليساعد في خداعه والمكر به، بل وتراسل مع عمه «رخشندس» وكان يقوم بثورته في الشمال وبالتحديد في «بنبلونة» وأخبره أن يشغل لُذرِيق أكبر وقت ممكن؛ ليتمكن طارق وجنده من احتلال الجنوب في غفلة منه.

أمَّا في الجنوب، فقد عسكر طارق بالقرب من «جبل كالبي» في هذا المكان الذي أرشده إليه يوليان، ولكنه رأى أن المكان ليس آمنًا بما يكفي لحفظ الجند، وكان يخشى الغائلة، فرتب حرسًا على جوانب المعسكر غير أنه بالنهاية لم ير ذلك كافيًا، فترك المعسكر وتحرك مصطحبًا «ماتيه» يبحث عن مكان أكثر أمنًا للجند والجيش.

ماتيه: لن تجد مكانًا خيرًا مما نحن فيه.

طارق: يمكن أن نؤخذ منه غيلة يا ماتيه، آه لو وجدنا قلعة قديمة فننزل بها.

ماتيه: انظر هناك يا طارق.

طارق: لا أرى شيئًا!

ماتيه: ماذا لو نقلنا هذه الأحجار، وشيدنا سورًا نحتمي به عند الحاجة؟

طارق: المكان بعيد والحجارة ثقيلة جدًا ولن نستطيع نقلها كلها، كما أني لا أريد إرهاق الجيش فيما لم يخلق له، ولكن إن كان ولا بد فلنقطع هذه الأشجار ونصنع منها سورًا طويلًا.

ماتيه معجبًا بصديقه: نعم الرأي يا قائدنا.

ومن فوره بدأ طارق وجنده يقتطعون الأشجار وينقلونها ليبنوا منها سورًا ضخمًا عسكروا خلفه.

وبينما الجند يعمل في السور إذ أتى ماتيه بعجوز من القوط وقال: وجدنا هذه العجوز تتلصص علينا.. اِقترب طارق من المرأة فوجدها نحيفة الجسد تقارب الثمانين من عمرها، تتحرك متكئة على عصاة غليظة فقال لها طارق: ماذا تريدين يا أماه؟

العجوز: الأمان يا ولدي.

طارق: لسنا هنا لقتلكم، وهذا يوليان صاحبنا وهو واحد منكم فهو جدير بأن تطمئني له.

يوليان: اِعلمي أيتها العجوز أنَّ هؤلاء قوم لا يغدرون كملككم؛ فاطمئني فما أتوا إلى هنا لقتال ولكن لرفع الظلم عن كواهلكم.

ابتسمت العجوز وراحت تحدق ملية إلى وجه طارق وهو يتعجب لها فقال لها ماتيه بصوت عال: ما بك يا امرأة؟

اِقتربت العجوز من طارق متجاهلة حديث ماتيه وقالت: إنّه كان لي زوجٌ عالمًا بالحدثان، فكان يحدثني عن أمير يدخل بلادنا هذه فيغلب عليها.

طارق: هل وصفه لك؟

العجوز: أجل.. نعته أنّه ضخم الهامة، فأنت كذلك.

طارق وهو ينظر حوله: وكذا الكثيرون من الناس فلست وحدي ضخم الهامة.

العجوز: ليس هذا فحسب، ولكن نعم، نعم.. تذكرت لقد قال لي: أن هذا الأمير في كتفه اليسرى شامةٌ عليها شعر، فإن كانت فيك فأنت هو!

كشف طارق عن ثوبه فإذا بالشامة في كتفه على ما ذكرت.

ماتيه: اللَّهُ أَكْبَرُ ! والله إنها لحق وقد أخبرتنا عن رؤيتك لرسول الله ﷺ وهذه علامة أخرى.

طارق: لا تتعجل الأمور يا ماتيه، فقد كذب المنجمون ولو صدقوا.

مُغِيث الرومي: بل هي بشرى عظيمة، وفتح قريب إن شاء الله.

❀❀✽❀❀

(10)

جزيرة أم حكيم

كانت تلك أول ليلة يبيتها المسلمون خلف تلك الأسوار الجديدة، فأمنوا قليلًا على أنفسهم، ودخل طارق خيمته ليرتاح قليلًا، فقالت له أم حكيم: الْحَمْدُ للّهِ أرى الأمور تسير على ما يرام والجميع مستبشرًا فماذا عنك أما زلت قلقًا يا طارق؟

طارق: كيف لقائد جيش في بلاد غريبة، وقد انقطع عن أهله وقومه، وحال البحر بينه وبينهم أن يهدأ البال يا أم حكيم؟

أم حكيم: هون عليك يا طارق؛ فلن يخذلك الله أبدًا.. ثم جلست بجواره واستطردت تقول: تذكر يا حبيبي أنك إنما تجاهد في سبيل الله وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وتذكر رؤيتك لرسولنا ﷺ، وكذا أمر العجوز فكلها تدعو إلى التفاؤل والخير.

هز طارق رأسه ثم مد جسده بعدما وقع أثر كلماتها هدوءًا على نفسه ثم استرخى قليلًا فلم تمر لحظات حتى أغمض عينيه وغلبه النوم، فلم يدر حتى دخل عليه ماتيه وكانت أم حكيم قد تركت الخيمة من قبل ذلك لعلمها بتردد القادة عليه وذهبت إلى خيمة أخرى قد أعدت لها.

فما أن دخل ماتيه على طارق حتى هب الأخير وقد أمسك خنجرًا يريد قتله؛ فقد ظنه من جيش لُذرِيق ففزع وقال له: أنا ماتيه أتقتل صديقك يا رجل؟

أخذ طارق نفسًا عميقًا وزفره قبل أن يعيد الخنجر إلى مكانه تحت وسادته ويقول: لا تفعلها مرة أخرى.

ماتيه وهو يتحسس عنقه: لم أرد أن أقلق نومك فدخلت على هذا الشأن ولكن في المرات القادمة لا بأس أن تقلق فهذا أفضل من أن تطيح برأسي.

تنهد طارق وقال: قل ما الشأن الخطير الذي جاء بك الساعة؟

مد ماتيه يده إلى صفحة بها بعض الطعام وأكل منها وهو يقول: إنها مدينة صغيرة قريبة من هنا تدعى «قرطاجنة» ولا أمن لنا هنا ما لم ندخلها ولن ندخلها إذا تفطن القوم إلينا، فأسوارها منيعة حصينة وهي تقع شمال هذا الجبل الذي نحن عليه الآن عند مصب نهر يدعى «وادي البحر».

هبَّ طارق من مكانه وتدثر بسيفه وقال له: لقد عزمت على أمر كهذا.

ثم خرج من خيمته على عجل يتبعه ماتيه وما زال الطعام في فمه، وقد كان الليل قد ذهب أكثر من نصفه، فجمع طارق رجاله وأخبرهم بخبر صاحبه، فاستحسنوا أمره، فاختار من بينهم «عبد الملك بن أبي عامر المعافري» وقال له: خذ معك ماتيه وقطعة من الجيش ولا ترجع إليَّ قبل أن تفتح «قرطاجنة Cartagena» وتذكر أنك بهذا ستكون صاحب أول فتح في تلك البلاد العظيمة، فأحسن استغلال جهل القوم بنا فهم لا يعلمون إلى الآن أن غريبًا قد نزل جزيرتهم.

ثم نظر إلى باقي القادة وقال: أمَّا نحن فسنسير إلى تلك الجزيرة القريبة من هنا، فنأخذها على غفلة من قومها.

يوليان: أحسنت يا طارق.. إذ يجب علينا أن نأخذ الجنوب قبل أن ينتبه لنا الطاغية.

ولم يبزغ الفجر حتى كان طارق تحرك صوب تلك الأرض القريبة، فلاقته سرية قوطية بقيادة «بنج» ابن أخت لُذرِيق وهو من أكبر رجاله، فاشتبك معها وأبادها عن بكرة أبيها؛ فقوي المسلمون بذلك وغنموا الخيل فركب عليها كل الرَجَّالة، ثم تقدم بهم واحتل تلك الجزيرة وأطلق عليها اسم جزيرة أم حكيم.. أمَّا عبد الملك المعافري فقد نجح مع سريته في فتح قرطاجنة فكان فتحه هو أول فتوح طارق في جزيرة الأندلس.

❀❀✤❀❀

(11)

صدمة لُذرِيق

صرعت الخمرة لُذرِيق (وهو جالس في خيمته وسط المعسكر خارج مدينة «بنبلونة» وقد خرج إليها ليقضي على هذا التمرد الذي يقوده «رخشندس» الأخ الأصغر للملك غَيطَّشة) حتى استسلم لها، وألقى بنفسه على أرض الخيمة غارقًا في سُبات طويل.

أمَّا خارج الخيمة فقد وقف «الكونت بلايو» حائرًا في أمره لا يدري ماذا يفعل؟! وهو يمسك بورقة وكأنها رسالة من أحد ما، وما يكاد يتركها حتى يعود لفتحها والنظر إلى كلماتها مرة أخرى، وكان كلما قرأها ازدادت حركته، وهمَّ بالدخول على الملك حتى إذا وجده صريعًا للخمر ارتد للخلف، ولم يجرؤ على الاقتراب منه، ولم يقدر على الابتعاد عن الخيمة فقد كان الأمر جللًا كما ظهر على وجهه.

وبينما يمر الوقت ثقيلًا على بلايو إذ صرخ الملك صرخة قوية دخل على إثرها إليه، فوجد لُذرِيق يمسك رقبته ويقول: اللعنة على العرب... اللعنة على فلورندا... اللعنة على سان بابلو.

وما أن رآه بلايو هكذا حتى قال له: مولاي الملك.

فتح لُذرِيق عينيه وكأنه يحاول استكشاف السائل أو معرفة مكانه هو نفسه، حتى إذا أفاق من سكرته ونومه قال: بلايو، منذ متى وأنت هنا؟

بلايو: منذ وقت طويل يا سيدي.

لُذرِيق: أيها الأحمق.. لمَ لمْ توقظني؟

بلايو: ما كنت لأفعل يا سيدي وأقلق راحتك.

نهض لُذرِيق وجلس على كرسيه وأغمض عينيه قليلًا، والامتعاض خُطَّ على وجهه فلاحظ بلايو ذلك وقال: ما الأمر يا سيدي؟

لُذرِيق: لا شيء، لا شيء.. (وكأنه بذلك أراد أن يخفي ما بداخله وتلك الرؤية المفزعة التي يراها بين الفينة والأخرى) ثم فتح عينيه وقال: ولكن لمَ أنت هنا؟

بلايو: أمر جلل يا سيدي فقد أرسل إلينا عاملك على الجزيرة الخضراء رسالة يقول فيها: أدركنا يا لُذرِيق؛ فقد نزل علينا قوم لا نعلم من أهل الأرض هم أم من أهل السماء!

لُذرِيق منزعجًا وقد انتفض في مكانه: ماذا تقول؟

بلايو: لقد نزل العرب على «جبل كالبي» يا سيدي، ثم زحفوا على «قرطاجنة» فأخذوها ولما اشتبك معهم ابن أخت الملك «بنج» هزموه وقتلوه ثُمَّ...

قاطعه لُذرِيق صارخًا: أما زال هناك ثُمَّ.. ثُمَّ ماذا؟ أكمل عليك اللعنة.

بلايو مرتعدًا خوفًا منه: ثُمَّ زحفوا على الجزيرة الخضراء فملكوها وفر منها «تيودمير» وأرسل تلك الرسالة يستنجدنا يا سيدي.

نهض لُذرِيق من مكانه مفزوعًا وتحرك صوب أحد أركان الخيمة كالمجنون، وأمسك برسالة قديمة وفتحها ونظر فيها، وكانت رسالة من يوليان أرسلها منذ يومين يخبره فيها بنجاحه في صد العرب غير مرة حتى وقفوا عاجزين دون أسوار سَبتة، وما أن قرأها ثانية حتى صرخ كالمجنون وقال: ما هذا الهُرَاءُ؟ كيف يدخل العرب مملكتي بينما سَبتة ما زالت بأيدينا؟ ثم قال بصوت غاضب: أرسل إلى «تيودمير» وقل له تخلص من مجموعة اللصوص تلك واقض عليهم.. ثُمَّ جلس على كرسيه بينما انصرف بلايو لينفذ أوامر سيده.

وما أن خرج بلايو حتى عادت الرؤية العجيبة إلى خياله، ثُمَّ تذكر فتحه لكنيسة «سان بابلو» وكانت رسالة يوليان ما زالت بيده فقطعها وقال: اللعنة عليكم جميعًا.. ثُمَّ أمسك بكأس من الخمر وما أراد أن يرفعها إلى فيه حتى قذفه بشدة، وقد بدأ الشك يساوره من جهة يوليان؛ إذ يستحيل على العرب المرور إلى إيْبيرِيَّة ما دامت سَبتة بيده، فأين الحقيقة إذًا؟ فإما أن يكون يوليان كاذبًا أو يكون تيودمير كذلك، فنادى أحد الحراس فدخل عليه فقال له: اِذهب إلى سَبتة فائْتِني بأخبارها وتعجل بالأمر.

❀❀✽❀❀

(12)

مفاجأة السفينة

تحسنت «فلورندا» كثيرًا، وصلحت أحوالها، وعادت إلى الحياة مرة أخرى بطبيعتها، وبدأت تسترد عافيتها وتخرج من القصر إلى حدائق «سَبتة» وشواطئها تتنسم فيها عبير طفولتها ومعها جاريتها «أليفا» التي لا تفارقها أبدًا، وبينما تتحركان وأمواج البحر تعلو وتعلو إذ شمرت فلورندا عن ساقيها وخلعت نعليها، وغاصت بأقدامها في مياه البحر، وهي تضحك بصوت عالٍ، فتبعتها أليفا وراحتا تلهوان بالماء فقالت فلورندا: أشعر أني قد ولدت من جديد.. لقد اشتقت للبحر.

أليفا: كل هذا بفضل سيزبوت!

فلورندا: لم أعرف من قبل أن الشهامة بالرجال قد تصل إلى هذا الحد.

أليفا: ليست الشهامة فقط يا حبيبتي، ولكنه الحب الذي يحركه، والقلب الذي يحمله، فسيزبوت يعاملك بقلبه، فترينه ضعيفًا أمامك لا يقدر إلا على طاعتك فهو كالطفل بين يديك، ولكن عندما تألمت وحدث الذي حدث، أضاف إلى قلبه عقله فوقف موقف البطل الذي لا يهاب شيئًا؛ لينتقم لنا من ملك معتدٍ، ومثله من الرجال يُعتمد عليه.

توقفت فلورندا وتغير وجهها واعتراها بعض الندم، وقالت: أمَّا أنا فلن أغفر لنفسي يوم أن أسأت الظن به حتى كنتُ سببًا في ألمه وعذابه.

وبينما تتحدثان إذ بسفينة تقترب من الشاطئ، فتهلل وجه فلورندا، وأشرق بابتسامة عريضة، وظنت أن تلك السفينة ربما تحمل إليها أخبارًا عظيمة، أو ربما أرسل إليها أبوها ليخبرها بهلاك لُذرِيق، أو ربما تحمل رسالة من سيزبوت بقرب زواجه منها أو لقائه بها وقدومه إليها.

تعلقت عيون فلورندا بالسفينة القادمة، ولم تشعر بنفسها حتى تقدمت صوبها وكأنها تتعجلها حتى غاص كل جسدها تقريبًا بالمياه، وهنا تقدمت منها أليفا وقالت: ما هو إلا وقت قليل وتصير السفينة بين يديك.

فلورندا متحمسة: لا أطيق صبرًا يا أليفا.

أليفا مبتسمة: ولن تطيقي المياه أيضًا.. ثُمَّ سحبتها حتى خرجتا إلى الشاطئ.

لم يمر الكثير من الوقت حتى ظهرت ملامح أهل السفينة فإذا بهم جنود قوط لا يتعدى عددهم العشرين رجلًا.. وما أن رأتهم فلورندا حتى انقبض وجهها وارتعبت؛ وقد خيل لها أن هزيمة قاسية حلت بأبيها وحبيبها فلم تدر ماذا تفعل؟ فتجمد الدم في عروقها وشعرت أنها فقدت الحركة والنطق للحظات، ثُمَّ وجدت نفسها تتحسس الخنجر الصغير الذي خبأته في طيات ثيابها ليشعرها ببعض الأمان، بينما فطنت أليفا بما يدور بخلد سيدتها فانزعجت هي الأخرى، ولكنها حاولت التخفيف عنها ومن ثُمَّ محاولة إعادتها إلى القصر..

تحركتا والانقباض باد عليهما وخطواتهما أصبحت ثقيلة بطيئة، ولم تكادا تصلان القصر حتى كان جنود لُذرِيق قد سبقوهما والسؤال عن «الكونت يوليان» يشغلهم، فلما علموا بأن الكونت ليس هنا وأن القصر خاوٍ إلا من بعض الحراس، تأكد لهم أنه قد خان ملكه، فعولوا على العودة إلى إيْبيرِيَّة من فورهم وإخبار لُذرِيق بما كان، حتى إذا هموا بالخروج همس أحد الجند في أذن كبيرهم، فإذا به يعود للخلف ويأمر جنوده بحمل فلورندا معهم..

حاول أحد حراس القصر منعهم ولكنه ضُرب في صدره فسقط من فوره، وقبل أن يحاول ثانية هو وغيره كانوا قد أشهروا السيوف فعجز الحراس عن مقاومتهم، فحملوها من بينهم كاللصوص الرعناء.

وهي تصرخ في وجوههم: اتركوني أيها الخبثاء.. اتركوني أيها الجبناء ما لكم بي؟ ولكن لم تكن أذن تسمعها، بينما تعلقت أليفا بكبير الجند ورجته أن يصطحبها مع سيدتها فما كان منه إلا أن ركلها بقدمه وركض مع جنده ورحلوا على ظهر السفينة!

❀❀✽❀❀

(13)

عرشٌ مرتجف

هرع لُذرِيق إلى طُلَيْطِلَة شاعرًا بفداحة الخطر المحيق بعرشه وأمته، وما أن وصل حتى كان من أرسلهم إلى سَبتة قد عادوا على جناح السرعة، فلم يكد يستقر في قصره حتى دخل عليه أحد الجند ومعه فلورندا معصوبة العينين ومكممة الفم وقال: لقد تأكد لنا خيانة يوليان يا سيدي، بعدما اِنضم بجنده للمسلمين وترك سَبتة خاوية من الجند.

لُذرِيق: الخائن! لأقطعنه ولأذيقنه الويل جزاء خيانته. ثُمَّ نظر إلى الجندي وقال: ما هذا؟

الجندي: هذه ابنة يوليان يا سيدي، وجدناها بسَبتة فقيدناها، وأتينا بها إلى هنا لترى فيها يا سيدي ما ترى فهي بكل تأكيد خائنة كوالدها.

أظهرت فلورندا بعض الحركات وكأنها ترفض أن تكون هنا مرة أخرى.

لُذرِيق: فكوا وثاقها.. ثُمَّ أشار بيده أن يتراجعوا عنها.

قام أحد الجند بفك وثاقها ولكنه ترك ما على فيها من لثام، تحرك لُذرِيق واقترب منها وأمسك بشعرها وقال لها: أين أبوك؟ كيف له أن يخون ملكه.. ثُمَّ وبشدة رفع اللثام من على فمها لتنطلق فلورندا ونظرات الشذر تندفع من عينيها وهي تقول بكل قوة: لا خائن غيرك يا لُذرِيق، يا منتهك الأعراض وسافك الدماء.

لمعت عينا لُذرِيق من الغضب وقال: أيتها العاهرة القميئة، لا أدري كيف كنتُ مغرمًا بك من قبل؟ وما أنتِ إلا فتاة قبيحة دميمة.

فلورندا: لم أك يومًا قبيحة ولكن فعلتك هي القبيحة يا صَفِيق الوَجْهِ، فالقبح يسري فيك مجرى الدم فأنت شبيه بأفعالك المشوهة الدنيئة القميئة مثلك، ثُمَّ رفعت حاجبيها أكثر وقالت في تحدٍّ: لقد دنا يومك، واهتز عرشك، وقريبًا ستنال جزاءك.

لُذرِيق يتحاشى نظرات جنده مستديرًا للخلف ويقول: خذوها إلى قبو القصر، وأقيموا عليها الحرس حتى ترى مصرع أبيها بعينها، ومن ثُمَّ نقتلها على إثره.

فلورندا صارخة: بل أنا سأقتلك يا لُذرِيق وسأقضي عليك... سأقتلك يا لُذرِيق.

تحرك الجند بها وهي تصرخ بنفس مقولتها.

أمَّا لُذرِيق فلم يكد يتأكد من الخبر حتى كاد يجن جنونه، فبادر إلى جمع قواته وعلى الرغم من أن عرشه كان يرتجف فوق بركان من الخلاف، وكانت إيْبيرِيَّة قد مُزقت شيعًا وأحزابًا، يتطلع كل منها إلى انتزاع السلطان والملك، فقد اعتصم القوط حين الخطر الداهم بنوع من الاتحاد، واستطاع لُذرِيق أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم، فاجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم وصل عدده إلى مائة ألف مقاتل..

وكان من بين هؤلاء الأمراء ابنا غَيطَّشة، اللذان ما كان يحب لُذرِيق أبدًا أن يراهما أو يستعين بهما، ولكن حين الخطر نسي كل وساوسه وشكر لهما نهوضهما معه، حتى جعل منهما قائدين لجناحي الجيش، وقد أبدى الرجلان من الحماسة العجيب والعجيب حتى وثق بهما أيما ثقة، وسار لُذرِيق نحو الجنوب؛ للقاء المسلمين، حتى نزل مدينة «قُرْطُبة» وفي تلك المدينة توقف ليستكمل استعداداته ويرسل عيونه لمعرفة نقاط ضعف وقوة عدوه.

❀❀✤❀❀

الفصل السادس

نحنُ هنا مِن أجل حياة البشر، لا من أجل المغانم أو الأرض، وما قيمة الأرض لو فقدت مَنْ يعمّرها؟ إنَّما قيمة الأرضِ بقيمة مَنْ يحيا عليها.

(1)

معسكر المسلمين

حلقت طيور «البواشق الأوراسية» تجوب السماء فوق معسكر المسلمين بمدينة «شذونة Sidonia»..

وفي إحدى الخيام كاد يوليان أن يجن عندما دخلت عليه «أليفا» وهو جالس مع «الأب أوباس» فهبَّ فزعًا من حالتها التي يرثى لها وهي تبكي وتقول بصوت مكلوم: أدرك فلورندا يا سيدي.

يوليان مرتعدًا مما سمع: فلورندا! ما بها؟

أليفا: لقد أرسل إليها لُذرِيق مَن اختطفها إلى طُلَيْطِلَة.

يوليان مستهجنًا بتشنج: النذل الحقير، أما كفاه ما فعل بها حتى يأسرها مرة أخرى؟ ثُمَّ أردف بصوت أعلى: وحق السيدة العذراء لأمثلن بجسده النجس ولأقتلنه.

أوباس: تمالك نفسك يا رجل، فلن يفيد فلورندا ما تفعل الآن، اِجلس لنفكر بروية.

يوليان في أسى ممزوج بحنق: لم تكد المسكينة تتعافى من محنتها حتى وقعت في محنة أكبر، ولا أدري إن كان هذا البغيض سيعتدي عليها مرة أخرى أم يقتلها.

أوباس: هو في شغل عنها، وإنما أراد بأسرها أن يفت من عضدك ويساومك بها وقت الحاجة.

يوليان ضاربًا قبضة يده: جبان خسيس.

أوباس: اِعلم أن بفعلته تلك سيجمع القلوب عليه، وقد كان بعض النبلاء لا يؤيدون استعانتك بالعرب، أمَّا الآن فأنا على ثقة أنهم سيبدلون مواقفهم، وقد أيقنوا أن من يحكمهم ذئب لا إنسان لذا استبشر بالنصر وهزيمة لُذرِيق أيها الكونت.

❀❀✤❀❀

كان ماتيه لا يفتأ يراقب المكان وهو يجوب المعسكر، ويتفرس وجوه الجند؛ ليقف على استعداداتهم للحرب لا سيما بعد علمه بنزول لُذرِيق بالقرب منهم في «قُرْطُبة».

أمَّا طارق فما كاد يعلم ذلك ويقف على عدد جيش لُذرِيق من «الأب أوباس» حتى سارع بالكتابة إلى موسى بن نصير يستمده ويستنجده، فأمده موسى بخمسة آلاف مقاتل ليبلغ بذلك عدد جيشه اثني عشر عشر ألفًا يواجه بهم مائة ألف من القوط.

وبينما يتفقد طارق الجند؛ ليشاهد بنفسه تدريباتهم القتالية إذ وقف «ماتيه» بين يديه وقال وهو يلهث: لقد مُلئ المعسكر بالعيون يا طارق.

توقف طارق والتفت إليه وقال: كيف عرفت ذلك؟

ماتيه: لا يخفى عليَّ وجه الجاسوس أبدًا، كما لا يخفى عليَّ وجوه رجالنا.

طارق: كم عددهم؟

ماتيه: بضعة رجال.. ولو أردت أحضرتهم أمامك الآن.

صمت طارق للحظات وهو ينظر في الأرض ثُمَّ رفع رأسه وقال: بل دعهم.. دعهم ينقلون لسيدهم ما يرون.

ماتيه منفعلًا: أنتركهم يتجسسون علينا ويدلون على عوراتنا؟

طارق: اِفعل ما أمرتك به.

غادره ماتيه وهو يكاد يتميز غيظًا مما حدث ويضرب كفًا على كف...

وفي المساء.. ووسط المعسكر حضرت مجموعة من الطباخين وقال أحدهم بصوت مرتفع: لم يعد لدينا لحوم نأكلها أيها الأمير فماذا نفعل؟

طارق: لماذا لم تخبروني من قبل؟

الطباخ: لقد كان لدينا الكثير منها، ولما وصل المدد من إفريقية لم يسعنا جميعًا أن نأكل منه.

طارق وهو يهز رأسه وكأنَّه يفكر في حل: حسنًا، ثُمَّ التفت إلى ماتيه وسأله: كم عدد الأسرى لدينا؟

ماتيه: دون المائة يا سيدي.

طارق: مرحى مرحى.. لدينا الكثير من اللحم وأنتم لا تعلمون، يا ماتيه سلِّم الأسرى للطباخين.

ماتيه وقد فهم مراده: كما تأمر يا سيدي.

سمع الطباخون ذلك فتحركوا خلف ماتيه الذي توجه بهم إلى مكان وجود الأسرى، وسلمهم بعضًا منهم وفي صباح اليوم التالي خرج الطباخون ومعهم قدور ممتلئة بلحوم (لبقر وغنم ذُبحت في الخفاء) ونودي في المعسكر للاجتماع إلى الطعام، فأكل منها المسلمون بينما وقف الجواسيس حائرين، وكاد الرعب أن يقتلهم من هول ما سمعوا ورأوا!

بعد ذلك عاد ماتيه إلى طارق، وألقى إليه بنظرة إعجاب بعدما فطن سبب تركه للجواسيس في صفوف الجيش؛ إذ لم يشكوا أن المسلمين يأكلون الأسرى فتركوا المعسكر وهرعوا إلى لُذرِيق والخوف بادٍ على وجوههم فأشاعوا في معسكره ما كان، فملئت قلوب القوط رعبًا؛ وقد علموا أنهم قادمون على قوم يأكلون لحوم البشر!

(2)

التجهيز للحرب

استمر طارق بالحرب النفسية التي قد بدأها وبحيله لتحطيم الروح المعنوية للعدو، فأوحى إلى «ماتيه» بأن يبعد السفن عن الشاطئ القريب منهم، ثُمَّ أمره بجمع كومة كبيرة من الخشب في البحر، ويشعلها حتى يشيع في الجند أن طارق قد أحرق السفن.

وبهذا يعلم لُذرِيق أن المسلمين قد وطنوا أنفسهم على الموت في الجزيرة، فيدخل الرعب إلى قلبه، قبل أن يدخل إلى قلوب جنده.

وليشد طارق من عزم جنده جمعهم وقام فيهم خطيبًا وقال: «أيها الناس، أين المَفَرُّ؟ البحرُ من ورائكم، والعدوُّ أمامَكم وليس لكم واللَّهِ إلا الصدقُ والصَبْرُ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أَضْيَعُ من الأيتام في مَأْدُبَةِ اللِّئام، وقد اسْتَقْبَلَكم عدوّكم بِجَيْشِهِ وأَسْلِحَتِهِ، وأَقْواتُه موفورةٌ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفُكم ولا أقواتَ إلا ما تَسْتَخْلِصُونَه من أيدِي عدوِّكم، وإن امْتَدَّتْ بكم الأيامُ على افتقارِكم ولم تُنْجِزوا لكم أمرًا ذهبتْ رِيحُكم، وتَعَوّضَتِ القلوبُ من رُعْبِها منكم الجَرَاءَةَ عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خُذْلانَ هذه العاقبة من أمركم بِمُنَاجَزَةِ هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت..

وإني لم أُحَذِّركم أمرًا أنا عنه بنَجْوَة، ولا حملتُكم على خُطَّة أرخصُ متاعٍ فيها النفوسُ إلَّا وأنا أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلًا، استمتعتم بالأرفة الألذ طويلًا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فيما حَظُّكم فيه أوفر من حَظِّي.

وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الحورِ الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدُّرِّ والمَرْجَان، والحُلَل المنسوجة بالعِقْيَان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان..

ثُمَّ لبث يذكرهم بمسؤوليتهم ودورهم الكبير قائلًا: وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عُرْبانًا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارًا وأختانًا، ثقةً منه بارتياحِكم للطِّعَان، واستماحِكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حَظُّه معكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، ويكون مغنمها خالصًا لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم، والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذِكْرًا في الدارين..

أيها الناس، ما فعلت من شيء فافعلوا مثله، إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثُمَّ كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه، فإن قُتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا، فتفشلوا وتذهب ريحكم،

وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير، وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية، ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة، والراحة من المهنة والذلة، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا، والله معكم ومفيدكم، تبوؤوا بالخسران المبين، وسوء الحديث غدًا بين من عرفكم من المسلمين، وهأنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتي».

نفذت خطبته البديعة لقلوب الجند فسعدت بها النفوس، وتبادلوا نظرات الحماسة والتفاؤل، ثُمَّ دنا نيفان (أحد الجنود) من رفقائه وقال: والله، أشعر برياح النصر تهب علينا!

صطفور: لقد وقر في قلبي صدق هذا القائد، بل أدركت الآن أن كل ما سمعته عنه حقيقي.. ثُمَّ نهض وقال بصوت عال: قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه، فاحضر إليه فأنا معك وبين يديك.

العلاء: أمَّا أنا فإن كُتب لي عمر وعدت إلى دياري في دمشق، لأقصن كلماته تلك على مسامع القاصي والداني.

ربت نيفان على كتفه وقال: ستعود إن شاء الله.

صطفور رافعًا سيفه متفحصًا إياه: ألا وقد قال سيدنا لا وَزَرَ لنا إلا سيوفنا فلن يكون لي ملجأ غيره ولن أغمده حتى أظفر بنصر أو شهادة.

تحرك «طارق» بالجيش حتى نزل إلى سهل «الفرنتيره Frontera» على ضفاف نهر وادي لكة، واختار أن يكون الجبل عن يمينه ومن خلفه؛ وبهذا يحمي الميمنة وظهره، فلا يستطيع أحد أن يلتف حوله.

وبهذا الموقع الفريد يتم إجبار القوط على أن يحاربوا طارق بجزء من جيشهم وليس كل الجيش، وبعد أن اختار مكان المعركة وضع فرقة بقيادة «طريف بن مالك» جنوب «وادي لكة» أي في ظهر الجيش حتى لا يباغت أحد المسلمين.

أقبل لُذرِيق في أبهى زينة يلبس التاج الذهبي وقد جلس على سرير مُحلى بالذهب يجره بغلان، وعليه مظلة مكللة بالدر والياقوت، ومن حوله غابة من البنود والأعلام، وأحضر معه حبالًا محملة على بغال ليقيد بها الأسرى بعد أن يهزمهم لا سيّما وقد أخبرته عيونه بأن عدد المسلمين لا يتجاوز العشرة آلاف! أمَّا هو فبين يديه جيش عرمرم.

وقف المسلمون صفوفًا متراصة، في انتظار وعد الله، عليهم الزَرَدَ، من فوق رؤوسهم العمائم البيض، وبأيديهم القسي العربية، وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح الطوال،

فلما نظر إليهم لُذرِيق قال: هذه الصور التي رأيناها في بيت الحكمة! وتملكه الرعب منهم.

تراءى الفريقان لبعضهما بعضًا متربصين للحظة البدء، وطبول الحرب تقرع، و«يوليان» مع المسلمين يترقب حتى إذا حلَّ الليل وصل أحد الرسل من جيش القوط إلى معسكر المسلمين المتنبه وقال: أين قائدكم أريد لقاءه؟

توجه به الجندي نيفان إلى ماتيه الذي سأله: من أنت؟ وماذا تريد؟

الرسول: أرسلني سيدي سيزبوت برسالة إلى قائدكم.

ماتيه: أرني إياها.

مد الرسول يده وأخرج الرسالة وأعطاه إياها، فحملها ماتيه إلى خيمة طارق بينما أحاط بعض جند المسلمين بالرسول.

ماتيه: ماذا بتلك الرسالة يا طارق؟

طارق: ابنا غَيطَّشة أرادا أن يخبراني بموقفهما من لُذرِيق، وذكرا أنه كان خادمًا لأبيهما فغلبهما على سلطانهما، وأنهما غير تاركي حقهما لديه وسألاني الأمان، على أن يميلا إلينا عند اللقاء مع من تبعهما، مشترطين عليَّ أن أعيد لهما ضياعهما وأموالهما التي اغتصبها لُذرِيق.

وما كاد طارق أن يكمل حتى دخل عليه يوليان وكأنه سمع جزءًا من حديثهما فقال: أجبهما يا طارق إلى ما يريدان.

طارق: أواثق حقًا بهما أيها الكونت؟

يوليان: كما هي ثقتي بنفسي وبك تمامًا، فهؤلاء قوم موتورون، ولن ينصفهم غيرك، لقد استطاع الصفيق أن يملأ القلوب من حوله حقدًا وكرهًا عليه.

أعطى طارق الرسالة لماتيه وقال: قل للرسول أن يخبر سيديه أننا على العهد، وأن لهما ما طلبا.

❀❀✽❀❀

(3)

معركة شذونة

في معسكر لذريق وصل إلى مسامع الجند إحراق المسلمين لسفنهم، فعلموا أنَّ هؤلاء قتلى أو قاتلون، منهزمون أو منتصرون فلا حل ثالث لهم وقد أعدموا وسيلة الانسحاب الممكنة، وقد تنامى إلى الجند من قبل أن المسلمين من آكلي لحوم البشر فقد أكلوا الأسرى حينما جاعوا فوقع في قلوبهم الرعب قبل أن تبدأ المعركة..

أمَّا لُذرِيق فقد حاول دحض تلك المزاعم وراح يتحدث عن المسلمين كأنهم مجموعة من الرعاع فاستخف بهم، ووقع في نفسه أنها ساعة فقط ويقتلهم ويأخذ منهم أسرى.

وفي يوم الأحد الثامن والعشرين من شهر رمضان من سنة 92هـ وعلى ضفاف نهر «وادي لكة» جنوب بحيرة «خَندة Janda» الصغيرة المتصلة بنهر «بارباتي Barbate» الذي يصب في المحيط على مقربة من مدينة «رأس طرف الغار».

في هذا السهل الصغير (سهل البرباط) الذي تحده من الجنوب سلسلة من التلال، وما أن بزغت الشمس حتى تلاقى العرب والقوط، الإسلام والنصرانية، في معركة قوية فاصلة (هي أولى معارك المسلمين في غرب أوروبا بل هي أولى معاركهم في كل أوربا) استمر القتال إلى أن توارت الشمس بالحجاب ثُمَّ أصبحوا يوم الاثنين على الحرب، حتى المساء..

فرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة شغلت بالمعارك البسيطة، والنزلات الفردية التي انتصر المسلمون في كل واحدة منها، وكان من أنجاد تلك المبارزات «طريف بن مالك، مُغِيث الرومي، ماتيه، عبد الملك المعافري» ولله درهم في نهارهم صيام مجاهدون، وفى ليليهم بالتهجد والحراسة قائمين.

وفي اليوم الرابع خرج الكونت يوليان يصرخ بين الجيشين وقد فاض به الكيل، فرفع سيفه وقال: اخرج إلىَّ يا لُذرِيق فإنَّ لي ثأرًا عندك، اخرج ولننهي هذا الأمر، فإما أن تقتلني أو أقتلك، اخرج أيها النذل الجبان، اخرج يا هاتك الأعراض وعديم الشرف والمروءة.

سمع لُذرِيق ذلك الكلام وهو على سريره فأشار إليه وقال: من يكفيني هذا الخائن؟

بادر سيزبوت: أنا يا مولاي.

لُذرِيق: لا، فأنت ابن ملكنا العظيم ولا أريد أن نعطي يوليان أكثر مما يستحق، فليخرج إليه أحد أنجاد الفرسان.

ثُمَّ أشار إلى أحدهم فخرج إليه وبدأت بينهما مبارزة قوية، انتهت بفوز يوليان الذي أراد أن ينتقم بسيفه مِن كل مَن ينتصر للُذرِيق.

جن جنون لُذرِيق لما حدث وصرخ في خيمته: مَن هؤلاء حتى يصمدوا أمامنا أربعة أيام؟ إنهم مجموعة من الصعاليك.

بلايو مفصحًا عن رعبه: إنهم يقاتلون كما يقاتل الجان يا مولاي.

هاج لُذرِيق وقال صارخًا: غدًا تخرج إليهم بكل الجيش.. لا أريد أحدًا منهم حيًا.

بلايو: أمرك سيدي.

وفي اليوم الخامس.. اِلتحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة اشترك فيها كل قوات الجيش.. وظهر لُذرِيق وسط الميدان في حلل ملوكية فوق عرش تجره الخيل المطهمة، متوجًا باللآلئ، متشحًا بالحرير والذهب، مضطجعًا في سرير من العاج وحوله الخدم والحشم.

استمرت المعركة هائلة مضطرمة بين القوى النصرانية الضخمة، وبين القوة المسلمة المتواضعة نحو ثلاثة أيام أخرى، والمسلمون رغم قلتهم صامدون، لا يفتهم العدد، ولا يهزمهم الجزع، ولا يخشون الموت الأحمر بل يرون الجنة على أسنة رماحهم..

أمَّا الجيش القوطي فرغم كثرته إلا أنه كان مختل النظام منحل العرى، وكان يقود جناحيه إيفا وسيزبوت خصما لُذرِيق وتتكون صفوفه من أتباعهما وأتباع حلفائهما من الأمراء والزعماء الناقمين، الذين تظاهروا بالإخلاص وقت الخطر، وكلهم يتحين الفرصة للإيقاع بالملك المغتصب، فكانت الخيانة تنشب مخالبها في جيش القوط وتمزقه شر ممزق.

صهلت الخيل ولمعت السيوف وعلت الأتربة، وامتزجت بالدماء السائلة، وطارق يتحرك بفرسه هنا وهناك يتابع المعركة، ويقاتل بيده كأسد لا يرى إلا فرائسه، وبجواره ماتيه لا يبتعد عنه ويقاتل معه أينما قاتل، حتى إذا اِجتمع جنديان قوطيان لقتل طارق تولى ماتيه أمر أحدهما فجندله بضربة واحدة وجندل طارق الآخر، وحينها صاح ماتيه: اِحم نفسك أيها الأمير ولا تفجعنا فيك.

طارق: ما أنا إلا جندي منكم.

ماتيه: بل أنت أميرنا وقائد جيشنا، فلا يحق لك أن تخاطر بنفسك.

اِقترب طريف منهم وقال بصوت مرتفع: صدق والله ماتيه، فاحفظ نفسك يا طارق ولا تفجعنا فيك.

وفي تلك الأثناء حمى الوطيس وتقدم «بلايو» بجنده وكان يقود قلب جيش القوط فحمل على قلب جيش المسلمين، فتقهقر المسلمون للخلف من هول ما حدث حتى أصبح جيشهم كالهلال فأطرافه متقدمة وقلبه متأخر للخلف، وبلايو يحث مقاتليه على التقدم مِن خلفهم.

زاد الهجوم ضراوة واشتد الحراك وثار الغبار فتقهقر المسلمون أكثر وأكثر عندها لم يجد طارق إلا أن ينزل من على صَهْوة جواده ويصيح: اللَّهُ أَكْبَرُ.. وكذا فعل ماتيه فطريف، فارتفعت الصيحات وعلت الصرخات، وراح طارق يضرب بسيفه يمينًا ويسارًا يجندل كل من يقترب منه، عندها دبت الروح في قلب جيش المسلمين فحملوا على قلب جيش لُذرِيق، وبدأ قتال عظيم تكسرت فيه السيوف والرماح، واقتدى جند المسلمين ببسالة قائدهم وطلبه النصر أو الشهادة فاستقتلوا وأظهروا شجاعة وجُرأة.

فتقدم «صطفور» للأمام وقال بصوت عالٍ: «هبي رياح الجنة»، واندلث مندفعًا، فاخترق بفرسه صفوف جيش القوط فصرع وطرح أرضًا عددًا كبيرًا منهم؛ لذا ذُعروا كيف لجندي أن يخترق صفوفهم بسيفه؟! فاجتمعوا حوله وتكالبوا عليه، أسرع صديقاه «نيفان والعلاء» بمحاولة إنقاذه عندما شاهدا الهجوم عليه، فتقدما شاهرين السيوف نحوه، ففضوا بها تكاثر القوط عليه.

وبينما تدور المعركة هائلة هكذا وقلب المسلمين يتقدم للأمام، حتى انتظمت صفوف الجيش مرة أخرى وعادت كما كانت أول المعركة، فتبدل السجال، وصال رجال المسلمين على قلب جيش القوط فتقهقر للخلف عندها أمر لُذرِيق طرفي جيشه بالضغط على جناحي جيش المسلمين.

وصلت أوامر لُذرِيق إلى قائدي الجناحين إيفا وسيزبوت فما كان منهما إلا أن ابتسما ابتسامة ماكرة ونظر سيزبوت إلى لُذرِيق وهو جالس على كرسيه، وقد ظن أن ابني غَيطَّشة سيتقدمان لإنقاذ عرشه، فإذ بهما يتقدمان وينحازان إلى جيش المسلمين فاستقبلهم طارق ويوليان بالترحاب وسط ذهول من لُذرِيق الذي صرخ وقال بصوت عالٍ: خيانة، خيانة!

دب الخلل في جيش القوط وأسقط في أيديهم، وقد شاهدوا انحياز جناحي الجيش إلى المسلمين، كما نجح يوليان أن يستميل الكثير من جند القوط وكذا فعل الأب أوباس، واستطاعا بث كثيرٍ من عوامل الشقاق والتفرق في الصفوف الموالية للُذرِيق، فأخذ كل أمير يسعى إلى سلامة نفسه.. وتمكن الجيش الإسلامي على ضآلة عدده، بجلده وثباته

واتحاد كلمته من جيش القوط، فلم يأت اليوم السابع من اللقاء حتى تم النصر لطارق وجنده، وهُزم القوط شر هزيمة، وشُتتوا ألوفًا في كل صوب.

أمَّا لُذرِيق فقد شعر أنه أحيط به وانكشف من كل اتجاه، فقد جرى كل شيء عكس توقعه، فاتسعت عيناه ذعرًا، وعض على نواجذه محدثًا نفسه: ما هذا؟! أهو كابوس آخر أم حقيقة؟ ولم يكد يكمل ما يقول حتى تقدم منه بلايو وقال: اِنج بنفسك يا سيدي فقد حُسم الأمر.

وما أن سمع لُذرِيق هذا حتى وثب من سريره وخلع رداءه ولاذ بالتخفي بين القتلى والمصابين ترتعد فرائصه وهو يطأ بقدمه رايات القوط الملقاة على الأرض، حتى فر من المعركة وخلفه ثلة من رجاله وهو لا يلوي على شيء.

اِلتقط طارق أنفاسه وأخيرًا وبعد ثمانية أيام من القتال الرهيب وضع سيفه في غمده، وراح يكتب لموسى بالنصر، كما أمر بجمع الغنائم، وإحصاء عدد القتلى، فوصل عددهم زهاء ثلاثة آلاف شهيد، جُمعت جثامينهم، وحفر الجنود قبور رفقائهم في مشهد يكتنفه جلال الموت ووطأة الفقد، وقد التحمت مشاعر الحزن على فقدانهم والفرح لحسن خاتمتهم.

ربت «العلاء» على كتف «نيفان» الذي هام بنفسه على جسد صديقهما «صطفور» وقد غطته الدماء وقال: رحم الله أخانا؛ لقد فاز ورب الكعبة.

نيفان منهمرًا في بكائه: لقد كان كالجبل الصامد لا يهزه شيء، وقد رأيته يستبسل في ضربه وقد أبلى بلاءً حسنًا وأصاب منهم الكثير، ثُمَّ جثا على ركبتيه ومسح على رأسه يقبله على جبينه هامسًا قرب أذنه: إلى جنة الخلد يا أخي، وإني بك إن شاء الله لاحق.

العلاء مرتلًا بصوت شجي: إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

حمله نيفان بين ذراعيه ووضعه في قبره وهو يقول: بسم الله، وعلى ملة رسول الله ﷺ.

أرسلت عيون طارق الدمع تنعي قتلى المسلمين، وردد لسانه إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ وهو يواري التراب على أجسادهم، وقد فاحت منها رائحة المسك، وعلامات البشر على وجوههم التي فارقتها الحياة، فأوقد ذلك في المجاهدين يقينًا بأنهم نالوا أجر الشهادة، مما أشعل حماسهم وعزمهم على مواصلة ما بدأوه.

وقد كانت دماؤهم الطاهرة هي أول دماء زكية تجري في نهر التضحية الذي فاض في الأندلس، وروت أرض إيْبيرِيَّة، وأصبح لكل صلاة تُصلى بعد ذلك لهم فيها نصيب، بل وكل حسنة من حسنات أهل تلك الأراضي تصب في ميزان طارق وجنده الأحياء منهم والشهداء.

وعلى أرض المعركة وقد خبا أوارها، بينما طارق لم يبرح مكانه تقدم منه يوليان وقال: يجب أن نلحق به قبل أن يلتقط أنفاسه ويعيد تجميع صفوفه.

ماتيه: ربما نحتاج نحن إلى التقاط أنفاسنا أيها الكونت.

طارق: صدقت أيها الكونت، ثُمَّ نظر إلى ماتيه وقال: لُذرِيق يحتاج الوقت أكثر منا، فلا نعطيه إياه فيجمع لنا عددًا وعدة، ونحن منقطعون هنا عن باقي بلادنا، فيجب علينا التحرك فورًا واغتنام الفرصة والوقت وما أصاب القوط من تَشرذُم وتشتت.

ماتيه: لكن لا أحد يدري اتجاه الرجل وقد فر هاربًا.

طارق بلهجة حازمة: عليك تعقب أثره وائْتِني بخبره، ربما لا يزال قريبًا ولم يبتعد بعد.

انصرف ماتيه فاستطرد طارق (مشيرًا إلى جهة الشمال): ربما من الصواب أن نجتمع ونسير صوب طُلَيْطِلَة لفتحها.

يوليان: تعلمون جميعًا حرصي عليكم، وإن كنت على غير دينكم.

طارق: لا نشك في ذلك أيها الكونت.

يوليان: لهذا أرى وأنا الخبير بتلك البلاد، وربما حريص أكثر منكم على قهر لُذرِيق وقواته أن نستغل ضعف القوط، فتقسم الجيش إلى فرق، تذهب كل فرقة إلى ناحية بينما تذهب بنفسك إلى طُلَيْطِلَة حيث تجتمع معظم قوات القوط.

سيزبوت: ولكن ماذا عن فلورندا أيها الأمير؟

طارق: سنقسم الجيش إلى أربع فرق، واحدة بقيادة مُغِيث الرومي وهذه تتجه إلى «قُرْطُبة» القريبة من هنا، والثانية بقيادة طريف بن مالك، وهذه تتجه إلى «غرناطة»، وثالثة تتجه إلى «مالقة»، ورابعة سأقودها أنا وأتجه بها صوب طُلَيْطِلَة، وسيكون معي الكونت يوليان وأنت أيها الأمير (مشيرًا إلى سيزبوت) سيكون عليك أن تنقذ فلورندا.

❀❀✽❀❀

(4)

فتح قُرْطُبة

سار «مُغِيث الرومي» ومعه الأدلاء حتى وصل إلى «قُرْطُبة "Córdobaوهناك كمن بين الزروع في منطقة تقع بين «شقندة وقرية طرسيل» على بُعد ثلاثة أميال من قُرْطُبة، ثُمَّ أرسل عيونه إليها، فعادوا له بأحد رعاة الغنم وقد ساقوا معه غنمه، وما أن دخل الرجل على مُغِيث مفزوعًا خائفًا، حتى هدأه وطمأنه وقال له: لم نأت إلى هنا لسرقة أغنامك أو قتلك.

الراعي: فلم إذًا أنا هنا يا سيدي؟!

مُغِيث: إنما نحن هنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، بعدما علمنا الكثير عن ظلم القوط لكم.

الراعي ملتفتًا حوله: فلماذا أمسك بي جندك أيها الأمير؟

مُغِيث: لنسألك عن قُرْطُبة وأحوالها.

الراعي: أمَّا قُرْطُبة يا سيدي فقد رحل عنها عظماء أهلها.

مُغِيث: إلى أين؟

الراعي: إلى طليلطة يا سيدي.

مُغِيث: فمَن بقي فيها؟

الراعي: حاكمها مع أربعمائة فارس ظلوا لحمايتها مع الضعفاء من أهلها، الذين أجبرهم الحاكم على حمل السلاح.

ضاقت عينا مُغِيث المحدقة وهو يستدرجه: فهم معه بسيوفهم عليه بقلوبهم؟

الراعي: هو كذلك يا سيدي، فقد نقم عامة الشعب على أمراء القوط يأكلون من خيرات البلاد حتى إذا جاء الخوف، تركوا البلاد وفروا منها وكلفونا الدفاع عنها.

مُغِيث: وكذلك كل الجيوش الغاشمة عديمة الهدف والغاية، تأكل خيرات البلاد وتنهبها حتى إذا حان الوقت فروا وتركوا الخراب والدمار خلفهم، وقد أسلموها للأعداء، فلا هم دافعوا، ولا هم تركوا تلك المهمة لغيرهم.

الراعي: صدقت أيها الأمير، لم يكن أحد منا يجرؤ على الاقتراب منهم أو الحديث إليهم، فهم يعدون أنفسهم في مرتبة فوق باقي البشر، ولقد عرفناهم البطش كلمتهم والظلم دولتهم.

مُغِيث: لقد قال لي الرجال أن لقُرْطُبة أسوارًا عظيمة. فماذا ترى؟

صمت الراعي لحظات وكأنه يفكر أو يوازن بين الأمور، ثُمَّ قال: أجل إن لقُرْطُبة أسوارًا عظيمة حصينة، ولكن لكل قوى نقطة ضعف يا سيدي.

مُغِيث: وما نقطة ضعف تلك الأسوار؟

الراعي: هناك فوق باب القنطرة توجد ثغرة لو تمكنتم منها لفتحتم قُرْطُبة.

مُغِيث متلقفًا لما يبحث عنه: ثغرة!

الراعي: أجل يا سيدي.. فالبناء هناك هش جدًا لو دفعتموه بقوة لسقط ولنفذتم إلى قلب المدينة، أو ربما تستطيعون تسلق جدرانه فتدخلونها.

مُغِيث لرجاله: خذوا هذا الراعي وأحسنوا له، ولا تضروه في غنمه وماله.

الراعي: ألا تطلقني يا سيدي؟

مُغِيث: حتى ندخل المدينة.

وفي المساء ركب مُغِيث ورجاله خيلهم، وأقبلوا نحو المدينة، وقد وطّأ الله لهم أسباب الفتح، بأن أرسل من السماء رذاذًا من المطر أخفى دقدقة حوافر الخيل، وأقبل المسلمون رويدًا كي يعبروا «نهر الوادي الكبير Guadalquivir» فساروا كالظلال المتسحبة في تلافيف الظلام، وهم يلتحفون الليل البارد، ويجوبون في عتمته.

وترجّل القوم حتى عبروا النهر وهم يجرون خيولهم غير مبالين بوحل يطأونه، وبلل قارص يصيبونه، وهكذا أصحاب العزائم والهمم العالية يتجاوزون الصعاب لنيل المراد ويقوون على ما لا يتحمله غيرهم.

فلما جاوزوه، لم يكن بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعًا أو أقل، وكان المطر جندًا من جنود الله في تلك الليلة فسبقهم وصولًا، وبسببه قد أغفل حرس المدينة اِحتراس السور فلم يَظهروا عليه ضيقًا بالذي نالهم من المطر والبرد.

عندها نادى مُغِيث فجيء له بالراعي فسأله: أين تلك الثغرة؟

الراعي مشيرًا بيده: هناك يا سيدي فوق باب الصورة.

توجه مُغِيث وجنوده صوب إشارته، وقد راموا التعلّق بالأسوار؛ فإذا بها غير مستهلة التسنّم، فلم يجدوا متعلّقًا يمكنهم من الصعود.. فنظروا في أسفلها فإذ بشجرة مكنت أفنانها من التعلّق بها، فصعد رجل من أشدّاء المسلمين في أعلاها، ونزع مُغِيث عمامته فناوله طرفها، وأعان بعض الناس بعضًا حتى كثروا على السور..

وقف مُغِيث من الخارج يراقب وقد ركب خيله، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس، ففعلوا، وقتلوا نفرًا منهم، وكسروا أقفال الباب وفتحوه، فدخل مُغِيث ومن معه وملكوا المدينة عنوة..

لما بلغ والي المدينة دخولهم إليها بادر بالفرار عن البلاط في أصحابه، وهم زهاء أربعمائة، وخرج إلى كنيسة بغربيّ المدينة وتحصن بها، وكان الماء يأتيها من تحت الأرض من عين في سفح جبل، فأقام مُغِيث على محاصرة العلج الهارب بالكنيسة ثلاثة أشهر، حتى ضاق من ذلك.

وتوصل مُغِيث بوشاية من أحد رجال صاحب قُرْطُبة إلى سر عين الماء، ومن أي ناحية يأتيهم، فأمر أهل المعرفة بطلب تلك القناة في الجهة التي أشار إليها الواشي حتى أصابوها، فقطعوها عن جريتها إلى الكنيسة، وسدّوا منافذها، فأيقنوا الهلاك حينئذ، فدعاهم مُغِيث إلى الإسلام أو الجزية، فأبوا عليه فأوقد النار في الكنسية، فما لبثوا أن سقطت فوق رءوسهم فنزلوا عنها، فتُمكن منهم وأسروا جميعًا وسميت (كنيسة الأسرى).

غير أن أميرهم رغب بنفسه عن بليتهم عند إيقان الهلاك ففرّ عنهم وحده، وقد استغفلهم ورام اللحاق بطُلَيْطِلَة، فنما خبره إلى مُغِيث فبادر الركض خلفه بمفرده، وطارده مطاردة عنيفة بلا هوادة..

حتى لحقه بقرب قرية «تطليرة» هاربًا وحده، وتحته فرس أصفر ذريع الخطو سريع العدو، فالتفت أمير قُرْطُبة ودُهش لما رآه قد رهقه ولحق به، فصاح به مُغِيث: لتخسأ أيها العلج الهارب، ففزع وزاد في حث فرسه فأتى خندقًا فوثب به الفرس فسقط عنه في الخندق واندقت عنقه، فأقبل مُغِيث والعلج جالس على ترسه مستأسرًا مستسلمًا وقد هاضته السقطة فانكسر وأذل، فأسره قابضًا عليه كأسد ممسك بأرنب جبان فسلبه سلاحه، وحبسه عنده ليقدم به على أمير المؤمنين «الوليد».

وصل خبر حاكم قُرْطُبة إلى المجاهدين في أنحاء إيْبيرِيَّة فسروا بذلك أيمَّا فرح، ريثما أدركوا أن مُغِيث تحمل القدر الأكبر من الفتح، بقدر ما تخنث حاكم القوط وألحق بقومه عار الهزيمة، فانتعشت نفوسهم عزًا وزهاء وحق لهم أن يفتخروا؛ وقد رفع رأسهم وذاع بأسهم.

❀❀✽❀❀

(5)

القلعة الحصينة

جلست «فلورندا» منزوية داخل محبسها في قبو القصر بطُلَيْطِلَة تنظر مِن حولها سجناء آخرين، وكل منهم لديه مظلمة عند لُذرِيق، بل حتى مجرد الشك في مَن ليس داعمًا لحكمه يزج به على الفور في غيابات السجن، حتى اكتظت بهم السجون، فلا أحد يوقفه ولا هناك من يردعه.

ما أشقها من لحظات! على ابنة حاكم سَبتة التي تربت مع الأمراء وعاشت حياة القصور، ولكن الدنيء لا يفرق، فالكل في المعاداة سواء، ولا حرمة ولا كرامة عند غضبه لكائن من كان.

شردت بذهنها قائلة: كيف لم أشعر بهؤلاء الناس من قبل؟! لقد عشت في هذا القصر أيامًا عدة ذقت فيها من الترف والنعيم، ولم يخطر ببالي يومًا أن له دركًا أسفل فيه أناس يتجرعون الظلم والقهر، لقد خُدعنا في مظهر هذا اللُذرِيق أول ما رأيناه، وقد استضافه أبي في قصرنا ورحب به، كما خدع ملكنا السابق غَيطَّشة فالتف حوله كثعبان غادر وألقى إليه بسُمِّه.. آه لو كنا نعلم ما يُخفيه من وجه قبيح، ما احترمناه يومًا ولكن لم يعد ينفع الندم..

ما لي أشعر بالذنب تجاه هؤلاء البسطاء الذين هُضمت حقوقهم دون أن يشعر بهم أحد! أمن المعقول أن كل ما حدث معي هو ذنب السكوت عن معاناتهم؟!

وبينما هي غارقة في بحر أفكارها، تجابه وساوس مخيفة حيال وضعها ووضع والدها الذي خرج لملاقاة لُذرِيق وجيشه.. إذ فُتحت أبواب السجن ودخل أحد جنود الطاغية وجذبها من ذراعها فصرخت: إلى أين تأخذني؟

الجندي: سيري صامتة، وإلا قيدتكِ.

لاذت فلورندا بالصمت، وسارت معهم في ممر ضيق حتى وجدت نفسها خارج القصر، فسُرت لذلك فمجرد هوائه عبئًا عليها، ولكن سرعان ما عصبوا عينيها ووضعوها في عربة تجرها الخيل.. ركبت في هدوء تتنصت لحديثهم، ولكن لم تفسر شيئًا سوى كلمة القلعة الحصينة فعلمت أنها في طريقها إلى هناك.

❀❀✽❀❀

ببشاشة ووجه طلق اِستدعى «موسى بن نصير» كاتبه ليكتب له تقريرًا مُفصلًا يرسله إلى الخليفة «الوليد بن عبد الملك» في دمشق ليزف إليه البشارة التي وصلته للتو فبين يديه كتاب طارق يخبره بالفتح العظيم، وبأن الطريق بات مفتوحًا للولوج إليه.

في الوقت نفسه تناهى إلى أسماع المُسلمين في المغرب والشَّام ومصر بانتصار طارق بن زياد، وقد أحدث الخبر دويًا هائلًا، فعلى المنابر وقف الأئمة يدعون له بمزيد من الفتوح ويرتلون ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فتحمس الناس وتطوَّعوا من كُل جهة لِلحاق به، وخاصة أهل «بر العدوة» خرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب للمُساهمة معهُ في فتح الأندلُس محتسبين أجرهم عند الله.

من جهة أخرى أرسل موسى لطارق بأن يلزم مكانه، وألا يتوغل في عمق إيْبيرِيَّة خشية عليه أن يحاصر فتزهق أرواح المجاهدين معه.

❀❀✽❀❀

قصد طارق ومعه أبناء غَيطَّشة وحليفه يوليان طُلَيْطِلَة وما أن تحركوا حتى تقدم سيزبوت صوب طارق وقال: يجب أن ننقذ فلورندا أيها الأمير، وإن كنت ترى أن ذلك الأمر لا يعنيك، فعلى الأقل تقتل لُذرِيق.

شدَّ طارق رسن حصانه فأوقفه ونظر إليه وقال: مَن قال أن حياتها لا تعنينا؟! إن حياة أصغر فرد في هذا الكون تعنينا أيها الأمير، نحن هنا من أجل حياة البشر، لا من أجل المغانم أو الأرض، وما قيمة الأرض لو فقدت مَن يعمّرها؟! إنما قيمة الأرض بقيمة مَن يحيا عليها.

سيزبوت وقد بدأت الدهشة تدب في ملامحه: فهل سيتحرك الجيش من أجل فلورندا؟

طارق: لقد تقفينا أثر لُذرِيق وعلمتُ أنه قريب من هنا يختبئ بقلعة حصينة.

يوليان: إذًا لم نحن هنا الآن؟

طارق: يجب أن نؤمن ظهورنا أيها الكونت قبل أن نوغل في البلاد، أما وقد حدث ذلك فسوف نتحرك الآن صوب القلعة على أن نتبعها بطُلَيْطِلَة.

ثُمَّ لكز طارق بطن جواده وتحركوا جميعًا من خلفه صوب القلعة الحصينة التي حبس فيها لُذرِيق فلورندا.. وما أن جنَّ الليل حتى كان الجيش يحاصر كل أسوار القلعة.

أمَّا ماتيه فقد مارس هوايته في التعرف على نقاط ضعف القلاع والحصون فدار حولها ثُمَّ عاد إلى طارق الذي عرف من إشارة صديقه ما يريد قوله، فبادره: خذ ما يكفيك من الرجال وافتح لنا تلك الأبواب.

وما هي إلا ساعات قليلة حتى سُمع صوت السيوف والتكبيرات من خلف الأسوار، ثُمَّ فُتحت الأبواب ودخل طارق ومن معه إلى القلعة.

أمَّا «سيزبوت» فقد هرول إلى داخلها لا يرى خطرًا إلا عليها، يبحث عن حبيبته شاهرًا سيفه، يجندل به كل من وقف أمامه من جنود لُذرِيق بحماسة وشجاعة تطيح بكل من يعترضه، حتى إذا وصل إلى إحدى الغرف في آخر القلعة ووجد بابها مغلقًا فحاول كسر المزلاج بسيفه، فإذا بفلورندا تصرخ وتقول: أنقذني يا سيزبوت.. أخرجني من هنا.. أنقذني يا أبي.

وكان لُذرِيق قد احتمى بجسدها في الغرفة التي سُجنت فيها تحسبًا لمن سيلحق به، وبينما سيزبوت يحاول فتح الباب ومعه بعض الجند، إذ لحق بهم يوليان ومعه طارق وما هي إلا لحظات حتى دفع طارق الباب بقدمه فكسره وفتحه على مصراعيه..

فأسرعوا بالولوج للغرفة فإذا بلُذرِيق يمسك بالفتاة ويضع السيف على رقبتها وهي تستنجدهم بعينيها.

أشهر طارق ويوليان وسيزبوت كل سيفه في وجه لُذرِيق وتبعهم في ذلك بضعة جنود آخرين.

يوليان غاضبًا وأنفاسه تتصاعد من إثر مبارزة الجنود: دعها أيها الجبان.

لُذرِيق وهو ما زال في سكرة سلطانه: ما لكم أيها الأوغاد الأرذال، اجتمعتم على أسد جريح وقد كنتم قبل ذلك تهابونه وتخشون غضبته؟ أنسيتم أنكم أمام ملك القوط وحاكم البلاد؟

طارق: أرسلها يا لُذرِيق فلا فائدة مما تفعل.

ظل العرق يتصبب من لُذرِيق وهو محتضن لفورندا وممسك بها، وكلما اِقترب منه أحد تراجع للخلف حتى يؤمن ظهره، ثُمَّ قال: دعوني أخرج من هنا وإلا قتلتها.. وصرخ فجأة: سأقتلها أيها الجرذان.

وبالفعل تراجعوا للخلف وصراخ لُذرِيق وفلورندا يملآن المكان، وبينما هم كذلك، إذ أخرجت فلورندا من طيات ثيابها خنجرًا وطعنت به فخذه، فدفعها بقوة من فوره؛ فسقطت على الأرض، وترنح لُذرِيق والدماء تسيل منه، وهو مرعوب مذعور يتراجع إلى الخلف، وبسرعة خاطفة تقدم منه سيزبوت وطعنه بسيفه فاخترق السيف أحشاءه فسقط السيف من يده فرفع يوليان سيفه وقطف به رأس لُذرِيق..

أمَّا فلورندا فقد ظلت هاوية على الأرض مرتجفة ترتعش لا تقوى على قول أو فعل.

❀❀✤❀❀

(6)

فتح طُلَيْطِلَة

لكز طارق بطن جواده وسار إلى «طُلَيْطِلَة Toledo»، ومعه رجاله وصديقه ماتيه والكونت يوليان، وكذا زوجته أم حكيم التي ركبت فرسًا وبقيت في مؤخرة الجيش مع باقي نساء المسلمين، تحرسهن فرقة قوية من الجيش..

وكان في جملة النساء ابنة يوليان ومعها جاريتها أليفا، وقد وجدت لنفسها بينهن ملاذًا آمنًا وأنيسًا مطمئنًا؛ وذلك لسماحتهن البالغة فقد اِحْتَضَنَّها، ورَاعَيْنَها كما لو أنها منهن فهوَّنَّ عليها هول ما مرت به..

تحرك الحشد صوب طُلَيْطِلَة حتى إذا اِقتربوا منها نظر طارق لجيشه وقال: اِضربوا الخيام هنا.

يوليان: لماذا الآن وقد شارفنا الوصول إلى طُلَيْطِلَة؟

طارق: حتى نستريح قليلًا أيها الكونت فإذا دخلناها كنا على أهبة الاستعداد للحرب.

ماتيه: هل سننتظر زحف بقية الجيش يا سيدي؟

طارق: لن ننتظر ولن نستدعي بقية الجيش يا ماتيه فنفقد عنصر المفاجأة.

ماتيه: قلت من قبل إن القوط ربما يتجمعون في طُلَيْطِلَة، ثُمَّ ها أنت تهون من الأمر!

طارق: لم أهون من الأمر، وما زلت أظن أنهم سيجابهوننا بقوة كبيرة فيها، ولكن إن نحن تأخرنا حتى يكتمل جمعنا فسنفقد عنصر المفاجأة، كما أننا لا نستطيع سحب الحاميات الموجودة في الجنوب، في «قُرْطُبة، ومالقة» فلا نأمن وقتها على ظهورنا، ولو تركنا تلك البلاد بعد أن دانت لنا، سيفت ذلك من عضد جندنا ويزيد الأعداء قوة.

انصرف الجميع لضرب الخيام فاقترب ماتيه من طارق وقال: أعلم أن رأسي هذا سأفقده من جراء إلقائك بي ونفسك في تلك الحروب الضارية.

طارق مبتسمًا: بل النصر إن شاء الله.

ضُربت الخيام وعسكر الجيش بعد أن تم ترتيب الحراسة عليه..

وفي إحدى الخيام جلست فلورندا وأم حكيم ومعهما أليفا، حتى إذا مر بعض الوقت صرن نيامًا وحق لهن الراحة بعد وقت طويل قضينه على ظهور الخيل، ولكن نومة فلورندا لم تكن هنيئة فقد جاءها لُذرِيق كالكابوس يجثم على أنفاسها، وهو يحاول من

جديد الاعتداء عليها، بدأت تتحرك في فراشها مُتأزِّمة والعرق يتصبب منها، وفجأة استفاقت وبكل قوة قالت: ابتعد عني أيها الشيطان... ابتعد عني.

ثُمَّ صرخت مستنجدة ومستغيثة: أبي... سيزبوت... أليفا أنقذوني.

أحدثت صرخة فلورندا جلبة أيقظت أم حكيم وأليفا التي راحت تقول لسيدتها: اطمئني يا حبيبتي لا أحد هنا.. لقد قُضيَ عليه لم يعد موجودًا.

ناولتها أم حكيم كأسًا من الماء، فنظرت فلورندا محدقة إلى وجهيهما لتتحقق أنه مجرد حلم، والدموع تنهمر من عينيها بغزارة وهي تقول: اللعنة عليه.. اللعنة عليه.

أم حكيم: لقد انتهى أمره يا فلورندا.

فلورندا: ولكن ما فعله بي لم ينته، وأظنه لن ينتهي ثُمَّ أجهشت بالبكاء.. وفي تلك الأثناء كان «سيزبوت» يقترب من الخيمة ليطمئن عليها، فلما سمع بكاءها لم يتمالك نفسه واستأذن للدخول وما أن دخل حتى قال وهو يمسح دموعها: ما الذي أبكاكِ يا حبيبتي؟

فلورندا: لا أريد دخول طُلَيْطِلَة يا سيزبوت، أرجوك أريد العودة إلى سَبتة.

سيزبوت: نَفسي فِـداؤك يا حبيبتي.

فلورندا: أريد العودة يا سيزبوت، لا أريد مكانًا يذكرني بتلك الأيام المريرة.

سيزبوت: ولكن طُلَيْطِلَة عاصمة مُلكنا يا حبيبتي.

فلورندا: في يوم من الأيام قدمت إليها من أجلك، والآن أطلب منك أن تتركها من أجلي.

سيزبوت: من أجلك أصعد الجبال، وأخوض البحار، وأجوب الصحراء، فقط أطلب منك بعض الوقت لنسترد أملاكنا التي سلبها لُذرِيق وبعدها نعيش معًا في أي مكان تختارينه بعيدًا عن طُلَيْطِلَة.

❀❀✽❀❀

(7)

مقاطعة مُرسِيَة

داخل حصن مدينة «مُرسِيَة Murcia» صاح حاكمها الدوق «تيودمير Theodemir» في جنده المصطفين بكثافة: لن نبرح عن أرضنا شبرًا سنقاتل حتى نفنيهم أو يعودوا من حيث أتوا، اليوم.. يوم القتال.. يوم الجسارة.. يوم لا مكان فيه للجبناء.. فهل أنتم مستعدون؟

صاح جنده في صوت واحد ملوحين بأسلحتهم: أجل جاهزون. ثُمَّ تقدم الصفوف وفتحت أبواب الحصن فخرج ومن ورائه جنوده، ليواجهوا الفرقة التي أرسلها طارق وكانت قد وصلت إليهم بعدما تمكنوا من فتح «غرناطة».

اِلتحم الجيشان واشتد القتال في حومة الوغى، وواجه الدوق تيودمير المسلمين بشجاعة وصبر في موقعة طاحنة حُطم فيها جيشه الكثيف تحطيمًا، ففر مع خادم له وعاد على أعقابه إلى مدينته يجر خيبات الهزيمة.

وفى قصره جلس على كرسيه يلتقط أنفاسه وهو يفكر كيف يلقن المسلمين درسًا (وقد كان من الحزم والإرادة بمكان)، حتى إذا مر بعض الوقت صاح في خادمه وقال: اِحص لي من تبقى حيًا من رجال المدينة واجمعهم هنا حول قصري.

الخادم مغمومًا وبصوت رخيم: لقد مات كل شباب المدينة يا سيدي ولم يبق داخلها إلا النساء والصبيان.

هب تيودمير واقفًا وقد انتفخت أوداجُه قائلًا: وهل سننوح عليهم كالنساء.. ثُمَّ دار في مكانه وكلمته الأخيرة تترد في ذهنه فقال: أجل النساء، والتفت إلى خادمه: اِسمع لا وقت لدينا، اِجمع لي نساء المدينة كلهن، هيا أسرع.

تولى الخادم الأمر وأحدث نفيرًا في أنحاء المدينة فاحتشدت جموع النساء بساحة قرب القصر، وخرج عليهم تيودمير وهو ما زال بزيه الحربي وقال: عليكن حماية بيوتكن وأهليكن فلترتدين ثياب الرجال، وضعن الخوذ على رءوسكن والشعور فوق الذقون كاللحى، ثُمَّ سلحهن بقصب يشبه الرماح، ووزعهن على أسوار المدينة فتكاثرن عليها ومعهن بضعة شيوخ.

فلما اِقترب المسلمون في دغَش الشفق، أُسقط في أيديهم لما رأوا من قوة الدفاع عن المدينة، وبعدئذ حمل تيودمير بيده راية الهدنة، وألبس خادمه عباءة يلبسها السفراء،

وذهبا لمفاوضة القائد المسلم الذي لم يعرف أنه الدوق الحاكم وظنهما رسولين فأحسن استقبالهما.

جلس الدوق تيودمير في خيمة قائد المسلمين أمام أسوار المدينة متنكرًا بهيئة رسول وقال: لقد قدمت نائبًا عن حاكم المدينة؛ لأفاوض في شروط تليق بعظيم تسامحك وشرف منزلته، فها أنت ترى المدينة جديرة بأن تثبت أمام حصار طويل، ولكن الحاكم شديد الرغبة في الإبقاء على حياة جنوده.

القائد: ما هي شروط الحاكم؟

تيودمير: عِدنا بأن يغادر الرجال المدينة أحرارًا دون أن يمسهم سوء، نسلمها إليك غدًا بغير حرب، وإلا فقد وطدنا العزم على القتال إلى آخر رجل.

القائد: حسنًا كما تقول.

ثُمَّ وضعت شروط التسليم كما أحب، وبعد أن ختمها القائد وأمضاها تيودمير التفت إلى القائد قائلًا: انظر إليَّ فأنا حاكم المدينة.

وعند بزوغ الفجر فُتحت أبواب المدينة، واتجه المسلمون ليروا الحامية القوية خارجة منها، ولكنهم لم يروا إلا تيودمير وخادمه في درع محطمة، وخلفهما جمع من الشيوخ والنساء والأطفال، فسأله قائد المسلمين: أين الجنود ورجال الحامية الذين رأيتهم حول الأسوار البارحة؟!

تيودمير: ليس لديَّ من الجند أحد، أمَّا رجال الحامية فها هم أولاء أمامك فانظر إليهم، فبهؤلاء النسوة حصنت أسواري. ثُمَّ أشار إلى خادمه وقال: أمَّا هذا الخادم فهو سفيري وحارسي وحاشيتي.

(8)

النصر رعبًا

بدأ الجند في نقض الخيام والتجهز لدخول طُلَيْطِلَة ووقف طارق يفرك بيده في رأس حصانه، ثُمَّ وبوثبة واحدة امتطى ظهره، وقال بصوت عالٍ: هيا يا ماتيه، أخبر الرجال، يجب أن ندخلها قبيل الفجر.

ولأن طارق يعلم أنه قادم على عاصمة مملكة القوط؛ فقد جهز نفسه وجنده لحرب ضروس؛ خاصة وأن بقايا جيش القوط الفارين من «وادي لكة» قد لجأوا إلى طُلَيْطِلَة، وعلى رأسهم قائد من كبار قادة لُذرِيق هو بلايو الذي نجا من المعركة، وحسب طارق أنه فر إلى دار الملك.

وأمام أبواب طُلَيْطِلَة وقف طارق مشدوهًا أمام أسوارها، وهو لا يكاد يصدق أن هناك مدينة بتلك المناعة والقوة، فالمدينة محاطة «بنهر التاجة Tagus» وهي على تلة عالية تزيدها مناعة، كما أن أسوارًا عالية ضخمة تحيط بها.

اِقترب يوليان من طارق وقال له: لا تغرنك قوة أسوارها، وما فائدتها وقد ماتت الرجال؟

طارق: ماتت الرجال!

يوليان: أجل أيها القائد ماتت الرجال، ماتت يوم أن هتك لُذرِيق عرض ابنتي ولم يدافع عنها أحد، ماتت يوم أن قتل لُذرِيق غَيطَّشة ولم ينتصر له أحد، ماتت يوم أن تحكم بجموع هذا الشعب مجموعة من الرعاع الساقطين عديمي المروءة وقد حُبب إليهم الكذب والنفاق، ماتت يوم أن أُهدرت الكرامة وضاعت الحقوق، فلم ينتصروا لأنفسهم، ورضوا بالذل والهوان، تقدم يا طارق فلن يعيقك أحد.

طارق: إننا لا نخشى الأسوار، ولا من خلفها ولكن تعجبت كيف لأمة كهذه أن تسقط هكذا وبهذه السرعة؟

يوليان: لقد انتهت دولة القوط.. ولم يعد الزمان زمانها ولا المكان مكانها بعد أن استبد بهم لُذرِيق وجعل الظلم دولة، والظلم مؤذن بخراب العمران، لقد أعطى خيرات الدولة للجيش دون الشعب، ففرض على الشعب الضرائب المرتفعة، وأنفق المال على شهواته وسلب الآخرين حقوقهم، فشعر البسطاء من الناس أن الدولة ليست لهم،

وإنما هي دولة لُذرِيق وجيشه ومن يعاونهم فقط، لذا استهانوا بها ولم يدافعوا عنها وقت الخطر، بل رحبوا بكم ورجوا أن تكونوا سببًا في رفع الظلم.

دمعت عينا طارق وقال: وهكذا تستبدل الأمم حينما تضل عن الطريق، فتتيسر لهم أسباب المعاصي فينسون الخالق، ويستخفون بالناس ويحملونهم على المعصية، فيأتي الله بقوم تتيسر لهم أسباب طاعته فيستبدل بالخبيثِ الطيبَ.

وبينما يتحدثان إذ تقدم ماتيه بفرسه وقال: لقد فرغت طُلَيْطِلَة من الجند يا سيدي.

طارق: فرغت! وماذا عن بلايو؟

ماتيه: لا أحد يعلم مكانه، أمَّا الجند وشعب طُلَيْطِلَة فقد هجروا المدينة إلى مدينة قريبة خلف الجبل.

أخذ طارق نفسًا عميقًا وقال: لقد ألقى الله الرعب في قلوبهم، فتركوا أقوى مدنهم تحصينًا بلا جيش يحميها، لقد صدق قول رسولنا ﷺ: «نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر»

اللَّهُ أَكْبَرُ.. اللَّهُ أَكْبَرُ

ووسط تلك التكبيرات دخل طارق طُلَيْطِلَة وحوله جنده مطأطأ رأسه تواضعًا لله أن وهبه هذا الفتح المبين، ومن ثم توجه إلى قصر المدينة حيث كان يجلس لُذرِيق وملوك القوط من قبله.

ولما دخل القصر ترك من معه وسار بمفرده خطوات قليلة يتأمل فيه، وقد جال بخاطره قول رب العزة ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾، فاغرورقت عيناه بالدمع تأثرًا، وتذكر حديثه السابق مع الأمير موسى عن سر القوة التي تحول الضعيف قويًا والقوي ضعيفًا.

ثم نظر إلى القصر وما به من أموال وزخارف وأبنية وقال لماتيه: ضم كل ما في هذا القصر للغنائم لنرسل به إلى أمير المؤمنين إن شاء الله.

تحرك الجند في أرجاء القصر يرفعون رايات الخلافة الأموية ويزيلون أعلام القوط، ويحصون ما بالقصر من ذهب وأموال وفضة، والبِشر على وجه طارق وأصحابه الذين ما كانوا يتخيلون أن تفتح طُلَيْطِلَة هكذا دون قتال! وبينما هم كذلك إذ أقبل يوليان على طارق وقال: عليك أن تأتي معي.

طارق: إلى أين؟

يوليان: لتفتح بيت الملوك فإن لم نذهب إليه الآن، فلربما ينهبه اللصوص.

تحرك طارق ومن معه وهو يقول: أبيتٌ للملوك غير هذا القصر؟

يوليان: هو ليس بيتًا كالبيوت، ولكن على أية حال سترى بعينك.

ثُمَّ اصطحبه إلى تلة عالية وعلى ربوتها بيتًا مقفرًا ليس له نوافذ، بل سبعة أبواب يتوسطهم باب عتيق في وسطه قرص برونزي ضخم منقوش بأشكال رمزية مموهة غاية في الدقة والتعقيد.

طارق: ما هذا القفل العجيب؟ هل من طريقة لفتحه؟

أتى يوليان بالحارس فتقدم نحو الباب ثُمَّ أدار القرص يمينًا ويسارًا في تتابع بحركات معدودة حتى انفرج الباب، دخل طارق فوجد أربعة وعشرين تاجًا مكللة بالدر والياقوت! فنظر إلى يوليان مستفهمًا.

يوليان: هذه تيجان ملوك القوط فعادتهم كلما رحل ملك جُعل تاجه في ذلك البيت، وكُتب على التاج اسم صاحبه، وكم أتى عليه من الدهر إلى يوم أن مات، ويوم تولى الحكم.

طارق: مُبهر! سيُسر أمير المؤمنين حتمًا بها، ضموها لغنائم القصر.

يوليان هامسًا قرب أذنه: لقد حملت من ملك لُذرِيق ما لم يكن يدري ما هو ولا ما قيمته!

وبعد ذلك رجعوا إلى قصر الحكم، وفور عودتهم دخل عليهم أحد الجنود وقد أمسك بكهل يحمل صرة كبيرة من الذهب وهو يقول: لقد وجدنا هذا الرجل في إحدى غرف القصر، وعندما قمنا بتفتيشه وجدنا معه كل هذا الذهب.

طارق: من أنت؟

بخوف ورهبة شديدة قال العجوز: أنا خادم من خدم القصر يا سيدي.

ماتيه: خادم ومعك كل هذا الذهب!

الرجل: إنه ليس لي يا سيدي.

طارق: فلمن؟

طأطأ الرجل رأسه ولم يتحدث فنهره طارق وقال بصوت عالٍ: سارق أنت.

العجوز: لا لا.. لا يا سيدي أنا لست بسارق.

طارق: فماذا إذًا؟

العجوز: أنا يا سيدي من خدم هذا القصر، وهذه الأموال حزتها من خزائن القصر؛ لما وجدت من فيه فر وتركه فقلت في نفسي أنا أولى بها.

طارق: فأين باقي الأموال؟

العجوز: لا أعرف يا سيدي.

ماتيه: أنت تكذب يا رجل، لأقطعن يدك ورجلك أيضًا.

العجوز: سأخبركم بكل شيء ولكن تعطوني الأمان أولًا.

طارق: تحدث بصدق ولك الأمان.

العجوز: أنا يا سيدي من يهود طُلَيْطِلَة، وقد أخذ القوط مني ومن كل قومي أموالنا وضياعنا بل وحرياتنا أيضًا، ولم يكتفوا بذلك، حتى أجبروني وقومي على دينهم..

قاطعه يوليان: أجل وأنا أشهد على ذلك.

العجوز مستأنفًا: فلما علمتُ يا سيدي بدخولكم تلك الأرض، وأنكم قوم لا تظلمون، مكثت وكل قومي اليهود هنا ولم نتحرك من ديارنا، ولم نلحق بملك القوط؛ أملًا في أن تنقذونا من براثن ظلمهم لنا.

ماتيه: جميل.. ولكنك لم تخبرنا بعد من أين لك كل هذه الأموال؟

العجوز: لما فر أهل القصر قلتُ في نفسي: لقد حان الوقت لأستعيد أموالي، فدخلتُ هنا وذهبت أبحث هنا وهناك حتى وجدت ذاك الذهب.

ماتيه: وتريد أن تقنعنا أن هذا الشيء البسيط هو كل ذهب القصر، أنت تكذب، وحق علينا قتلك ثُمَّ أشهر سيفه فارتجف الرجل وصرخ قائلًا: العفو يا سيدي، الرحمة يا سيدي.

طارق: أين باقي الأموال يا رجل؟

يوليان: إن كنت تريد البقاء حيًا فأخبرهم أين أموال لُذرِيق وأموال القوط.

العجوز: لقد خرج بها القوط ومعهم مائدة سليمان.

طارق: إلى أين؟

العجوز: إلى قرية قريبة من هنا، فلو أردت لأدلنك عليهم.

هز طارق رأسه وقال: إن كنت صادقًا نجوت، وإلا قتلتك.

ثُمَّ تحرك وأخذ العجوز معه وخلف في طُلَيْطِلَة رجالًا من أصحابه، ومضى خلف من فر من أهل طُلَيْطِلَة فسلك إلى «وادي الحجارة».. ثُمَّ استقبل الجبل فقطعه من فج فيه (سُمي بعد ذلك باسمه Buitrogo)، وما أن بلغ مدينة المائدة خلف الجبل، حتى راح وجنده يبحثون في كل مكان فيها علهم يعثرون على أموال لُذرِيق ولكن دون جدوى، حتى إذا بلغ بهم اليأس مبلغه، فطنوا إلى كهف صغير فدخلوه وهم شاهري سيوفهم، ولكن الظلام كان شديدًا، فما كان من «طارق» إلا أن أشعل وجنوده النيران.

وببطء شديد تقدم طارق وخلفه ماتيه، حتى إذا توغلوا قليلًا في الكهف، وجدوا بابًا فدفعوه بأيديهم فوجدوا خلفه بعض القساوسة يحاولون الاختباء.

طارق: لماذا أنتم هنا وماذا تخفون؟

نظر إليهم اليهودي مليًا ثُمَّ قال: إنهم هم يا سيدي، هم من يخفون الأموال.

طارق: اقبضوا عليهم.

تحرك الجنود وأمسكوا بالقساوسة الذين رفضوا أن يدلوا طارق على الأموال، فما كان منه إلا أن أمر رجاله بمتابعة البحث قائلًا: ابحثوا في كل مكان لا تتركوا حجرًا إلا نزعتموه.

بدأ الجند يبحثون عن الأموال ولكن دون فائدة.

ماتيه: يجب أن تكون الأموال هنا.

طارق: أجل ولهذا لن نعود حتى نصل إليها.

أعمل طارق فكره ثُمَّ أمر ماتيه فأمسك بقطعة من الحديد وراح يطرق بها في كل مكان في الكهف، حتى إذا سمع صوت ارتطام غريب ضرب بقوة أشد، فإذا به باب داخل الكهف يؤدي لغرفة أخرى، فلما فتحوا الباب وسط رهبة وخوف من القساوسة الذين تصبب عرقهم بعد أن أيقنوا بافتضاح أمرهم، وجدوا به غنائم كثيرةً، كما وجدوا مائدة من زبرجدة خضراء، حافاتها وأرجلها منها، وكان لها ثلاثمائة وخمس وستون رجلًا.

وقف طارق ورجاله أمامها منبهرين، وهم لا يصدقون أن بشرًا يستطيع صنع مائدة كهذه.

اليهودي: إنها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام.

طارق متسعة عيناه يديرها في المائدة بتأمل: إنها لعجيبة من عجائب الزمان! احملوها إلى طُلَيْطِلَة؛ حتى نرى ماذا يفعل بها أمير المؤمنين؟

❀❀✽❀❀

(٩)

لا راحة

عاد «طارق» إلى طُلَيْطِلَة وحط رحاله بها، وما أن عاد حتى كتب إلى موسى بن نصير بأمر الفتح وما أفاء الله به على المسلمين في تلك البلاد..

ماتيه: والآن يا طارق، ألا ترتاح قليلًا بعد كل هذه الشهور من القتال والحركة في الأنحاء؟

وبينما يتحدث ماتيه بذلك إذ دخل عليهما «يوليان، وسيزبوت، وإيفا» وكانوا قد سمعوا حديث ماتيه فقال يوليان: لا راحة قبل أن تستأصلوا شأفة القوط فقد علمت أنهم تجمعوا خلف «بلايو بن الدوق فافيلا».

طارق: وهذا ما عولت عليه أيها الكونت، فلا راحة لنا في تلك الجزيرة ما دامت شراذم القوط هنا وهناك.

ماتيه: ولكن أي خطر من هؤلاء؟ وقد تفرق جمعهم وتشتت شملهم وقُتل مليكهم وأخذت دار ملكهم، فلا أظن أنهم الآن يريدون منا غير أن نتركهم وشأنهم.

طارق: لو كانوا يريدون الحياة تحت رايتنا يا ماتيه، ما خرجوا من طُلَيْطِلَة ولاستسلموا لنا، شأنهم شأن كل من استسلم من الأمم، ولكنهم أرادوا غير ذلك، نعم ربما الآن يريدون فقط السلامة وأن نسكت عنهم وندعهم في شأنهم، ولكن ما أن ينالوا السلامة ونتركهم، حتى يعيدوا التفكير فيما هو أكثر من السلامة، فتراهم يبحثون عن دولتهم، ثُمَّ تراهم يجمعون ويعدون لنا وقد أمناهم وتركناهم.

يوليان: وماذا ستفعل فيمن دخل من القوط أو غيرهم في حكمك يا طارق؟

طارق: أمَّا هؤلاء فلهم الحرية الكاملة في ممارسة دينهم وشعائرهم، وسنترك لهم عدة كنائس، ونترك لأحبارها حرية إقامة الشعائر الدينية.

سيزبوت: أيها الأمير لقد دانت لك بلادنا وكنا سببًا في ذلك.

طارق: لا ننكر ما فعلتم أيها الأمير.

سيزبوت: فماذا عن ضياعنا وضياع أبينا الملك وأموالنا في طُلَيْطِلَة وإشبيلية وقُرْطُبة؟

طارق: لا أملك أن أردها عليكم.

إيفا: فمن إذًا؟

سيزبوت: أخبرنا أيها الأمير أأنت أمير نفسك أم فوقك أمير؟

طارق: بل على رأسي أمير، وفوق ذلك الأمير أمير أعظم، هو الخليفة «الوليد بن عبد الملك» وكلنا نسمع له ونطيع.

سيزبوت: إذا فليزودنا الأمير بكتاب إلى موسى بن نصير توضح فيه ما أعطيتنا من عهد.

طارق: لمَ العجلة يا سيزبوت؟

يوليان: إن فلورندا لا تستطيع المكوث في طُلَيْطِلَة بعد الذي أصابها فيها، إذ يذكرها الهواء هنا بمحنتها، وقد عزم سيزبوت على الزواج منها والخروج بها من طُلَيْطِلَة.

طارق: إلى أين؟

سيزبوت: قُرْطُبة وربما سَبتة أو إشبيلية أيها الأمير.

طارق مبتسمًا: حسنًا يا سيزبوت.. ثُمَّ كتب له كتابًا بما وعدهما به وأعطاه إياه.

فشكره سيزبوت وقرر أن يتحرك للقاء موسى بن نصير.

وبعد أيام قليلة من المكوث في طُلَيْطِلَة تحرك طارق بجيشه وتابع زحفه شمالًا، فاخترق «قشتالة» ثُمَّ «ليون» في وهاد ومفاوز صعبة، وطارد فلول القوط بقيادة بلايو حتى «أسترقة»، ثُمَّ لجأت البقية منهم إلى قاصية «جليقية» واعتصمت بجبالها الشامخة.

وعبر طارق جبال أشتوريش (أستورياس)، واستمر في سيره حتى أشرف على ثغر «خيخون Gijón» الواقع على خليج بسكونية (غسقونية)، فكان خاتمة زحفه ونهاية فتوحاته، ورده عباب المحيط عن التقدم فعاد إلى طُلَيْطِلَة.

❀❀✽❀❀

(10)

في القيروان

ظهر موسى بن نصير في قصره وبجواره أولاد عقبة ومُغِيث الرومي الذي حمل معه من الأندلس رسالة طارق التي بها: (لقد أتم الله علينا فتح طُلَيْطِلَة معقل القوط وخرجت منها إلى الشمال حتى وصلت إلى خليج بسكونية).

مُغِيث: لله دره من رجل، لقد دوخ القوط وفتح معاقلهم يا موسى.

عياض بن عقبة ساخرًا: ثُمَّ عصى أميره والخليفة الوليد الذي أوصى بعدم التوغل من وهاد مجهولة حتى لا يُلقي بالمسلمين في الهلكة، فتوغل في الشمال! ولكن ماذا لو كمن له القوط؟ وقد قل عدد جيشه بمن استشهد منهم طوال عام كامل من الجهاد، وبمن فرقهم في المدن المفتوحة.

مُغِيث: ليس طارق بمن يلقي بجنده وبنفسه إلى الهلكة يا عياض، ولقد رأيته متأنيًا كثيرًا وبطلًا شجاعًا، وما تقدم صوب الشمال حتى أمن ظهره.

عياض: أمن ظهره! بكم من الجند؟

موسى مخاطبًا لكاتبه: أكتب إليه ألا يبرح طُلَيْطِلَة حتى يأتيه أمري.

مُغِيث: ما لي أراك قد غضبت على الرجل يا موسى؟

موسى: ما كان له أن يعصي أوامري ويتقدم صوب طُلَيْطِلَة، فماذا لو أحاط به العدو وهو في قلة من رجاله؟ والله لقد صدق ابن عقبة، فلقد استشهد في «وداي لكة» ثلاثة آلاف رجل ناهيك بمَن استشهد بعدها فهل هذا العدد القليل يكفي لأن يفعل ما فعل؟ ثُمَّ هب أن يوليان ورجاله رأوا ذلك منه وشاهدوا قلة رجاله فلربما استداروا عليه وقالوا في أنفسهم: رجل غريب عنا.. غريب عن ديننا وقد ساعدناه حتى هلك لُذرِيق فلماذا لا نتفق عليه فتعود البلاد إلينا كما كانت؟ وخصوصًا أن أبناء غَيطَّشة ما زالوا فيها.

مُغِيث: أتوقف الفتح يا موسى؟

موسى: حتى أبعث له بمدد يعجز القوط عنه.

مُغِيث: هل أعود له بهذا الرأي؟

موسى: لا، ولكنك ستحمل رسالة الفتح إلى أمير المؤمنين الوليد.

مُغِيث: كما ترى يا موسى.

ظهر الفرح على وجه «عياض، وعثمان» ابني عقبة وقد شعرا أن موسى قد انقلب على طارق فقالا: نعم الرأي أيها الأمير.

وقد كانت مشاعر الغضب قد بدت على وجه موسى، فاقترب منه عياض وقال: ربما أراد أن يصل خبره إلى أمير المؤمنين فيسمو عنده.

ورغم سماعه ذلك لم يتحدث موسى بل اكتفى بنظرات من عينيه.

ثم قال عثمان: ليسمح لنا الأمير بالذهاب إلى دمشق فما عاد لنا مكان هنا.

وما أن قال عثمان ذلك حتى وافق موسى، فقد لامس هذا الطلب هوى في نفسه، وكان قد أراد إبعادهما حتى لا تضطرب الأجواء بهما، وما أن انفض المجلس حتى جلس وحيدًا يفكر في أرض الأندلس واستكمال الفتوحات ثم راوده شعور سيئ ضاق له صدره، فقال بصوت يسمعه وحده: أستغفر الله، لا يا موسى لن يصيب المسلمين سوء إن شاء الله، ولكن لا أريد لتجربة عقبة أن تتكرر في الأندلس فقد انساح طارق في تلك البلاد أكثر مما ينبغي، وكان جدير به أن يتعلم مما حدث لعقبة، ثم قطع أفكاره وقد حزم أمره وقال: أين عبد الله بن موسى؟

دخل أحد الجند وقال: آتيك به يا سيدي.

ولم يمر الكثير من الوقت حتى حضر عبد الله فقال له موسى: سأجعلك مكاني في «القيروان» وأعبر أنا بإذن الله إلى الأندلس، وسيكون أخوك عبد العزيز معي فتحوط من أمرك، وكن على يقظة.

❀❀✽❀❀

(11)

عبور موسى

عبر موسى البحر إلى الأندلس في عشرة آلاف من العرب، وثمانية آلاف من البربر، كان من بينهم عدد من كبار التابعين -رضيَ الله عنهم- مثل «حنش بن عبد الله الصنعاني وأبي عبد الرحمن بن عبد الله بن يزيد بن أبي يجلة» وغيرهم.. فقد كان موسى يعلم عظم المسئولية الخطيرة التي أراد لهذا الجيش أن يقوم بها، فهو لا يريد الحرب فقط، بل الحرب وهداية الناس إلى الإسلام، وليس أفضل من كبار التابعين ليفعلوا ذلك ويرتشف الناس منهم معاني الإسلام.

عبر موسى بجيشه (وقد قسمه إلى وحدات عديدة تبلغ أكثر من عشرين وحدة، كل وحدة تحت راية، وكانت اثنتان من هذه الرايات تحت قيادته المباشرة، بينما تولى ابنه عبد العزيز قيادة راية ثالثة، أمَّا بقية الرايات فكانت بقيادة قواد من قريش ومختلف العشائر العربية الأخرى) يحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته، ونزل بولاية الجزيرة، وتنكب الجبل الذي حلّه طارق، ودخل على مكان نسب إليه وسمي «جبل موسى»، فلمّا نزل الجزيرة الخضراء استقبله «الكونت يوليان» وهو عائد إلى سَبتة ومعه أبناء غَيطَّشة فهنأه على فتح بلاد الأندلس وأكد على عهده معهم.

وهناك تجمعت حول موسى رايات العرب وقادة الفرق وعقد معهم مجلسًا حربيًا، وأجمع رأي المجلس على أن يتوجه موسى إلى مناطق جديدة لم يطأها طارق.

إذ قال يوليان: هل تريد أن تسلك طريق طارق أم غيره؟

موسى: لو سلكنا طريق طارق ما فعلنا شيئًا، ولكن نسلك طريقًا غيرها إن شاء الله فنفتح مدنًا جديدة لم يفتحها طارق؛ فإنما أنا هنا لاستكمال مسيرة الجهاد.

سيزبوت: نحن ندلك على طريق هي أشرف من طريقه، وعلى مدائن هي أعظم خطرًا من مدائنه لم تُفتح، تُفتح على يديك.

يوليان: هل يخليني الأمير بنفسه قليلًا؟

أشار موسى إلى من في الخيمة فخرجوا جميعًا، وبقيَ يوليان وحده فنظر موسى إليه وقال: ما الأمر أيها الكونت؟ وكيف حال ابنتك؟

يوليان: ابنتي بخير أيها الأمير.

موسى: فما الأمر إذًا؟

يوليان: حديثٌ نما عن خلاف نشب بينك وبين طارق، حتى شاع في الجزيرة كلها أنك ما أتيت إلى هنا إلا لتقبض عليه.

ضحك موسى وقال: معاذ الله أن يكون غضبي على طارق هو ما دفعني للعبور إلى هنا فيبوء عملي، ولو كان الأمر كما تقول أيها الكونت، فقد كان حريًا بي أن أسير إليه في طُلَيْطِلَة دون إبطاء أو تلكؤ، وما أضعت وقتي في التخطيط ومحاوراتكم، ولكن هدفنا أسمى من ذلك أيها الكونت، لقد بلغت التاسعة والسبعين من عمري وما هُزمت لي راية قط، وما طارق إلا راية من رايات الحق، وقد كانت لي أمنية قديمة أن أموت مجاهدًا في سبيل الله، فعبرت إلى هنا علها تتحقق.

يوليان: إذًا أنت لست غاضبًا على الرجل؟

موسى: إنما غضبي لخشيتي على جند المسلمين من أن يحاط بهم في أرض يجهلونها.

يوليان: لذلك أوصيت طارق ألا يتجاوز قُرْطُبة في فتوحاته أو يقيم حيث هزم ملك القوط.

موسى: أجل أيها الكونت.

يوليان: أيها الأمير إن الحاضر يرى ما لا يراه الغائب، وقد كان من الواجب على طارق أن يتقدم وإلا تجمع القوط مرة أخرى بعد أن يستفيقوا مما نزل بهم، ووقتها سيكون تباطؤ طارق لعنة عليكم لا خيرًا لكم.

أومأ موسى برأسه موافقًا لما شرحه يوليان وقال: فالْحَمْدُ للّهِ على نصره وتوفيقه.

وعلى رغم اختلاف الدين ابتسم يوليان وقال: كم في دينكم أيها المسلمون من قيم ونُبل هو مدعاة للفخر!

موسى: ألا تنضم إلينا وتكون واحدًا منا؟

يوليان: أمَّا هذه، فما زال في النفس بعض منها، ولكن من يدري أيها الأمير، فلعلي يومًا آتيك وأشهدك على ديني.

موسى: أسال الله أن يهيئ لك من أمرك رشدًا.

أومأ يوليان برأسه راضيًا عن تلك الدعوة ثم قال: والآن أيها الأمير، ألا تنظر في أمر أبناء غَيطَّشة؟

موسى: ما بهم؟

حدثه يوليان بأمر أبناء غَيطَّشة وما قاله طارق في ذمتهم، وكيف أنهم وفوا بعهدهم وانحازوا إليه وقت الحرب، فأنفذهم موسى إلى أمير المؤمنين الوليد بالشام بدمشق،

وكتب إليه بما عرفه به طارق من جميل أثرهم.

❀❀✤❀❀

(12)

مدينة إِسْتِجَة

في إحدى أسواق مدينة «إِسْتِجَة Astigi» جنوب شبه الجزيرة، وقد ازدحم مجددًا وعاد صخب حركة المارة فيه بعد خلوه فترة طويلة، مر «السيد أوريليوس» أمام دكان بائع السمك المقدد قائلًا: مرحبًا يا بيدرو، كيف حالك؟

بيدرو مبتسمًا: بخير.. وكيف لا وقد عادت الحياة إلى طبيعتها؟

أوريليوس: أجل لقد مرت أيام صعبة، كدنا نهلك في قتالنا مع المسلمين، ولولا انعقاد الصلح لما تناولنا السمك من عندك اليوم!

بيدرو مقتربًا منه: أريد سؤالك عن شيء لا أفهمه، فلتجلس يا سيد أوريليوس وأعد لك وجبة لذيذة.

أوريليوس وقد استشف سؤاله: تريد أن تعرف ما الذي سندفعه أليس كذلك؟

بيدرو: أجل، الناس هنا لا حديث لهم إلا عن الجزية، هل هي ضرائب أخرى؟ لقد انقسم ظهرنا من كثرة ما دفعنا من قبل.

أوريليوس ضاحكًا: عندي لك بشرى فأنت لن تدفع شيئًا.

بيدرو: حقًّا! ولمَ أنا بالتحديد وقد شرطوا دفع الأموال لوقف القتال؟

أوريليوس: لأن الجزية لا يدفعها رجل مسن مثلك، وكذلك النساء والصبيان والمساكين والرهبان وذوو العاهات.. إن للمسلمين تشريعًا خاصًا بهم فلا يأخذون الجزية إلا من الرجل القادر على القتال، بل إنهم يكفلون وينفقون على من شاخ وعجز.

بيدرو: لقد دعوت يسوع المسيح ألا يكون مصيرنا كحاكم قُرْطُبة، فهي تبعد عنا خمسة وثلاثين ميلًا، وسمعت أنهم أخذوه ووضعوه في مصيدة كجرذ صغير.

أوريليوس: لذا كنتُ من مؤيدي قرار الصلح فهو أفضل لنا جميعًا، حتى لا تضيع ضياعنا وأموالنا ونقع أسرى وعبيدًا، فهم لا يأخذون بالصلح ما يأخذونه بالفتح، فلو فتحوا إِسْتِجَة لأخذوا كل ما فيها وملكوها، كما أنهم يسمحون لنا ولليهود بممارسة شعائرنا دون إكراه على دينهم.

بيدرو: مممم.. أخبرني يا سيد أوريليوس، كيف تم الاتفاق بعد هذا القتال العنيف؟

أوريليوس مشيرًا بيده: انظر إنه «أرمسيندا» خرج للقتال مع أهل المدينة وربما يعلم أكثر مني.. وبإشارة منه قدم نحوهما أرمسيندا وآثار العراك بادية عليه فأجلساه بينهما، وبدأ يروي تفاصيل ما حدث.

أرمسيندا: خرجنا للقتال بجانب الجنود الفارين من معركة «وادي لكة» ضد عدد قليل من المسلمين وقائدهم طارق فاستخففنا بهم، ولما قاتلوا قتالًا عنيفًا أصابوا منا الكثير وسقط جنودنا قتلى، فتوجه وفد من قبلنا لطلب التفاوض فوجدوا طارق متشددًا، وأخبرهم أن كل ما يؤخذ بالسيف يجري عليه أحكام القتال، ولكنهم لما رأوا معسكر المسلمين خفيفًا عادوا إلينا مصرين على مواصلة القتال حتى نسحقهم، ثم حدث ما لم نتوقعه.. (توقف ليبتلع ريقه فهو ما زال متعبًا).

ولكن السيد أوريليوس أراده أن يكمل فقال له: خذ نفسك وتحدث على مهل.

أرميسندا: لقد أعد قائدهم لنا مكيدة! فعلى بُعد من ميدان المعركة خبأ فرقة من جيشه نحو ألفي رجل بقيادة «طريف بن مالك»، فلما اِلتحمنا معهم انقضوا علينا من خلف ظهورنا، وعلا صوت تكبيرهم وتهليلهم فازدادت الحرب ضراوة، وخارت قوانا، فسعينا جادين لطلب الصلح.

بيدرو: وعلام كان؟

أرمسيندا: لقد فاوضنا طارق بن زياد على دفع الجزية، ومقدارها دينارين من الذهب كل عام مرة على كل مستأمن، وأعطانا على هذا العهود والمواثيق.

أوريليوس: أي أقل مما كنا ندفعه لحكومة القوط، ولكن أخشى أن بيننا من لا يعجبه هذا وربما ينتفضون مرة أخرى وهذا ليس في صالحنا، فالمسلمون يزداد عددهم ولقد قدموا علينا من بلاد عدة الشام ومصر والمغرب.

❀❀✤❀❀

(13)

قَرْمُونَة

خرج «موسى» من خيمته وشاهد رايات المسلمين ترفرف فوق رأسه، فاغرورقت عيناه بالدموع وسجد لله شكرًا، ثم قال: والله، لا أبرح مكاني هذا قبل أن نشيد لله مسجدًا يظل شاهدًا على اجتماع رايات المسلمين من عرب وبربر هنا.

وما أن نطق بذلك حتى علت التكبيرات وجلجلت في المكان، فتقدم التابعي «حنش الصنعاني» وقال: لله درك يا موسى.. وليكن مسجد الرايات هو أول مساجد المسلمين في أوروبا.

بحماسة وخشوع قال موسى: الْحَمْدُ للّهِ واللَّهُ أَكْبَرُ، ولأحملن أول أحجاره.. ثم تقدم وحمل حجرًا وضعه في أساس المسجد وانشغل الجيش ببناء المسجد، وكان موسى رغم سنه يحمل معهم الطوب والحجارة أمَّا حنش الصنعاني فقد تولى ضبط القبلة.

وما أن تم تشييد المسجد والصلاة فيه، حتى امتطى موسى صَهْوة جواده وخرج بقواته صوب شذونة فافتتحها فكانت أولى فتوحاته.

ثم توجه بعدها إلى «قَرْمُونَة Carmona» التي أغلقت في وجهه أبوابها، وكانت عظيمة التحصينات عالية الأسوار منيعة جعلت موسى يقف عاجزًا أمامها، فتقدم منه ابنه «عبد العزيز» وقال: يا أبت لو قمنا على حصارها فسنضيع الوقت والجهد، فلنتركها ونتحول إلى غيرها حتى إذا فتحت كل المدن حولها هانت علينا.

موسى: لا والله، لا أتركها شوكة في ظهورنا أبدًا.

عبد العزيز: لو كان معنا آلات حصار يا أبي، لتغير الوضع تمامًا ولكننا لا نملكها الآن.

صمت موسى برهة، بينما بدت عيناه كأنها تبحث عن نقطة ضعف في الأسوار.. ثم قال: دعني الآن يا عبد العزيز واهتم بأمر الجند، وأخبرهم أننا سنعسكر بعيدًا عن مرمى سهام الأعداء.

عبد العزيز: أمرك يا أبت.

كان موسى يعلم أنَّ الحصار يعنى ضياع الوقت، فضلًا عن فرضية وصول إمدادات للمدينة المحاصرة من الخارج وعندها يقع جيشه بين جيشين، وفي نفس الوقت كان يعلم أن فك الحصار والرجوع عن قَرْمُونَة سيطمع من فيها، فيرون أنهم قهروا

المسلمين أو أعجزوهم، وعندها تقوى نفوسهم وربما ينهضون بعد ذلك من كبوتهم ويناجزون المسلمين وقد ظنوا أنهم اِنهزموا.

وبعد تفكير طويل صاح موسى بعبد العزيز وقال له: ائْتِنى بأصحاب يوليان.

خرج عبد العزيز ليعود بعد قليل ومعه نفر من أصحاب يوليان الذين عملوا معه كأدلاء فقال لهم موسى: كيف لنا أن نقتحم تلك الأسوار؟

صمت الرجال وكانوا خمسة، ونظر بعضهم إلى بعض ثم قال أحدهم: هذه المدينة يا سيدي لا تؤخذ إلا بالحيلة، فأسوارها عظيمة وأنتم لا تملكون أدوات الحصار ولن تستطيعوا هدم أسوارها أو ثلمها.

موسى: وما الحيلة التي تمكننا منها؟

صمت الرجل وراح يفكر ثم قال: يعود الأمير وجيشه من حيث أتوا، ويُظهر أنه قد يئس من المدينة ويتراجع حتى يغيب عن الأنظار تمامًا، بعدها نقتحم أنا ورجالي وبعض رجالكم الذين سيرتدون ملابس القوط، فيظن أهلها أننا فارين من وجه المسلمين لائذين بهم، وعندها سيفتحون أبوابهم لنا وعندما يطمئنون لنا ويذهبون إلى النوم وقد عرفوا بمغادرة الأمير لأسوارهم، نتقدم نحن صوب باب قُرْطُبة فنفتحه لكم على غفلة من أهل المدينة.

هز موسى رأسه وقد أعجب بتلك الفكرة، فبادر بتنفيذها، وانطلت الخدعة على أهل قَرْمُونَة فآووا الفارين وأسكنوهم مدينتهم.

ولما جنَّ الليل أرسل موسى ثلة من فرسانه نحو باب المدينة «باب قُرْطُبة» وعندما شعر بهم المتربصون داخل الباب وثبوا على الحراس وأوقعوا بهم، وفتحوا الباب فدخل الفرسان ومن بعدهم موسى وكل من معه من المسلمين.

❀❀✽❀❀

الفصل السابع

أستشعر الصبر والخوف،

و أتحصن بالسيف والمغفر،

وأستعين بالله وأرغب إليه بالنصر.

«موسى بن نصير»

(1)

فتح ماردة

في ليلة غدافية الإهاب وفي الطريق بين إشبيلية وماردة، كان المكان يسبح في السكون إلا من حوافر خيل قادمة من بعيد وهي تثير الأتربة خلفها، لحظات مرت قبل أن يظهر من بعيد فارسان قوطيان يتحركان بسرعة صوب «ماردة Mérida» حتى إذا وصلا إلى أحد أبوابها صرخا: افتحوا الأبواب.. افتحوا الأبواب؛ فالمسلمون قادمون.

نظر أحد الحراس من فوق الباب ثم بإشارة منه تقدم حارس آخر صوب الباب ففتحه، وما أن دخل الفارسان حتى تقدم منهما أحد الحراس وقال: ما شأنكما؟

ريكاردو (أحد الفارسين): نحن من جنود إشبيلية وقد خرجنا فرارًا منها بعد أن داهمها المسلمون، ونحن هنا الآن لنحذركم بعد أن علمنا أنهم تركوا إشبيلية وتحركوا صوب ماردة.

الحارس: حسنًا حسنًا، امكثا هنا حتى ينبلج الصبح وتدخلا على «أرتيباس» وتخبراه بما حدث.

أخيلا (الفارس الآخر) ينظر إلى زميله ريكاردو في عجب ثم يلتفت إلى الحارس قائلًا: تعني أن ننتظر حتى الصباح!

الحارس: أجل.. فلا أحد يستطيع إيقاظه الآن.

ريكاردو: لو لم توقظه الآن فلن تكون أنت هنا في الصباح، بل ربما لن يكون قوطي في كل ماردة، فالعرب في إثرنا قادمون، ولن يأتي الصباح حتى يصبحوكم بجيشهم، فاذهب الآن وأيقظ سيدك فالأمر جدُ خطير.

بعد تردد وحيرة قرر الحارس أن يصطحبهما إلى قصر أرتيباس، الذي ما إن استيقظ حتى التقى الفارسان، وقد أقسم أن يقتلهما إن كانا كاذبين أو كان الأمر على غير ما قالا، ولكن ما إن تحدثا إليه حتى ذهب النوم من عينيه، وانتابه القلق فصاح في حراسه: أيقظوا كل الجند وكونوا جميعًا على أهبة الاستعداد لما هو آت!

أخيلا: سيدي لو أذنت فيجب علينا حصر يهود المدينة في أحد أبراج القلعة؛ فهم يا سيدي شوكة في ظهورنا، وقد اِنحازوا إلى العرب في كل مدينة دخلوها، فكانوا معهم في «قُرْطُبة، وإشبيلية» وغيرهما من المدن، حتى اتخذ منهم العرب حرسًا لتلك المدن.

أرتيباس: أخشى أن عددهم كبير.

ريكاردو: لا بأس يا سيدي إن كان في ذلك تأمين لظهورنا.

أرتيباس: حسنًا.

ومن فوره أصدر أرتيباس أوامره بحصر كل يهود المدينة وجمعهم في سجون القلعة، وبعد أن تم له ذلك خرج بقواته ومعه الفارسين أخيلا وريكاردو وعسكر بهم خارج المدينة.

وتقدم «موسى بن نصير» وهو لا يعلم بوجود جيش من القوط خارج ماردة؛ فقد اعتاد من القوط أن يحتموا داخل أسوارهم، وكعادته تقدم بحرص صوب المدينة، حتى إذا كان على بعد ميل واحد منها، فاجأه جيش أرتيباس، ودارت بينهم معركة دامية أشتد خلالها القتال، وكادت الدائرة تدور على المسلمين لولا أن تداركهم الله برحمته؛ ليتمكن موسى من دحرهم فلجأ الناجون إلى أسوار مدينتهم وامتنعوا بها.

ضرب موسى الحصار حول ماردة ولكن هاله متانة أسوارها وقوة قلاعها، وعلم أن لا سبيلَ إلى المدينة بغير حصار، فقرر ذلك وطوقها من كل صوب؛ حتى يقطع الإمدادات عنها، ثم أمر من فوره بصنع دبابة من الحديد تحمي مَن بداخلها مِن سهام العدو؛ ليتمكن من اقتحام الأسوار ودب المسلمون تحت برج فيها، واستخدموا ما لديهم من أدوات ومعاول لنقبه، وتمكنوا بالفعل من خلع بعض أحجاره، ولكن وجدوا خلف الحجارة صخرة صماء أبت المعاول خرقها فبينما يضربونها، حدث أن تنبه القوط إليهم فخرجوا وانقضوا عليهم بشكل مفاجئ، فاستشهد بأيديهم قوم من المسلمين فسمي ذلك البرج «برج الشهداء».

شعر موسى أنه أمام مدينة لا تقهر، وأن شعب تلك المدينة ماضٍ في حربه، وعلم أن خروجهم مباغتين له سيتكرر مع تالي الأيام، ولكنه لم يعرف اليأس، فامتطى صَهْوة جواده واصطحب بضعة جنود، وراح يتفقد الأسوار مرة أخرى، ثم عاد ليأمر رجاله بالتأخر قليلًا عنها، ثم انتخب فرقة شديدة البأس وأخفاها خلف صخور عظيمة بحيث يستطيع الراكب على فرسه الاختباء خلفها، وأمرهم ألا يبرحوا مكانهم (بينه وبين أسوار ماردة وقريبة منها)، مهما طالت الأيام إلا بإشارة منه.

وبعد يومين.. خرج القوط من المدينة لمعاودة الهجوم مرة أخرى، وقد اغتروا عندما رأوا تقهقر المسلمين عن السور، لكن ما أن اشتبكوا مع مقدمة جيش المسلمين حتى خرج الكامنون خلف الصخور، وانقضوا عليهم من خلفهم، وفتكوا بهم، ولم ينج منهم إلا عدد قليل لاذوا بالفرار صوب مدينتهم.

❀❀✽❀❀

في خيمة موسى خارج ماردة وبينما هو يفكر في أمر المدينة إذ «بطريف بن مالك» يستأذن للدخول عليه.

هب موسى من مكانه بعد سماع صوته وكان يحبه كثيرًا، فاحتضنه وسلما على بعضهما، ثم قال طريف: لقد أوفدني «طارق بن زياد» يا سيدي، وقال: إن كنت تريد أن يخرج من طُلَيْطِلَة إليك بجنده فأذن له الساعة.

موسى: لا يا طريف، لن ننسحب إن شاء الله من مدينة فتحناها أبدًا.

طريف: إنه لا يعد انسحابًا يا سيدي، ولكنها الحرب وما تقتضيه علينا من خطط كر وفر.

موسى: ستقوى نفوس القوط إن فعلنا ويعودون إلى طُلَيْطِلَة بعد أن نهون في أعينهم.

وقف طريف وقال: إذًا أعود إليه فأخبره برأيك.

موسى: بل ابق معي وكلف أحد الجند أن يوصل رسالتي إلى طارق.

طريف: أمرك سيدي.

خرج موسى أمام باب خيمته بينما انطلق طريف ليرسل لطارق الرد، ومن ثم عاد بسرعة ليقف جواره وينظر رأيه فإذا بموسى يقول: لقد كانت قَرْمُونَة أعظم منها أسوارًا فأخذناها بالحيلة ولكن أي حيلةٍ لنا هنا؟ وقد علموا بما حدث هناك.

طريف: الصلح يا سيدي.

موسى: الصلح!

طريف: أجل يا سيدي، نرسل إليهم به، فيوفدون من يتفاوض معنا، فإن قبلوا شروطنا وإلا اختلفوا!

موسى: نعم الرأي يا أبا زرعة.

وبالفعل تم الأمر وأوفد أرتيباس إلى موسى من يفاوضه على الصلح، فاحتال موسى عليهم في توهيمهم بنفسه، فدخلوا عليه أول يوم فإذا به أبيض اللحية والرأس، فكلموه بما لم يوافق عليه ويرضيه، ولم يعقد معهم أمرًا فقالوا له: نرجع إلى أرتيباس ونخبره على أن نعود إليك بعد ثلاث.

وبالفعل عادوا بعد ثلاثة أيام، فإذا به قد خضب بالأحمر لحيته، فعجبوا من ذلك وقالوا لبعضهم: ما هذا الذي رأيناه بالأمس؟ فرد واحد منهم: أظنه يأكل ولد آدم (فهم لا يعرفون الحناء) ثم لم يتفقوا مرة ثانية..

ليعودوا بعد ذلك ويرون موسى وقد سود لحيته وشعره، فارتاعوا لذلك وقال قائل: ويحكم إنكم تقاتلون أنبياء يتشببون بعد المشيب وقد عاد ملكهم حدثًا بعد أن كان شيبًا!

فعادوا إلى أرتيباس مذعورين يخبرونه أن المسلمين إنما هم ملائكة أو أنبياء يتخلقون كيف شاءوا، فالرأي أن نقاربهم ونعطيهم ما يشاءون فما لنا طاقة بهم!

❀❀✤❀❀

(2)

لقاء البطلين

في إيوان لُذرِيق على نهر التاجة العظيم..

دخل ماتيه على طارق وهو يقول: لقد خرج من ماردة وما هي إلا أيام حتى يصل إلى هنا.

طارق: الْحَمْدُ للّهِ أن أتم علينا نعمته بفتوح إشبيلية، وماردة.

ماتيه: ومن قبلها شذونة، وقَرْمُونَة.

ثم أخذ طارق نفسًا مُنْتَشيًا بالنصر وقال: الْحَمْدُ للّهِ.. مَن كان يظن أننا نغزوهم بعد أن كانوا يغزوننا؟! مَن كان يظن أن تضع تلك الأيدي نهاية لذاك الظلم والظلام الذي كنا نعيش فيه؟ قرون مضت وهؤلاء القوط يخربون بلادنا ويقتاتون منها، ويتخذون من البربر عبيدًا لهم، ثم يتصارعون مع الروم على اقتسام بلادنا، ونحن لا حول لنا ولا قوة فكنا تبعًا لَمَن غلب.

ماتيه: ذلك زمن قد ولى، فالْحَمْدُ للّهِ على ما أنعم.

وبينما يتحدثان، إذ دخل أحد الحراس وهو يلهث من الإعياء، فأدى السلام وقال: أدركنا يا طارق فقد جمع «بلايو» الفارين من جند القوط وكمن بهم في مفاوز «طلبيرة»، وما أظن إلا أن يباغت الأمير موسى وهو في قلة من جيشه بعد أن ترك فرقًا من الجيش؛ تحمي البلاد المفتوحة إشبيلية وقَرْمُونَة وماردة.

ما أن سمع طارق ذلك حتى هب واقفًا، وكان لا يزال يرتدي لباس الحرب هو ورجاله ثم قال: يجب أن نتحرك فورًا.

ماتيه: إلى أين يا سيدي؟

طارق: يجب أن ننبه الأمير موسى ونكون معه؛ فنحمي ظهره إن تهددته المخاطر.

ماتيه: إذًا آتي معك.

طارق: بل ستبقى هنا مع فرقة من الجيش، ولتحم ظهورنا وتحفظ طُلَيْطِلَة.

ماتيه: أمرك يا طارق.

صعد طارق إلى الطابق الأعلى من القصر لتلتقيه أم حكيم وهي تقول: ما الأمر؟

طارق: لقد تجمعت فلول القوط يريدون لقاء الأمير موسى.

أم حكيم: ليس الأمير ممن يُخشى عليه.

طارق: وإن كان، فلا يجب أن أظل في مكاني بينما يتعرض وجيشه للمخاطر.

أم حكيم: خذني معك إذًا.

طارق بنظرة حانية: أنتِ هنا مع نساء المسلمين في مأمن، وسأترك ماتيه مع فرقة من الجيش حمايتكن. ومن ثم احتضنها مودعًا، فودعته مرسلة في إثره دعواتها له السلامة وللمسلمين بالنصر.

امتطى طارق صَهْوة جواده تاركًا طُلَيْطِلَة وحث خطاه، حتى إذا وصل إلى «نهر تاتير» ضرب معسكره هناك، ثم أطلق العيون تجوس خلال طليبيرة وأرسل لموسى خبر وصوله.

تحرك «موسى» بجيشه وما أن اِقترب من «نهر تاتير» حتى خرج طارق لملاقاته تعظيمًا له وقد اشتاق لرؤيته، وما أن رآه حتى نزل من على ظهر حصانه وتقدم صوبه، وكذلك فعل «موسى» نزل واحتضنه بقوة كما يحتضن الأب ابنه..

طارق: أرجو أن يكون الأمير قد غفر لي، فوالله ما فعلتُ ذلك إلا اِبتغاء وجهه تعالى، وإنما أنا مولاك وقائد من قوادك، ما فتحته وأصبته إنما هو منسوب إليك، وقد علمت أن الأمير به غضب علي، فإن كنت ترى يا سيدى أني تجاوزت، فهذه رأسي اِفعل بها ما تشاء.

موسى معاتبًا: نعم يا طارق، خشيتُ عليك وعلى المسلمين الهلكة، وقد تقدمت بهم في أرض مجهولة وما كان لك أن تفعل قبل أن تصلك إمداداتي، لقد حاول البعض أن يوقعوا بيني وبينك فقال قائلهم: لقد عصاك طارق وخرج عن أمرك! وما أرادوا بذلك وجه الله، بل إن بعضهم أراد أن أنتزعك عن الجيش أو أسجنك أو أضربك بالسوط لأهينك، ولكن لا أعاقبك على اجتهادك، فللمجتهد أجر إن أخطأ وأجران إن أصاب، وقد فعلتها يا بن زياد.

طارق: كله بفضل من الله، ثم بثقتك في يا سيدي.

موسى: يا طارق إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس، فاستبحه هنيئًا مريئًا.

طارق: والله، لن أرجع عن قصدي هذا، ما لم أنته إلى البحر المحيط، أخوض فيه بفرسي.

بعد هذا العناق الحار عادا إلى خيلهما..

ثم تحرك البطلان بعدما اجتمع الجيشان في طريق ممتد من «ماردة» إلى «سلمقنة»، وكان طريقًا وعرًا تحيط به المنحدرات والشعاب، التي إن صلحت لشيء فإنما تصلح مكامن للقتلة والمتربصين.

نزلوا بوادٍ سحيق سمى بعد ذلك «وادي موسى valmuza» وأراد موسى بنزوله فيه استطلاع المكان بعدما شعر بالخطر يقترب من جيشه، وكان له ما توقع، فما كاد يعسكر حتى خرجت عليه فلول جيش القوط الكامنة هناك بقيادة «بلايو» وفاجأته، غير أن رباطة جأش «موسى» وتنبه قواته جعلته يتصدى لذلك الجيش المهزوم في «وادي لكة»، وقد كان جيش بلايو رغم عدده الكبير يفتقر للترابط وروح القتال؛ لذا تمكن المسلمون سريعًا من الفتك بهم وفر بلايو مرة أخرى صوب الشمال.

❀❀✤❀❀

(3)

شتاء طُلَيْطِلَة 713م

وكان شتاء طليلطة شديد البرودة.. حيث ازداد هطول الثلوج كثافة وغزارة على المدينة فغطاها بقدر تكاثر وتزاحم جند المسلمين فيها، تلك الجيوش التي كانت قد خرجت لتوها منتصرة في كل حرب خاضتها، ولهذا قرر أميرها «موسى بن نصير» أن يريحها خاصة بعدما قضت على ألد أعدائها، وبعد أن طهرت جيوب المقاومة القوطية في كل المدن المفتوحة، وقد أراد أن يستغل فترة الراحة في تنظيم المناطق المفتوحة، على أن يستأنف فتوحاته عقب انتهاء الشتاء، فوضع على كل مدينة مفتوحة رجلًا من المسلمين.

وعلى ضفاف «نهر التاجة» القريب من القصر، وقف موسى يراقب حركة الماء المتجه صوب الغرب وقد أمسك بلجام فرسه وبدا كأنه يفكر في أمر مهم، وبينما هو كذلك يداعب شعر حصانه، إذ أقبل عليه طارق بن زياد ولاحظ صمته فقال: فيم يفكر الأمير؟

موسى: انظر يا طارق (يشير إلى النهر).

طارق متعجبًا: لا أرى شيئًا يا سيدي.

موسى: انظر إلى جريان الماء في هذا النهر، ماذا لو انقطع؟

طارق بتعجب أكبر: سيموت الزرع والبشر يا سيدي، فهذه بلاد تعتمد على الأنهار في حياتها.

موسى: وكذلك جيوش المسلمين يجب ألا تتوقف أبدًا عن الفتوحات، وإلا مات البشر وانعدم الأمن واختل نظام الكون، ألا ترى كيف تحولت تلك البلاد في شهور قليلة؟ لقد سادها الأمن ورضيَ أهلها ودخل من دخل فيهم للإسلام؛ لهذا يا طارق، فقد عزمت على استئناف الفتح حتى تصل رسالة الإسلام إلى البشر عامة، ثم صمت برهة قال بعدها لقد أعذر «عقبة بن نافع» عندما دفع بفرسه الماء وقال: «اللهم إني أشهدك أن لا مجاز ولو وجدت مجازًا لجزت» ولكننا وجدنا المجاز، وخضناه لهذه البلاد التي أنهكها الصراع وقتلها الضعف والجهل.

وبينما يتحدثان إذ اِقترب منهما ماتيه وقال: سيدي الأمير هناك أحد الأساقفة يريد لقاءك.

موسى: دعه يأتي لنرى ماذا يريد؟

حضر الأسقف وكان طاعنًا في السن يركب بغله ويرتدي زي الرهبان فلما اِقترب مِن موسى قال: سيدي الأمير لقد أقبلت عليك من مسافة بعيدة وما ذلك إلا لأتثبت.

طارق: ممَ تتثبت؟!

الأسقف معلقًا بصره بموسى: إنا لنراك في كتب الحدثان عن «دانييل» بصفتك صيادًا تصيد بشبكتين، رجل لك في البر، ورجل في البحر تضرب بهما ها هنا وها هنا فتصيد.

ابتسم طارق ونظر لأميره فإذ به قد سُر وأعجبه القول، ثم أردف الأسقف: أرسل معي رجالًا حتى أدلك على كَنْزٍ عَظِيمٍ.

نظر موسى لماتيه وقال: انظروا في شأنه.

انصرف ماتيه ومعه رجاله فأتى بهم الأسقف إلى مكان وقال: اِنزعوا ها هنا.

ظلوا يحفرون وينزعون الحجارة، فأفضى بهم إلى قاعة عظيمة ذات لواوين حسنة، فوجدوا هناك من اليواقيت والجواهر والزبرجد ما أبهتهم! وأمَّا الذهب فشيء لا يعبر.

دخل ماتيه وهو لا يكاد يصدق ما يرى فنظر إلى البُسط المنسوجة بقضبان الذهب، المنظومة باللؤلؤ الفاخر، واليواقيت والجواهر التي ليس لها مثيل في شكلها وحسنها ووصفها، وقال: اللَّهُ أَكْبَرُ! لا يصدقنا الأمير أرسلوا إليه لينظر بنفسه. ثم أمر الجند أن يحملوها فلم يستطيعوا من ثقلها فضربوها بفأسٍ في وسطها فحملوا منها ما استطاعوا انشغالًا بما هو أنفس منها.

❀❀✤❀❀

(4)

سرقسطة (الثغر الأعلى)

في وسط مدينة «سرقسطة Saragosse» ظهر «بلايو» وحوله الكثير من أهل المدينة، وقد غُيمت وجوههم وظهر عليها الفزع والجزع، وما هي إلا لحظات حتى خرج الأسقف «بنسيو» من كاتدرائية المدينة وخلفه جمع من الرهبان يركبون ظهور الخيل.

فتعالت الأصوات واختلطت الألسن فقال أحد العامة: إلى أين أيها الأمير؟ لقد ظننا أنك ما أتيت إلى هنا إلا لتدافع عن المدينة لا لتأخذ منها أموال الكنائس وتفر مصطحبًا كل هؤلاء الرهبان!

زادت كلماته اِحتقان العامة، فارتفعت أصواتهم أكثر، وتقدم بعضهم وحاصروا الرهبان، وحاولوا استلاب ما معهم من أموال، وبلايو يحاول إسكات الناس أو السيطرة عليهم، ثم قال الرجل مرة أخرى: أتفرون وتتركوننا نواجه العرب بمفردنا؟

رفع بلايو يده وبالأخرى شد لجام فرسه مستديرًا بينهم: اِعلموا لم أخرج من بينكم إلا لحمايتكم.

الرجل: ماذا تقول أيها الأمير؟ هل تتنصل من الدفاع عنا بهذه الطريقة؟

بلايو: بل أنا حريص على حياتكم، وإلا لمكثت هنا معكم، فالعرب لن يقاتلوكم إلا إن قاتلتموهم.

الرجل بازدراء: إنه لخزي وعار عليك أيها الأمير.

ما إن قال الرجل ذلك حتى استل أحد رجال بلايو سيفه وأراد قتله، غير أن بلايو منعه فأكمل الرجل حديثه غير مبالٍ بما يحدث وقال: فلم لا تبقى ونقاتلهم معك أو نستسلم جميعًا؟

زفر بلايو حسرة كبيرة في صدره وقال: لقد كنا نسمع بالعرب، ونخافهم من جهة مطلع الشمس، حتى أتوا من مغربها، واستولوا على بلاد إِيْبيرِيَّة وعظيم ما فيها من العدّة والعدد بجمعهم القليل، وقلّة عدّتهم، وكونهم لا دروع لهم، فالرأي عندي ألا تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنّهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نيّات تغني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرياسة، ويستعين بعضهم ببعض، فحينئذ تتمكّنون منهم بأيسر أمر.

الرجل: أوَ ترغب أن نستسلم ونخضع؟!

بلايو: لا فائدة من قتالهم إن أردتم الحياة فلتنهزموا اليوم؛ لتحاربوا غدًا.

ثارت الجلبة بين مؤيد لفكرته ومعارض فتقدم الرجل: وأنت أيها القائد؟

بلايو: لن أستسلم لهم، ولكن سأفر اليوم وأعد لقاتلهم غدًا.

الرجل: إن كان كما تقول فلنخرجنَّ معك.

بلايو: إن فعلتم سيلاحقنا العرب، ويقضون علينا، ولكن سالموهم حتى إذا جاء اليوم وخرجت عليهم كنتم عضدًا لي وسندًا... أمَّا الأموال التي حملتها معي فاعلموا إن تركتها لكم سيأخذها العرب فدعوها لي أستعن بها عليهم في قادم الأيام.

ثم لكز بطن جواده وانسحب من المدينة وقد أفرغها من الجند والمال. حتى إذا وصل موسى إلى أسوار سرقسطة وجد أهلها قد وطنوا أنفسهم على الاستسلام، فدخلها صلحًا وسط صيحات الجنود التي بلغت العنان وهزت الوجدان «اللَّهُ أَكْبَرُ.. اللَّهُ أَكْبَرُ» وفور دخوله المدينة قام «حنش بن عبد الله الصنعاني» ببناء مسجد المدينة الجامع فصلى فيه «موسى، وطارق» وباقي المجاهدين.

وبعد فتح سرقسطة افتتح موسى ما دونها من بلاد ثم مضى رافعًا رايته، حتى جاوز عشرين ليلة وهو يفتح المدن والحصون والمعاقل ففتح « طركونة، برشلونة، لاردة، وشقة» وطارق معه في تلك الفتوحات، ثم توغل موسى حتى وصل إلى أقصى الشمال جنوب فرنسا ففتح «قرقشونة، أربونة، أبنيون، لوذان»

وفي تلك الأثناء اِنتشر خبر بين الجند، أن «موسى» يريد غزو الأرض ووصل الشرق بالغرب، وجعل بحر الشام بحيرة أموية خالصة، فخشي بعض الجند من ذلك وقد ملوا من الحرب، فتحدثوا فيما بينهم حتى وصل خبرهم إلى حنش الصنعاني (وهو من كبار التابعين وله مكانة كبيرة عند موسى).

وبينما يقف موسى على جبال ألبرت (الحدود الطبيعية بين فرنسا وإسبانيا) يطل منها وقد جالت بخياله صورة لفتح أوربا كلها، تقدم حنش الصنعاني من مقدمة الجيش وأمسك بلجام فرسه قائلًا: أين تذهب؟ تريد أن تخرج من الدنيا! أو تلتمس أكثر وأعظم مما آتاك الله عزَّ وجلَّ، وأعرض مما فتح الله عليك ودوخ لك؟ إني سمعت من الناس ما لم تسمع، وقد ملئوا أيديهم وأحبوا الدّعة.

موسى: أمَّا والله لو انقادوا لي لقدتهم إلى رومية ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله، حتى أصل بهم إلى القسطنطينية، فتفتح على يدي وألحقها بدار الخلافة.

حنش: أتريد ذلك حقًا يا موسى؟

موسى: ما بقيَ أمامنا بعد فتح الأندلس سوى بلاد الفرنجة، وبعدها نقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل الناس بالشام ولا يحتاج الناس في مسيرهم إلى الأندلس لركوب البحر.

حنش: وقد وضعت الخطة لذلك؟

موسى: أجل يا شيخنا، فهناك في تونس تصنع السفن لهذا الأمر، وقد أمرت بإنشاء مائة سفينة، وبعدها أحشد جيشًا ضخمًا يقتحم البَرْنيّة، يؤيده من البحر أسطول قوي، فيبدأ بافتتاح «مملكة الفرنج»، ثم يقصد إلى «مملكة اللومبارد» (في شمال إيطاليا)، فيخترقها فاتحًا إلى «رومة» قاعدة النصرانية، فيدخلها ويقضي فيها على كرسي النصرانية، ويتابع سيره بعدئذ شرقًا إلى «سهول الدانواب» مثخنًا في القبائل «الجرمانية» التي تسيطر على ضفافه، ثم يخترق أراضي الدولة «البيزنطية» حتى «قسطنطينية» فيستولي عليها، ثم يعبر إلى آسيا الصغرى قاصدًا «دمشق» فيصل بذلك أملاك الخلافة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب من طريق الشمال، كما اتصلت من طريق الجنوب.

حنش وقد هاله تفكيره الفذ: أبهذه السهولة يا موسى؟

موسى: لا يوجد ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم، فالإسلام الآن في ذروة الفتوة والقوة والبأس، وجيوشه تقتحم أرجاء العالم ظافرة أينما حلت، وأمم الغرب يسودها الضعف والانحلال، ومملكة الفرنج وهي أضخمها وأقواها، يمزقها الخلاف والتفرق، وقد بدأنا غزوها بالفعل ولم تستطع النصرانية أن توحد جهودها لرد الإسلام، ولم تقم فيهم زعامة قوية تجمع كلمتهم وتنظم قواهم في جهة دفاعية موحدة، وأوروبا ما هي سوى مزيج مضطرب من الأمم والقبائل المتنافرة، تمزقها المطامع والأهواء المختلفة، فالإسلام يستطيع غزوها وفتحها فليست والله بأمنع وأقوى من الفرس والروم.

حنش: هكذا هي أحلام قادة المسلمين، أن يملكوا الدنيا وأن يكون للإسلام الكلمة العليا، ولكن أذكرك حين قلت عن عقبة بن نافع -رحمه الله- كيف ينطلق ولا يحمي ظهره، أما كان معه رجل رشيد؟ فأنا رشيدُك اليوم، أين تذهب بالناس؟

موسى: أرشدك الله ورحم عقبة بن نافع.

حنش: أَرِحْ الناس يا بن نصير ثم سِر بهم إلى أن يشاء الله.

❀❀✽❀❀

(5)

شروق الأندلس

سطعت الشمس فأشرقت سماء شبه الجزيرة الإيْبيرِيَّة تعلن بداية يوم جديد، وكأنها تطبع قبلة الحياة لتستيقظ الأرض من نومها بعد ليلٍ طويلٍ.. بينما في طرقات المدينة الحسناء «إِسْتِجَة» تركض عربة يجرها الخيل بين بساتين وجنات ملتفة وحدائق زاهية..

بيدرو: انظر حولك يا بُنيَّ أتذكر حين اِضطر العديد من سكان الأرياف والمزارعين الأحرار بفعل ظروفهم الاقتصادية الصعبة، أن يتنازلوا عن أراضيهم للنبلاء، وارتضوا بالعمل والبقاء كمستأجرين مقابل تمتعهم بحمايتهم.

سايلو: كل شيء تغير الآن يا خال؛ فبحكم المسلمين لنا انتهت الطبقية التي أعيتنا دهورًا.

بيدرو: صحيح لقد تحسنت الأحوال كثيرًا، وصرنا نتنسم العدل في الأجواء.

سايلو: لا أعرف كيف ظن رجال المدينة أن بنقضهم العهد المبرم مع «طارق بن زياد» أنهم سيتمكنون من مجابهة المسلمين!

بيدرو: لقد أحسن إلينا «موسى بن نصير» حين أتى بقواته معلنًا خضوع إِسْتِجَة التام، وأخمد كل انتفاضة وهو الخبير بذلك وقد سبق أن فعل حين فتح شمال إفريقية.

سايلو: مَهٍ يا خال تتحدث عنه كأنك معجب به! أوَ ستنجرف وراءه أنت أيضًا كما فعل معظم أهل المدينة إذ سارعوا يعاونونه ويمدون إليه أيديهم ناسين أنه على غير ديننا!

صمت بيدور ولم يجبه حتى مرت العربة أمام بيت «السيد أوريليوس» فأشار: قف هنا لقد وصلنا.

سايلو جاذبًا لجام الخيل بقوة: أوَ تظن حقًا أنه ينتظرنا؟

بيدرو: السيد أوريليوس وإن كان من النبلاء إلا أنه طيبُ القلب وقد عرفته منذ زمن، كما أنه أرسل يدعونا لزيارته.

سمع أوريليوس صوتَ جلجلة الخيل فخرج إليهم قائلًا: أهلًا بك يا بيدرو وأهلًا بابن أختك سايلو ثم صافحهم وقال: تفضلا..

نظرا إليه والذهول على محياهما؛ فقد ارتدى عمامة على رأسه وملابس مثل العرب.

أوريليوس ملاحظًا ما بدا عليهما: لا تعجبا؛ لقد صرتُ مسلمًا والْحَمْدُ للّهِ.

تبادلا النظرات بحيرة ودهشة أشد! وما أن دخلا بيته الذي ملأته خيوط فضية تتصاعد من بخور شرقي يحمل عبقًا شديد الجاذبية، حتى أجلسهم أمام منضدة عليها محبرة وريشة وصحائف مكتوبة بخط عربي..

رمقه بيدرو بنظرة إعجاب واستحسان وقال: لقد فكرتُ في دين العرب لما وجدت فيه من عدلٍ ورحمةٍ بنا نحن الفقراء الكادحين، أمَّا أنت يا سيد أوريليوس، ما الذي دعاك لهذا وأنت ذو جاه ومال؟

أوريليوس: وهل لستُ بحاجة إليه؟! الإسلام لا يعتنى فقط بفتح البلدان وإحترام المعاملات بل إنه يهدف في الأساس إلى رُقي الإنسان وطُهر قلبه، ووالله ما شعرت أني نبيل وشريف إلا بعد إسلامي.

سايلو وقد تحفز في جلسته: عذرًا سيد أوريليوس.. أراك متحمسًا للحديث عن الإسلام، ولكن لمَ طلبت حضورنا؟

أوريليوس: لأدعوكم إليه.. لقد آن لشعب القوط أن يعترف بعظمة هذا الدين، وها هي مَلكتنا «أجيلونا» قد سبقتنا إليه.

بيدرو فاغرًا فاه: أجيلونا أرملة لُذرِيق!

أوريليوس: أجل.. لقد عاشت في ظلامٍ دامسٍ تحت حكم زوجها البائس، فلما رأت النور أقبلت عليه حبًا واشتياقًا وحسن إسلامها، وأبدلها الله برجلٍ تقي فاضل في أخلاقه وسيرته هو «عبد العزيز بن موسى» الذي تزوجها وكناها بأم عاصم.

صمت بيدور للحظات وراح يقلب كفيه وهو ينظر إليهما بينما علت وجهه ابتسامة خجل وهو يقول: ولكن بماذا سأفيد إن أسلمت وأنا رجل مسن، وقد طوي أكثر عمري، واقترب أجلي؟

أوريليوس: يكفي أن تعيش على الحق، وتدعو إليه ولو بكلمة؛ فتبعث عليه وتلقي الله به، وربما يأتي من بعدنا من يفني حياته خدمة لدين الله.. فالإسلام ليس بحاجة إلى أحد بل نحن الذين بحاجة إليه، وإذا تخلينا عنه فإن الله يشرح صدور غيرنا له ليحملوا رايته ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾.

نظر بيدرو إلى سايلو الذي حزم أمره بعد إنصاته للحديث وقد تبدلت ملامح وجهه إلى رضا وشعر بنداء الفطرة في أعماق نفسه فقال: ماذا نفعل كي نصبح مسلمين؟

أوريليوس مبتهجًا: رددا معي أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ.. وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ.

❀❀✽❀❀

(6)

في قصر الخلافة

جلس «الوليد بن عبد الملك» ومن حوله كبار رجال دولته وولي عهده أخوه «سليمان» وابنا عقبة «عثمان وعياض» يقفان أمامه وعثمان يتحدث وقد بدا الغضب على وجه الوليد فجعل يقول: أكل هذا حدث؟

عثمان: بل وأكثر من ذلك يا أمير المؤمنين فقد ذهب إليه وهمّ بسجنه وعقابه.

سليمان: ولماذا يفعل وهو من اِختاره لقيادة الجند؟

عثمان: بلى يا سيدي، هو من فعل وقدمه على كبار قادة المسلمين ثم بعد ذلك تغير عليه ولم يفعل حتى نزل الجزيرة مصطحبًا ابنه عبد العزيز بعد أن ترك «القيروان» لابنه عبد الله، ثم ولى عبد العزيز قيادة الجيش المتجه صوب غرب الجزيرة.

عُمر بن عبد العزيز: لم تجيبا على سؤال سليمان «لماذا يفعل موسى ذلك؟»

عياض: الغيرة والحسد، ولأن طارق خالفه ولم يطع أمره.

عُمر بن عبد العزيز: كذبتما! وكيف يغار موسى وهو من نعرف من قائد جيشه؟ فوالله لولا موسى ما عرفنا طارق، وقد كان قادرًا لو أراد أن يولي الجيش لغيره، كما فعل حينما أرسل طريف بن مالك بتلك السرية المباركة التي نزلت الجزيرة أولًا، ولكن ليس مثل موسى من يجهل الرجال.

الوليد: فماذا ترى يا أبا حفص؟

عُمر بن عبد العزيز: والله يا أمير المؤمنين ما عرفنا عن موسى إلا خيرًا، فإن كان فأرسل إليه وتبين الأمر فإني أخشى عواقب ذلك الخلاف أن ينتهي بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم في تلك الأقطار البعيدة.

دخل الحاجب ليخبر الوليد بقدوم مُغِيث ومعه رسالة موسى، فسمح له بالدخول.

الوليد: ما وراءك يا مُغِيث؟

مُغِيث: كل ما تحب يا أمير المؤمنين، تركتُ موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد في الأندلس، وقد أظهره الله ونصره، وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد، وقد أوفدني إليك، ثم دفع إليه كتاب موسى.

قرأه الوليد وكان فيه «لَم يَكُن هَذَا فَتحًا كَغيرِهِ مِنَ الفُتُوحِ يَا أَمِيرَ الْمُؤمِنِين، فَإِنَّ الوَاقِعَةَ كَانَت أَشبَه بِاجتماعِ الحَشرِ يَومَ القِيَامَة» فلما أتى على آخره خر ساجدًا لله حامدًا.

عثمان: لماذا لم تخبر أمير المؤمنين يا مُغِيث عن نية موسى فتح القسطنطينية من المغرب؟

اِشتد قلق الوليد وقال معقبًا: يريد التوغل في أوربا وفتح القسطنطينية!

عياض: أجل يا أمير المؤمنين.

سليمان: لي رأيٌ لو أذن أمير المؤمنين.

الوليد: تحدث يا سليمان.

سليمان: ماذا لو سار موسى إلى وسط أوربا وحُوصر المسلمون هناك، لا نريد أن يحدث لجنودنا ما حدث لعقبة -رحمه الله- خطة كهذه تحتاج لإعدادات أكبر.

الوليد: بلى، لقد توغلوا كثيرًا في بلاد الأندلس في وقت قصير، ومن الممكن أن يلتف حولهم النصارى من جديد، فإن قوة المسلمين مهما تزايدت في تلك البلاد فهي قليلة. ثم نظر إلى مُغِيث وقال: اِرجع من فورك وسِر حتى تجد موسى بن نصير فأخبره أن يأتيني ومولاه طارق على عجل.

❀❀✽❀❀

(7)

زواج الحبيبين

أيقن «سيزبوت» باستحالة عودة مُلك آل غَيطَّشة فاكتفى بما ناله من عودة ضياعه وأملاك أبيه التي سلبها لُذرِيق بحجة أنها من أملاك الدولة لا أملاك خاصة لهم، وقرر العيش في إشبيلية قريبًا من أملاكه فيها وبعيدًا عن طُلَيْطِلَة وذكرياتها.

وبينما يواصل المسلمون خطواتهم الأخيرة لفتح باقي البلاد، كان الكونت يوليان وخادمة ابنته أليفا والأب أوباس وإيفا ومجموعة من النبلاء قد اجتمعوا في إشبيلية لعقد أكليل سيزبوت على فلورندا.

وقف الأب أوباس ونظر إلى العروسين فوجد الفرح والسرور يغلب عليهما، ثم نظر إلى سيزبوت وقال: أيها الابن المبارك (سيزبوت) هل تقبل الابنة المباركة (فلورندا) زوجة لك؟

سيزبوت: أجل.

أوباس: أيتها الابنة المباركة (فلورندا) هل تقبلين الابن المبارك (سيزبوت) زوجًا لكِ؟

فلورندا: أجل.

أوباس: باسم ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، نعلن زواج الابن المبارك (سيزبوت) والابنة المباركة (فلورندا) باسم الآب والابن والروح القدس، مبارك الإله الآب القدير.

وهكذا وبأبسط الطقوس تم الزواج والاحتفال ثمَّ غادر الجميع وبقي سيزبوت وحده مع فلورندا وهو لا يكاد يصدق ما حدث فجثا على قدميه وأمسك يديها وقال: أخيرًا فلورندا، أخيرًا وبعد كل هذه المِحن صرتِ لي وصرتُ لكِ.

فلورندا: ما كنت لأكون لغيرك يا حبيبي.. لقد انتهت سنوات الحرمان والشقاء.. سنوات التفكير والخوف.

رمقها سيزبوت بابتسامة تشع حبًا واشتياقًا: أخيرًا! اِستقر قلبي واطمأنت نفسي بقربك.

فلورندا: أتعلم يا حبيبي كم كنت أخشى أن يكون غيابنا وافتراقنا سببًا في سكون حبك لي!

سيزبوت: الحب الذي رام قلبي لا ينطفئ بالحرمان، ولا يقتله فراق، ولا تقضي عليه أية محاولة للهروب منه؛ فهو يسري في عروقي فينبض القلب ويحيا به وله، ثم قبل يديها وقال: في أحلك أوقات حياتي كنتِ معي في وجداني تخففين شقاء أيامي.

فلورندا: أتمنى أن نعيش سعداء ونعوض فقدان الملك.

سيزبوت: أنا ملك ما ملكت قلبك، فمن ملك فلورندا لن يفكر في غيرها، أمَّا المسلمون حاكمو الجزيرة فيكفي أنهم كانوا من أسباب زواجي بكِ ولن أنسى فضلهم ذاك.

❀❀✽❀❀

(8)

الفتوحات الأخيرة

في أقاصي بلاد الأندلس وتحديدًا بالقرب من مدينة «جليقية Galicia»، ووسط صهيل الخيول، وبينما يمتطي موسى صَهْوة جواده وحوله رجاله وبجانبه طارق بن زياد، والجميع يتأهبون للمسير صوب جليقية لفتحها وسحق ما تبقى من القوط، وخصوصًا من فر منهم ولم يقبل بحكم المسلمين، إذ قال أحد الجند: أيها الأمير، فارسٌ قادمٌ من جهة الجنوب.

نظر موسى، وطارق إلى حيث الفارس القادم وهما يحاولان التعرف عليه حتى إذا اِقترب منهم قال طارق: إنه مُغِيث الرومي يا سيدي.

موسى: مُغِيث! ما عاد لنا إلا بأمر جَلل.

وما هي إلا لحظات حتى أقبل مُغِيث الرومي فنزل من على صَهْوة جواده وتقدم صوب موسى الذي اِحتضنه بقوة ثم سلم على طارق واحتضنه أيضًا ثم نظر إلى موسى وقال له: رسالة من أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك.

وأعطاه الرسالة، فتحها موسى فتغير وجهه ولم يتحدث..

مُغِيث: يأمرك أمير المؤمنين بالتوقف بالجيش حيث أنت ومن ثم العودة إلى دمشق.

تعجب طارق أيما عجب بينما تملكت الحيرة من موسى الذي قال: لماذا، لماذا؟! ونحن على أهُبَّة الاستعداد لسحق القوط وتخليص الأندلس للمسلمين.

مُغِيث: لقد بلغه ما كان بينك وبين طارق من نزاع، فخشي على المسلمين الهلكة وعواقب التنازع والتفرق.

طارق: تنازع! أي تنازع هذا؟ فما أنا إلا جندي من جنود الأمير أسمع فأطيع.

مُغِيث: ولكنك قائد الجيش يا طارق.

طارق: قائد الجيش تحت إمرة الأمير موسى بن نصير.

مُغِيث: على كل حال هذا أمر الخليفة وعليكم التنفيذ.

موسى: وطارق أيضًا؟

مُغِيث: أجل يا موسى، فالرسالة لكما.

موسى: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وقع أمر الخليفة على موسى وقع الصدمة، خصوصًا وأنه كان على مشارف تخليص الأندلس كلها من يد القوط، وكان يعلم علم اليقين أن وجود بقايا للقوط في الأندلس مهما بلغ ضعفها، فهو نذير بمقاومة آتية لا محالة، وجبال الشمال تحتضن من يحتمي بها، لهذا فكر قليلًا ثم قال لمُغِيث: هل لك في أجر الدنيا والآخرة يا مُغِيث؟

مُغِيث: كيف ذلك؟

موسى: أن تنظرني أيامًا حتى أنفذ عزمي، وأضم تلك البلاد إلى الخلافة وتكون معي في جهادي وفتوحاتي، فتكون بذلك شريكًا في أجر الجهاد، وأن أمنحك قصر حاكم قُرْطُبة القديم فوالله يا مُغِيث لئن تركنا لهؤلاء القوط شبرًا فيها، فسينازعوننا الأمر آجلًا غير عاجل، وبعدها نسير إلى «دمشق» وقد اطمأنت نفوسنا وقلوبنا لذلك الفتح.

فكر مُغِيث قليلًا وقال: على بركة الله يا موسى.

طارق: هل لي برأي يا سيدي؟

موسى: تحدث يا طارق.

طارق: أما وقد رضي مُغِيث، ولكن يظل الوقت علينا لا لنا والبلاد واسعة ممتدة شمالًا وشرقًا وغربًا، فلو أراد الأمير فلنقتسم الجيش، فأسير أنا بقطعة منه، ويتحرك الأمير بالقطعة الأخرى، وبذلك نفتح البلاد في اتجاهين وفي أقصر وقت ممكن، ولا نتأخر عن أمير المؤمنين فيظن بنا الظنون، وقد خبت قوة القوط يا سيدي، فلن يعجز أحدنا قهرهم وهزيمتهم وقد تفرقوا في الأنحاء.

موسى: لقد تحدثت بما في نفسي يا بن زياد، فعلى بركة الله يا رجل.

وهكذا قسم موسى الجيش إلى فرقتين، وقد استطاع أن يعيد لجنوده نشاطهم وحماستهم للفتح، حيث كان يتقدم الصفوف رافعًا يده وهو يقول: أيها الناس، إني متقدم أمامكم فإذا رأيتموني قد كبرت وحملت، فكبروا واحملوا.. وبذلك يشعل حماسهم فكبروا من ورائه واندفع عزمهم.

فسلك طارق وفرقته الطريق الأول حيث اِتجه إلى «جبال كنتبرية»، وبدأ بمهاجمة «البشكنس» في الجهة الشمالية الغربية لنهر «إيبرو»، وتمكن من إخضاع منطقة «أرغون» وصالح حاكمها الكونت «فرتون قاسي» الذي خاف أن يخسر وجاهته ونفوذه وحتى يحتفظ بأمواله، فقبل الجزية ثم بعد ذلك رحل لدمشق وأشهر إسلامه بين يدي الوليد.

ثم سار طارق في طريقه ينثر بذور الإسلام ويرويها بجهود الفاتحين ففتح «أماية، واسترقة، وليون».

أمَّا موسى فقد اصطحب مُغِيث معه، وسار على الضفة الشرقية لنهر «إيبرو» وأثناء المسير حضر وقت الصلاة فتوقف الجيش قليلًا.. ثم نزل موسى وتوضأ من النهر وشرب منه وقال لمُغِيث: ما شربت ماء أعذب من ماء هذا النهر العظيم!

مُغِيث: حقًا إنه عظيم! فهو أهم نهر في شبه الجزيرة من حيث صبيب المياه إذ ينبع من جبال كنتبرية بأقصى الشمال الغربي ويصب في بحر الروم بأقصى الجنوب الشرقي، فهو شريان قلب شبه الجزيرة ولذا سميت على اسمه إيْبيرِيَّة.. تحركا فوق ضفة النهر وجلسا أسفل شجرة وما أن أسندا ظهريهما حتى قال مُغِيث: أخبرني يا موسي أي الأمم أشد قتالًا؟

موسى: هم أكثر من أن أصف.

مُغِيث: وماذا عن قتالك مع الروم وهل يشبهون القوط؟

موسى: أجل مثلهم فهم أسود في حصونهم، عقبان على خيولهم، نساء في مراكبهم، إن رأوا فرصة اِنتهزوها، وإن رأوا غلبة فأوعال تذهب في الجبال لا يرون الهزيمة عارًا، ولكن ليس هذا ما أعول عليه.

مُغِيث: فماذا إذًا؟

موسى: أستشعر الصبر والخوف، وأتحصن بالسيف والمغفر، وأستعين بالله وأرغب إليه بالنصر.

تلفت مُغِيث ونظر حوله فإذ ببقر وغنم كثير منطلق دون راع أو صاحب، يمر الناس بجواره ولا يلتفتون إليه فقال: والله إنَّ الخير في تلك البلاد وفير ومع ذلك فإن أهلها يعانون شظف العيش.

موسى: عندما يسرق وينهب مَن بيده شئون البلاد، تضمحل الخيرات، وتجدب الأراضي وإن كانت خصبة، فتنعدم البركة، ولا يشعر أهلها بخير قط حتى وإن كانوا يعيشون على نهر من ذهب، فالعدل في توزيع الثروات هو عين البركة و«إن الله سائل كل راع عما استرعاه، أحفظ ذلك أم ضيع؟ حتى يَسأل الرجل عن أهل بيته»

رُفع صوت الأذان فرددا وراءه ثم أردف موسى: نحن في صلاتنا نقف صفوفًا متساوية، وهكذا الثروات ومقدرات البلاد يجب أن توزع بالتساوي على أهلها حتى لا ترى فيهم شقيًا أو محرومًا وذلك لا يكون إلا بإمام عدل تقي.

هز مُغِيث رأسه موافقًا ثم قال: أجل صدقت، ووالله إنَّ البلاد بحاجة إلى إمام عدل كالذي وصفه عُمر بن العزيز بقوله: «الإمام العادل كالراعي الشفيق على إبله الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهَلكة، ويحميها من السباع، ويكنُّها من أذى الحر والقُر».

بعد ذلك انطلق موسى فافتتح حصن «باروس» الواقع في منطقة سميت بعد ذلك «بلد الوليد Valladolid»، ثم انحرف إلى الشمال حتى وصل «مدينة لك» وأقام فيها ومنها بعث السرايا، حتى بلغت صخرة (أستورياس) العظيمة حيث اعتصم فيها القائد «بلايو» مع ثلاثمائة من بقايا جيش القوط!

❀❀✤❀❀

كان «عبد العزيز بن موسى» بعد استسلام ماردة قاد حملة إلى إشبيلية وذلك لتمردها، إذ تجمعت بها عناصر قوطية وهاجموا الحامية المسلمة هناك، وقتلوا منهم ثمانين رجلًا، فتمكن من إعادة فتحها بسهولة ثم سار إلى «نبلة، وباجة» لتقوية حاميتهما، ثم بعد ذلك تولى القيادة العامة لكل المناطق.

وابتدأ من إشبيلية حملته لفتح وسط البرتغال، في الوقت الذي كان فيه موسى، وطارق يقومان بفتوحاتهما في الشمال، ففتح عدة مدن، وعقد معاهدات صلح مع «يابرة، ولشبونة، وقلمرية، وشنترين»

أمَّا موسى فقد تقدم إلى «خيخون» فافتتحها، وبينما هو في اشتداد الظهور وقوة الأمل ومعه مُغِيث إذ وفد عليه رسول آخر من الخليفة يكنى «بأبي نصر» أردف به الوليد مُغِيثًا لما استبطأ في القفول والعودة إلى دمشق.

حاول موسى أن يفعل مع أبي نصر كما فعل مع مُغِيث، ولكنه رفض فقال له موسى: دعني أخضع بلايو حتى لا يجتمع القوط من حوله، فلن تموت دولة القوط إلا بموت كل قادتها ورجالها.

ولكن أبا نصر رفض أيضًا، وقلل من شأن بلايو ومن باقي المناطق التي لم تفتح وهون منها.

فلم يجد موسى إلا أن يخضع لأبي نصر فأمر بوقف الفتوحات بأمر الخليفة، ثم سار موكب موسى ومعه طارق ومُغِيث وأبو نصر، فاخترقوا طُلَيْطِلَة ومنها إلى قُرْطُبة وعند أبوابها حول موسى وجهه إليها وقال: وآهًا لك! يا قُرْطُبة، ما أطيب تربتك، وأشرف بقعتك، وأعجب أمرك!

ثم توجه إلى إشبيلية التي اِختارها عاصمة للبلاد المفتوحة بسبب قربها من البحر، ومن مضيق «جبل طارق» كما جعلها أيضًا قاعدة بحرية للدولة العربية الإسلامية في

الأندلس، ثم جعل ابنه «عبد العزيز» واليًا عليها، وترك معه بعض القادة العرب من أمثال «حبيب بن أبي عبيدة الفهري، وزياد بن النابغة التميمي» وغيرهما مع رجال عشائرهم، وأوصاه بأن يُتم فتح ما تبقى من الأندلس.

(9)

الطريق إلى دار الخلافة

غادر موسى بن نصير وطارق بن زياد وزوجته أم حكيم وماتيه ومُغِيث الرومي وأبو نصر، ومعهم كميات هائلة من الغنائم والسبي من أبناء ملوك الفرنج، والوصائف والوصفاء، وأيضًا مائدة سليمان والآنية..

ثم أمر موسى بصنع العجل فصنعت له مائة وثلاثين عجلة حُمل عليها الذهب والفضة والتيجان وعددٌ لا يحصى من الجواهر والطرائف وأصناف الحرير والوشي الأندلسي، وفوق ذلك كله حملوا العز والمجد للأمة قرونًا طويلة.

وعندما وصل موسى إلى إفريقية جعل عليها أبناءه، فجعل على سَبتة وطنجة وما بينهما ابنه «عبد الملك» وعلى إفريقية «عبد الله بن موسى».

ثم خرج معه مائة رجل من أشراف الناس، من قريش والأنصار وسائر العرب ومواليها، وكذلك بعض من كبار البربر وملوكهم، فأقبل يجر الدنيا وراءه جرًا لم يُسمع بمثله، ولا بمثل ما قدم به!

وهكذا سار في موكب مهيب كلما حل في بلدة زفَّ البشر والسرور لأهلها..

ثم غادر إلى مصر فأقام فيها ثلاثة أيام، خرج فيها أهلها وأشرافها يسلمون عليه ويستقبلونه، وفي تلك الأثناء كان الخليفة «الوليد بن عبدالملك» قد مرض مرض الموت، وكتب إلى موسى يأمره بحث السير إليه ليدركه قبل موته، بينما كتب «سليمان بن عبد الملك» إلى موسى أن يبطئ في السير رجاء أن يموت الوليد بسرعة، فيقدم عليه في صدر خلافته بما يحمل من التحف والغنائم.

ولكن موسى تجاهل أمر سليمان قائلًا لرسوله: سأسير بمسيري لا أبطئ ولا أعجل فإن وافيته حيًا لم أتخلف عنه، وإن عجلت إليه منيته وسبقتني إليه فأمره إلى الله.

ثم تحرك إلى فلسطين وهناك أكرموه وذبحوا له جزرًا عدة، ومن هيبة موكبه ذاع بين الناس شائعة أنه رجل ذو ملك عظيم ويريد الاستقلال عن الخلافة لا سيما أنه يولي أبناءه، ووصل الكلام مسامع قصر الخلافة فأوغروا بذلك صدر الخليفة.

فلما علم موسى بما يُقال في حقه قال: والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي شيئًا، ولكني آثرت الله عزَّ وجلَّ ولم أرَ الخروج عن الطاعة والجماعة.

ومن فلسطين تحرك موسى حتى وصل إلى «دمشق»، وكان الوليد قد مات وارتقى «سليمان بن عبد الملك» عرش الخلافة.

وفي قصره جاء موسى بن نصير، وطارق بن زياد ليمثلا أمام الخليفة الجديد.

دخلا إلى إيوان سليمان ولكنه لم يكن موجودًا فيه فوقفا منتظرين دخوله عليهما، وبعد وقت قصير جاء سليمان وجلس على كرسيه ثم نظر إلى موسى وقال والضجر بادٍ عليه: وددنا يا موسى أن تلحق أخي الوليد رحمه الله وأن يسعد بذكر ما حققت وتلك الغنائم والأموال والفتوحات، ولكنك وصلت يوم موته رحمه الله.

موسى: رحمه الله وطيب ثراه، لقد كان يتقي الله في رعيته، وخدم الأمة بعظيم ما قدم فبني المساجد والمستشفيات، وأصلح الطرق التي تربط بين الولايات، ووسع المسجد الحرام، وأعاد بناء المسجد النبوي وزاد فيه، وفُتحت في عهده الكثير من الفتوحات ففتح «قتيبة بن مسلم الباهلي» بلاد ما وراء النهر(بخاري وسمرقند) ووصل إلى إقليم كاشغر الذي يلامس حدود الصين، وفتح «محمد بن القاسم الثقفي» إقليم السند، وبسط سلطان الدولة في هذه البقاع، وفتح مدينة الديبل وامتدت فتوحاته إلى مُلتان في جنوب إقليم البنجاب، والْحَمْدُ للّهِ أن مكننا (مشيرًا إلى طارق) بعد موافقته من عبور البحر إلى شبه جزيرة إيْبيرِيَّة وفتح الأندلس.

سليمان: ثم خالفت أمره ولم تكتف بهذا بل وجاهرت بالعصيان، ولولا أن أرسل إليك مَن يهددك ويجبرك على العودة ما أتيت إلى هنا.

موسى: عفوًا يا أمير المؤمنين، أنا ما عصيت ولا جاهرت بعصيان، فمنذ شببت في بني أمية وولائي لهم لم يتبدل أو يتغير.. ولاني جدك «معاوية بن أبي سفيان» وأمر بغزو البحر، ففتحت «جزيرة قبرص» ثم ولّاني عمك «عبد العزيز» ولاية إفريقية خلفًا «لحسان بن النعمان» فأخمدت الثورات ودخل البربر معي في دين الله، ثم غزوت الأندلس وألحقتها بدار الخلافة.

سليمان وقد أغضبه إنكاره: أنا لا أتحدث عن هذا، ولكن عن عصيانك لأمرنا العودة إلى دمشق وتوغلك في الفتوحات.

طارق: كان لديه هدف نبيل يا أمير المؤمنين، وكان يسعى له.

سليمان: أنا ما سألتك بعد، ثم نظر إلى موسى و سأله باستهجان: أكنت تبغي ملكًا يا موسى؟

موسى: أنا لم أجاهد يومًا بحثًا عن ملك أو غنيمة، ولكن لرفع راية الإسلام ونشره في أصقاع الأرض وباسم الخلافة وبني أمية، وشهادة أنالها في سبيل الله.

شعر سليمان أنه يراوغه فقال: أعليَّ اجترأت، وأمري خالفت، والله لأقللن عددك، ولأفرقن جمعك، ولأضعن منك ما كان يرفعه غيري ممن كنت تمنيه أماني الغرور، وتخدعه من آل أبي سفيان وآل مروان.

موسى: والله يا أمير المؤمنين ما تعتل عليَّ بذنب، سوى أنني وفيت للخلفاء قبلك، وحافظت على من ولي النعمة عندي فيه، فأمَّا ذكر أمير المؤمنين: من أنه يقلل عددي ويفرق جمعي ويخفض حالي، فذلك بيد الله وإلى الله، وهو الذي يتولى النعمة عليَّ والإحسان إليَّ، وبه أستعين، ويعيذ الله عزَّ وجلَّ أمير المؤمنين ويعصمه أن يجري على يديه شيئًا من المكروه لم أستحقه، ولم يبلغه ذنب اجترمته.

طارق: لدي ما يجب قوله، فليسمح لي أمير المؤمنين.

سليمان: تحدث يا طارق.

طارق: إن كانت الخلافة قد رضيت وقنعت بما حققناه في الأندلس، ومنعتنا أن نوغل في بلاد الفرنجة أو نستأصل شأفة القوط المتربصين في أعالي «جبال كوفادونجا»، فاعلم يا أمير المؤمنين أن هدف موسى كان تثبيت الإسلام في تلك البلاد البعيدة، كان يريد القضاء على القوط ومهاجمة الفرنج الطامعين في بلاد الأندلس، الذين إن تركناهم لن يتركونا وسينزلون من جبال كوفادونجا ويقتطعون بلاد الأندلس قطعة قطعة كما فتحناها قطعة قطعة، يساعدهم في ذلك انقطاع تلك الأرض عن باقي بلاد المسلمين، وكون البحر حاجزًا بيننا وبينهم وبلاد الفرنجة تمدهم بالعدد والعتاد، يقفون في ظهورهم حتى يخرجونا من تلك البلاد.

سليمان: أكنت مَن أيده على التوغل في بلاد الأندلس؟

طارق مطأطأ رأسه: بلى يا أمير المؤمنين.

سليمان: والآن يا موسى هل أتيت بكل الغنائم أم أخفيت بعضها؟

موسى: بل أتيتُ بجميعها يا أمير المؤمنين.

سليمان: أنت متهم يا موسى بإخفاء الغنائم عن دار الخلافة؛ ولهذا فأنت معزول ومسجون حتى ترد إلينا ما أخذته من مال.

ذُهل طارق مما حدث، بينما بكى موسى ذلك الاتهام وهو الأمين الذي لو أراد الخروج على الخلافة لفعل، وقبل أن يمر الكثير من الوقت نظر سليمان إلى طارق وقال: أمَّا أنت فستعود إلى الأندلس إن أردت.

طارق بأسى: إن كان كل ما قدم موسى ليس بشافع له أمامكم، فماذا يشفع لي إن حدث لي ما حدث؟

سليمان: ولكنك لست متهمًا يا طارق.

طارق: وكذا الأمير موسى لم يكن متهمًا، ثم بكى وأتبع يقول: لا حاجة لي بإمارتكم يا أمير المؤمنين.

❀❀✽❀❀

مرت أيام.. قبل أن يشعر الخليفة بالندم على تعنيفه لموسى وعندما كان جالسًا مع وزيره ومستشاره المقرب عُمر بن العزيز التفت إليه وقال: يا أبا حفص ما أظن إلا أني قد خرجت عن يميني.

عُمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، إنه موسى البعيد الأثر في سبيل الله، العظيم الغناء عن المسلمين وقد فتح الله علي يديه الفتوح؛ فأحسن إليه.

سليمان: لقد اتخذت قرارًا بجعله معي في دار الخلافة.

عُمر: وماذا عن طارق بن زياد؟

سليمان: أمَّا طارق فقد علمت أنه أراد الحياة في هدوء ودعة بعيدًا عن مجالس الحكم والسياسة، وقد كنت عرضت عليه من قبل العودة إلى الأندلس فأبى.

❀❀✽❀❀

وبعد مرور عام..

خرج الخليفة سليمان بن عبد الملك قاصدًا الحج مصطحبًا معه موسى بن نصير، وقد كان موسى في شوق للمشاعر والنسك، فلقد عاش في أرض الجهاد بشمال إفريقية وبلاد الأندلس أكثر من عشر سنين كاملة دون عودة، وقد أتته الفرصة لزيارة بيت الله الحرام. ولكبر سنه جهز له سليمان سبل الراحة؛ ليغنيه عن مشقة الطريق..

وفي طريقه إلى الحج ناجى موسى ربه قائلًا: اللهم إن كنت تريد لي الحياة فأعدني إلى أرض الجهاد وأمتني على الشهادة، وإن كنت تريد لي غير ذلك فأمتني في مدينة رسول الله ﷺ.

وهناك رأى سليمان الناس بالموسم فقال لوزيره عُمر بن عبد العزيز: ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصى عددهم إلا الله، ولا يسع رزقهم غيره؟

عُمر بن عبد العزيز: هؤلاء رعيتك اليوم، وهم غدًا خصماؤك عند الله!

بكى سليمان بكاءً شديدًا ثم قال: بالله أستعين.

وبعد انتهاء النسك وفى طريق عودتهم من مكة شعر موسى بدنو أجله وأخبر بذلك أصحابه، وبالفعل كانت وفاته رحمه الله في مدينة رسول الله ﷺ ودفن مع الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، فعاش عظيمًا لآخر لحظاته وتحقق له ما تمناه من حُسن خاتمة، مات القائد البطل وأغمض عينيه للأبد، لكن التاريخ لم يغمض عينيه عن مآثره الخالدة.

❀❀✤❀❀

كانت الطائرة المتجهة من «فلسطين» إلى «جبل طارق» قد هبطت على أرض المطار العجيب، فنظر الجد إلى حفيده فرآه مشدوهًا منتبهًا فأردف: وهكذا يا ولدي، فقد رفض «طارق» العودة إلى الأندلس من جديد واختار لنفسه أن يعيش فردًا عاديًا بين المسلمين، وأقام في دمشق سنوات حتى توفاه الله وقد أهمله المؤرخون، فلم يذكروا لنا متى توفي؟ وكيف كانت حياته بعد تركه الإمارة؟ ولكن شاء الله أن ينساه المؤرخون في الكتب ويتذكره القاصي والداني، ربان السفينة في ماء المحيط، ورجال السياسة والأعمال وقد عرفوا أن هناك ميناءً عظيمًا من أعظم المواني اسمه «ميناء جبل طارق» ومدينة صغيرة اسمها كذلك، ومضيق هو الأهم في هذه الدنيا يحمل اسمه إلى اليوم.

ورغم تبديل القشتاليين كل معالم الأندلس بعد سقوطها، فإنهم لم يستطيعوا تبديل اسم «جبل طارق» أو إرجاعه إلى ما قبل فتح الأندلس.

عُمر مندهشًا ومردِّدًا: مضيق جبل طارق! كم مررت من هنا أثناء سفري، ولم أفكر ولو لمرة واحدة في أصل الاسم أو معناه.

مدَّ الجد يده في جيبه ثم أخرج من محفظته عملة ورقية وأعطاها لعمر قائلًا: انظر لهذه.

قلب عُمر العملة بيديه فوجدها ورقة نقدية من فئة خمسة جنيهات إسترلينية على إحدى وجهها صورة للملكة البريطانية إليزابيث الثانية، وأمَّا الوجه الآخر ففي يمينه مطبوع صورة رجل يرتدي ملابس عربية ويحمل سيفًا وفى خلفيته قوس إسلامي والنجمة الخماسية المغربية فقال: مَن هذا؟ أهو جندي مسلم؟

الجد: انظر جيدًا مكتوب أسفله بالأحرف اللاتينية «طارق بن زياد» لقد طبع البنك المركزي البريطاني لحكومة جبل طارق هذه العملة باعتباره رمزًا من رموز تاريخ العالم، وانظر على يسار العملة صورة «القلعة الحرة» التي تعود للعصر الأموي وما زالت موجودة في مقاطعة «جبل طارق».

عُمر مبتسمًا: لله دره من بطل تستحق سيرته أن تدرس وكذا أستاذه موسى بن نصير.

الجد: على ذكر موسى بن نصير، لقد كان من أعظم رجالات الحرب والإدارة عند المسلمين في القرن الأول للهجرة. فظهرت براعته الإدارية في جميع المناصب التي تقلدها، كما ظهرت براعته الحربية في جميع الحملات البرية والبحرية التي قادها، فكان محاربًا لا يُشق له غبار وقائدًا مظفرًا لم تنكسر له راية طوال عمره، ولم يخسر معركة أبدًا، شأنه في ذلك شأن سيف الله المسلول «خالد بن الوليد».. على أن هذه المواهب تبدو بنوع خاص في حكمه لإفريقية، حيث كانت الحكومة الإسلامية تواجه شعبًا شديد المراس، يضطرم بعوامل الانتفاض والفتنة..

وإذا كان موسى قد أبدى في معالجة المواقف وإخماد الفتن كثيرًا من الحزم والشدة، فقد أبدى في الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب، وبراعة في سياستها وقيادتها، وكان فوق مواهبه الإدارية والعسكرية غزير العلم والأدب، متمكنًا من الحديث والفقه، عالمًا بالفلك، مجيدًا للنثر والنظم.

وإليه يرجع الفضل الأول في عبور الإسلام إلى أوربا من الغرب وقيام دولته فيها، بعد أن أخفقت محاولته في العبور إليها من المشرق عن طريق القسطنطينية. ومع أن سيل الفتح الإسلامي رد غير بعيد في سهول «بلاط الشهداء»، فإن الإسلام اِستطاع مع ذلك أن يستقر في إسبانيا قرونًا، يبهر بضوء مدينته الزاهرة جميع الأمم الأوربية في العصور الوسطى.

عُمر مشدوهًا: عظيمٌ جدًا! لقد رويت لي حكاية كالخيال وإن كانت حقيقة ولكن ماذا عن مائدة سليمان أهي حقًا له؟

الجد: لقد كانت مائدة مقدسة عند القوط قيل إنها مائدة سليمان بن داوود -عليهما السلام- حيث إنها من منهوبات «بُختنصر» حين خرب بيت المقدس وغار عليها وكان من بين قواته أحد ملوك الأندلس واسمه بريان فوقعت في سهمه وحملها إلى هناك، ويقولون أن الجن كانت تتحف النبي سليمان -عليه السلام- بهذه الجواهر، تغوص عليها إلى قعر البحار فتخرجها.. وهناك من قال إن المائدة هي مذبح الكنيسة الجامعة في طُلَيْطِلَة تحمل الشمامسة والقسوس فوقها الأناجيل في أيام المناسك، ويضعونها في الأعياد للمباهاة، وأطلق المسلمون عليها مائدة سليمان لما فيها من عظيم اللؤلؤ والمجوهرات، وقد كسّرت بعد ذلك وأدخل ما فيها لبيت مال المسلمين كما أمر الخليفة أن يضرب منها حلي الكعبة وميزابها، ففُعِل.

عُمر: وماذا حدث مع الكونت يوليان وأوباس وإيفا وسيزبوت؟

أمَّا مصير «الكونت يوليان» الذي مهد لفتح الأندلس، فقد عاد بعد الفتح إلى سَبتة وأُقطع ما حولها من الأراضي، وقُلد إمارتها جزاء خدماته، ولكنه بقي نصرانيًا هو وبنوه الأقربون، ثم دخل عقبه في الإسلام من بعد ذلك.

وأوباس عُين مطرانًا أكبر لطُلَيْطِلَة يرجع إليه القوط في كل أمر من أمورهم، فقد سمح المسلمون للنصارى بممارسة شرائعهم بحرية، وتركوا لهم كنائسهم ولم يأخذوها منهم غصبًا إلا أن تكون مهجورة.

أمَّا «إيفا وسيزبوت» فلمّا وصلا إلى «الوليد» أكرمهما وأنفذ لهما عهد طارق في ضياع والدهما، وعقد لكل واحد منهما سجلًا، وجعل لهما ألا يقوما لداخلٍ عليهما، فقدما الأندلس، وحازا ضياع والدهما أجمع، واقتسماها على موافقة منهما، فصار لكبيرهما سيزبوت ألف ضيعة في غرب الأندلس، فسكن من أجلها «إشبيلية» مقتربًا منها، وصار للثاني ألف ضيعة، وهو تلوه في السن، وضياعه في موسطة الأندلس، فسكن من أجلها «قُرْطُبة».

ثم توفي إيفا بعد ذلك بأعوام عن ابنة تدعى «سارة» وولدين صغيرين، وتزوجت سارة في «دمشق» من سيد عربي يُدعى «عيسى بن مزاحم»، ورُزقت منه بولدين هما «إبراهيم، وإسحاق»، وأحرز ولداها مكانة ممتازة، وإليها ينتمي نسب «ابن القوطية القرطبي» المؤرخ الشهير، نسبة إلى لقبها العربي وهو «سارة القوطية».

عُمر: والله يا جدي، لا أستطيع وصف ما أشعر به الآن، ولكن منذ اليوم سأقرأ عن «طارق، وموسى، وعقبة» وغيرهم من الرجال فبمثل هؤلاء تعلو الهمم لخدمة ديننا ونزداد فخرًا وحبًا له، سأقص على أبنائي مثل ما أخبرتني عنهم بدلًا من قصص علاء الدين والفانوس السحري، وسأعلمهم أن هذه الأمة أعزت يومًا بالإسلام، ولن يعود لها عزها إلا بعودتها إليه.

الجد: لا تنس يا ولدي أن تختار لأبنائك أسماء جميلة (عبد الرحمن، خالد، عُمر، صلاح، طارق....الخ) ثم اِحك لهم عن سر الاسم ولماذا اخترته لهم؟ علمهم أن الإسلام دين الرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ وأنه دين سمح لا يكره أحدًا عليه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغيِّ﴾ فهو دين العزة والنفس الأبية ﴿مَنِ اعْتدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمتَّقِينَ﴾.

❀❀✽❀❀

تمت بحمد الله، راوي الأندلس.